

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير

سُورَةُ الْاَنْفَالِ

الدكتور

محمد سيد طنطاوي

مفتي الديار المصرية

الطبعة الثالثة

١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ



۷ ش باب الاخير المشهد الحسيني

القاهرة ٩٣٦٠٠٨ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه

وبعد فهذا تفسير لسورة الأنفال أسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا
لوجهه ونافعا لعباده إنه سميع مجيب .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المؤلف

د . محمد سيد طنطاوي

تمهيد بين يدى تفسير السورة

١ - سورة الأنفال هى السورة الثامنة فى ترتيب المصحف ، فقد تقدمتها سورة الفاتحة وهى مكة ، ثم جاءت بعد سورة الفاتحة أربع سور مدنية ، هن أطول السور المدنية فى القرآن ، وهن سور : البقرة ، آل عمران ، النساء . المائة . ثم جاءت بعد هذه السور الأربع سورتان مكيتان ، وهما أطول السور المكية فى القرآن ، سورتا : الأنعام والأعراف ثم جاءت سورة الأنفال بعد ذلك ، فكانت الثامنة فى ترتيب سور المصحف .

٢ - وعدد آياتها خمس وسبعون آية فى المصحف للكونى ، وست وسبعون فى الحجازى ، وسبع وسبعون فى الشامى .

٣ - وقد سميت سورة الأنفال بهذا الاسم ، لحديثها عن الأنفال أى الغنائم فى أكثر من موضع .

وقد أطلق عليها بعض الصحابة سورة بدر ، فقد أخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير أن ابن عباس سئل عنها فقال . تلك سورة بدر (١)

٤ - وسورة الأنفال كلها مدنية ، ومن قال بذلك : زهد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وهطاء بن أبى رباح والحسن ، وعكرمة .

قال صاحب المنار : وقيل إنها مدنية إلا آية ٦٤ ، وهى قوله تعالى :
« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » فقد روى البزار عن ابن عباس أنها نزلت لما أـ لم عمر بن الخطاب ، فعلى . لذا وضعت فى سورة الأنفال وقرئت مع آياتها التى نزلت فى التحريض على القتال فى غزوة بدر لمناسبتها

للمقام ، وروى عن مقاتل استثناء قوله - تعالى - «وإذ يامر بك الله الذئف كففروا اليثبنوك أو يقتلوك . . . الآية ٣٠» ؛ لأن موضوعها اتجار قريش بالنبي - ﷺ - قبيل الهجرة ، بل في الآية التي خرج فيها رسول الله - ﷺ - مع صاحبه أبي بكر بقصد الهجرة وباتفاق الغار ، وهذا استنباط من المعنى ، وهو استنباط يرده ماصح عن ابن عباس من أن الآية نفسها نزلت في المدينة .

وزاد بعضهم استثناء خمس آيات أخرى بعد هذه الآية ، وهي قوله تعالى - : «وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا ... إلى قوله : «بما كنتم تكفرون» ، (الآيات من ٣١ - ٣٥) ؛ لأن موضوعها حال كفار قريش في مكة ، وهذا لا يقتضى نزولها في مكة ، بل ذكر الله بها رسول بعد الهجرة ، وكل ما نزل بعد الهجرة فهو مدني ، (١) .

والذي تراح إليه النفس أن سورة الأنفال جميعها مدنية ، وأن ما في بعض آياتها من أوصاف لأحوال المشركين في مكة قبل الهجرة لا يعنى كون هذه الآيات مكية ؛ لأن هذه الآيات إنما هي من باب تفكير الرسول وأصحابه بما كان عليه أولئك القوم من عناد ومكابرة وانحراف عن الطريق القويم ، أدى بهم إلى الهزيمة في بدر وفي غيرها من المعارك التي كان النصر فيها للمؤمنين .

هـ - وقد ذكر بعض المفسرين - ومنهم الزمخشري - أن سورة الأنفال نزلت بعد سورة البقرة ، ولعل مرادهم بذلك أن نزولها كان بعد نزول بعض الآيات من سورة البقرة ، لأنه من المعروف أن سورة البقرة لم تنزل دفعة واحدة ، وإنما ابتداء نزولها بعد الهجرة ، ثم امتد هذا النزول لآياتها إلى قبيل وفاة الرسول - ﷺ ، مدة قصيرة .

٦ - قال الألوسي : ووجه مناسبتها للسورة الأعراف أن سورة الأعراف

حياً ، خط الفخو وأمر بالعرف وفي هذه - أي الأنفال - كثير من أفراد المأمور به ، وفي الأعراف ذكر قصص الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مع أقوامهم ، وفي هذه ذكر - ﷺ - وذكر ما جرى بينه وبين قومه .

وقد فصل - سبحانه - في تلك قصص آل فرعون وأضرابهم وما حل بهم وأجل في هذه ذلك فقال : « كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآبائهم فآخذهم الله فآخذهم الله بذنوبهم »

وأشار هناك إلى سورة زعم الكفرة في القرآن بقوله - تعالى - : « وإذا لم تأتكم بآية قالوا لولا اجتبتنا . . . » وصرح بذلك هنا إذ يقول . . . « وإذا نتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا . . . » إلى غير ذلك من المناسبات .

ثم قال الألوسي : والظاهر أن وضعها هنا توقيفي ، وكذا وضع براءة بعدها ، وإلى ذلك ذهب غير واحد . . . (١) .

والحق أنه بما اعتدنا لما يقوله الألوسي وغيره من المفسرين في بيان مناسبة السورة لتلى قبلها ، نرى أن هذه الأقوال لا تخلو من تكلف ، وأن كثيراً مما ذكره من مناسبات بين سورتين معينتين لا يختص بهما ، بل هو موجود فيهما وفي غيرهما .

فالألوسي - مثلاً - يجعل من وجوه مناسبة الأنفال للأعراف أن الأعراف فيها « وأمر بالعرف ، وأن الأنفال فيها كثير من أفراد المأمور به . . . » وهذا المعنى نراه في كثير من السور المتتالية ، فسورة آل عمران - مثلاً - من بين آياتها قوله - تعالى - : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . . . » (٢) وسورة النساء - التي بعدها - فيها

(١) تفسير الألوسي ج ٩ ص ١٥٨ تنصرف بسبب .

(٢) الآية ١٠٤ .

- أيضاً - كثير من أفراد المأمور به ؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقوم عليها المجتمع الإسلامي .

والذي تميل إليه النفس أن ترتب السور توفيقى ، وأن كل سورة لها موضوعاتها التي تراها بارزة بصورة تميزها عن غيرها .

٧ - سورة الأنفال عند ما تتأمل ما اشتملت عليه من آيات ، تراها تحدثنا - في مجموعها - عن غزوة بدر ، فتمرض أحداثها الظاهرة ، كما تمرضهم بنارات النصر فيها ، وتكشف عن قدرة الله وتديبه في وقائع هذه الغزوة الحاسمة ، وتبين كثيراً من الإرشادات والتشريعات الحربية التي يجب على المؤمنين اتباعها حتى ينالوا النجاح والفلاح .

روى البخارى عن ابن عباس أن سورة الأنفال نزلت في بدر (١) :-

(أ) لقد افتتحت للسورة الكريمة ببيان أن قسمة الأنفال - أى

الغنائم - مردها إلى الله ورسوله ، وأن على المؤمنين أن يذعنوا لما يفعله فيها رسولهم - ﷺ - ثم وصف المؤمنين الصادقين أكل كل وحش ، وبشرتهم بأسمى المنازل ، وأرفع الدرجات .

قال - تعالى - : ، يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول .

فاتقوا الله وأطيعوا الله وأطيعوا أئمة الدين ، فاتقوا الله وأطيعوا الله وأطيعوا أئمة الدين ، وإذا قلنا بآياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون (٢) الذين يقيمون الصلاة ويؤتوا الزكاة وينفقون (٣) أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ، (٤) .

(٢) صحيح البخارى . كتاب التفسير ج ٢ ص ٧٧ طبعة مصطفى

(ب) وبعد هذا الحديث الطيب عن أوصاف المؤمنين الصادقين ، تبدأ السورة في الحديث عن حال بعض الذين اشتركوا في غزوة بدر ، وكيف أنهم كرهوا القتال في أول الأمر ، لأنهم لم يخرجوا من أجله وإنما خرجوا من أجل الحصول على التجارة التي قدم بها مشركو قريش من بلاد الشام لكن الله - تعالى - أراد أن يعلمهم وغيرهم أن الخير فيما قدره ، لا فيما يقدرون ويريدون .

استمع إلى السورة الكريمة بتأمل وتدبر وهي تصور هذه المعاني بأسلوبها البليغ المؤثر فتقول .

« كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون (٥) يحادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون (٦) وإذ يهدى الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ، ويقطع دابر الكافرين (٧) ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون (٨) » .

(ج) ثم تسوق السورة بعد ذلك ألواناً من البشارات التي تشعر المؤمنين بأن الله - تعالى - قد أجاب لهم دعاءهم ، وأنه - سبحانه - سيحمل النصر في هذه المعركة حليفاً لهم ، ومن مظاهر هذه البشارات أن الله - تعالى - أمدهم بإيات من الملائكة مردفين ، وأمدهم بالنعاس ليكون مصدر طمأنينة لقلوبهم ، وأمدهم بمياه الأمطار ليتطهروا بها ، ولتنتهي الأرض من قتلهم ، وأمدهم قبل ذلك وبعد موته الذي جعلهم يقبلون على قتال أعدائهم بقلوب مأثومة الأندام والشجاعة

قال - تعالى - : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني معدكم

جاءك من الملائكة مردفين (٩) وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم (١٠) إذا يغشيكم النعاس أمنة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام (١١) . .

(د) ثم وجهت السورة للكرامة خمس نداءات إلى المؤمنين ، أرشدتهم في كل واحد منهم إلى ما فيه خيرهم وفلاحهم .

فقد أمرتهم في النداء الأول بالثبات في وجوه أعدائهم ، ونهتهم عن الفرار منهم ، وهددت من يولم دبره بسوء المصير ، وأخبرتهم بأن الله معهم ما داموا معتمدين عليه ، ومستجيبين لما يدهوهم إليه .

وأمرتهم في النداء الثاني بطاعة الله ورسوله ، وحذرتهم من المعصية ، ومن التشبه بالكافرين الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون .

وأمرتهم في النداء الثالث بالمسارعة إلى أداء ما كلفوا به من تكاليف فيها سعادتهم وفلاحهم ، وخوفتهم من ارتكاب ذنوب لا يحق شرها بالدين ارتكبوها وحدهم ، وإنما يعمهم وغيرهم عن رأوا المنكر فلم يعملوا على تغييره ونهتهم في النداء الرابع عن خيانة الله ورسوله ، أي : عن ترك فرائض الله ، وعن هجر سنة رسوله . . وحذرتهم من أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن طاعة الله وعن أداء واجباته .

ثم بشرتهم في النداء الخامس بأنهم إذا ما اتقوا الله حق تقائه ، فإنه - سبحانه - يرزقهم الهداية والنصر والنجاة من كل مكروه .

تدبر معي - أخى القارىء - هذه النداءات ، وما اشتملت عليه من توجيهات سامية وإرشادات عالية ، حيث يقول - سبحانه - :

يا أيها الذين آمنوا إذا لقنتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم
الآداب (١٥) ... يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه
وأنتم تسمعون (٢٠) ... يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول
إذا دعاكم لما يحييكم (٢٤) ... يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله وللرسول
وتخونوا أيمانكم وأنتم تعلمون (٢٧) ... يا أيها آمنوا إن تتقوا الله
يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم (٢٩) ..

(٥) ثم أخذت السورة بعد ذلك في تذكير المؤمنين بنعم الله عليهم
اليزدادوا له شكراً ، وفي تصوير ما عليه الكافرون من جهل وعناد وخسران .

فحكمت ما قالوه في شأن القرآن من كذب ومكابة .

وحكمت استهزاءهم بالدين ، وإيمانهم في الجحود ، وتعجلهم للعذاب ..

وحكمت ما كانوا يقوّمون به من تصفيق ولفو عند قراءة القرآن ،
حتى يشغلوا الناس عن سماعه ...

وحكمت مسارعتهم إلى إنفاق أموالهم ، لا في وجوه الخير ، وإن كان في
وجوه الشر التي ستكون عاقبتها الخسران وسوء المصير .

وبعد أن حكمت كل هذه الرذائل عن الكافرين ، أمرت الرسول - صلى الله
عليه وسلم - أن يبلغهم أنهم إذا ما اتقوا عن كفرهم وعنادهم ، فإن الله
- تعالى - سيغفر لهم ما سلف من ذنوبهم . أما إذا استمروا في طغيانهم
وجحودهم ، فستدور الدائرة عليهم .

قال - تعالى - : « ولا يمسكركم الذين كفروا ليشتبوك أو يقتلوك
أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين (٢٠)

وإذا أتى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا ، لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين (٣١) وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم (٣٢) وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون (٣٣) .

(و) وبعد أن افتتحت السورة الكريمة بالحديث المجل عن الغنائم وسأقت في أعقابه ما سأقت من توجيه وإرشاد وترغيب وترهيب .

بعد كل ذلك عادت السورة إلى الحديث عن الغنائم ، ففصلت ما أجلته في مطالعها ، وذكرت المؤمنين بنعم أخرى منحهم الله إياها في بدر .

ومن ذلك : أنه - سبحانه - هبأ لهم المسكان المناسب لقتال أعدائهم ، وجعل اللقاء الحاسم بين الفريقين بدون موعد سابق . . . وقلل كل فريق في عين الآخر ليقضى - سبحانه - قضاءه النافذ . . .

قال - تعالى - : ه واعدوا أنما غنمتم من شيء . فإن لله خمسة ولرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، إن كنتم آمنتم بالله وما على أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير (٤١) إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى ، والركب أسفل منكم ، ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضيه الله أمرأ كان مفعولا . ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم (٤٢) .

(د) ثم يأتي بعد ذلك النداء السادس والأخير للمؤمنين ، فيأمرهم

— سبحانه — فيه بالثبات عند لقائهم لأعدائهم ، وبالإكثار من ذكره ، وبالعاطفة الشامة له ورسوله ، وبالاتباع عن التنازع والاختلاف .

ثم ينههم عن التشبه بالمرائين ، والمتكبرين ، والمغرورين ، الذين زين لهم الشيطان سوء أعمالهم . . . ولكنه عندما ترى الجمعان نكس على عقبيه والذين سيكون مصيرهم المريعة في الدنيا ، والعذاب المهين في الآخرة حسب كفرهم بآيات الله ، وإيثارهم الضلالة على الهداية .

قال — تعالى — : يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون (٤٥) وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ربكم واصبروا إن الله مع الصابرين (٤٦) ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله ، والله بما يعملون محيط (٤٧) وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ، فلما تراءت الفئتان نكس على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون ، إني أخاف الله ، والله شديد العقاب (٤٨) .

(ح) ثم تمضي السورة الكريمة في تصوير ردائل الكافرين ، وفي تشجيع المؤمنين على قتالهم ، وإعداد العدة لدهرم وتشريدهم ماداموا مستمرين على كفرهم وخيانتهم . . . ، فإن جنحو السلم . ومالوا إلى المصالحة والمهادنة فاقبل منهم ذلك — أيها الرسول الكريم — ، واحترس من خداعهم وغدرهم ، وحرص أنباهك على قتالهم بصبر وجلد .

قال — تعالى — : وإن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون (٥٥) الذين طاعتوا مبادئهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة

وم لا يتقون (٥٦) فإذا تنفقتم في الحرب فشرذمهم من خلفهم لعلهم
 يذكرون (٥٧) ولما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن
 الله لا يحب الخائنين (٥٨) ولا يحب الذين كفروا سبقوا لأنفسهم
 لا ينجزون (٥٩) وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل
 ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله
 يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم
 لا تظلمون (٦٠) وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع
 العليم (٦١) . .

(ط) ثم انتقلت السورة إلى الحديث عن أسرى غزوة بدر من المشركين
 فبينت ما كان يجب على الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين في شأنهم ،
 وعائبتهم لإيثارهم أخذ الفداء على ما عند الله من ثواب عظيم ، وأباح لهم
 أن يأكلوا مما غنموا ، فإنه حلال طيب ، وأمرت النبي - صلى الله عليه وسلم -
 أن يدعو الأحرى إلى الدين الحق ، وأن يعبرهم بأنهم متى آمنوا ظفروا
 بخيرى الدنيا والآخرة .. تأمل معنى - أخى القارىء - هذه الآيات السكرية
 التى ساقها السورة فى هذا المعنى .

• ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يشحن فى الأرض ،
 تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم (٦٧) -
 لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم (٦٨) -
 فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم (٦٩) -
 يا أيها النبي قل إن فى أيديكم من الأحرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً

يؤتاكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم واثقه غفور رحيم (٧٠)
وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم واثقه عليهم
حكيم (٧١) . .

(ي) وإذا كانت السورة قد تحدثت في أوائلها عن صفات المؤمنين . .
للصالحين ، وعن حال الذين كرموا للخروج القتال في بدر . . فإنها قد
تحدثت في ختامها - أيضاً - عن أصناف المؤمنين ، . . فحدث المهاجرين
السابقين ، ومدحت الأنصار الذين آووا ونصروا . لأنهم قد اشتركوا جميعاً
في بذل أموالهم وأنفسهم من أجل إعلاء كلمة الله ، . . ثم ينته مايجب عليهم
نحو غيرهم من المؤمنين الذين لم يهاجروا ، بل ظلوا في أرض الشرك .
ثم مدحت المؤمنين الذين تأخرت هجرتهم عن صلح الحديبية - وإن كانوا أقل
في الدرجات من المهاجرين السابقين - .

قال - تعالى - : : إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم
 وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء
 بعض ، والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى
 يهاجروا ، وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم
 بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعلمون بصير (٧٢) والذين كفروا
 بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد
 كبير (٧٣) والذين آمنوا وهاجروا في سبيل الله والذين آووا
 ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم (٧٤)
 والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم .

وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ، إذ الله بكل شيء عليم . (٧٥) .

٨ - هذا عرض مجمل لما اشتملت عليه سورة الأنفال من توجيهات حسنة ، وآداب عالية ، وتشريعات حكيمة . . .

ومن هذا المرض نرى أن السورة الكريمة قد اهتمت بأمر من أبرزها :
حائلي :

(أ) تربية المؤمنين على العقيدة السليمة ، وعلى الطاعة لله ورسوله ، وإصلاح ذات بينهم ، والثبات في وجه أعدائهم ، والإكثار من التقرب إلى خالقهم ، والمداومة على مراقبته وخشيته وشكره ، فهو الذي هدانا للإيمان ، وهو الذي آوأم وأيدم بنصره وورزقهم من الطيبات . . بعد أن كانوا ضالين ومستضعفين في الأرض . : ولقد أفاضت السورة في غرس هذه المعاني في نفوس المؤمنين لأنها نزلت كما سبق أن بينا -- في أعقاب اللقاء الأول بينهم وبين أعدائهم -- فمكان من المناسب أن تكرر غرس هذه المعاني في القلوب حتى تستمر على طاعة الله ورسوله ، تلك الطاعة التي من ثمارها الظفر الدائم والخير الباقي . .

(ب) تذكير المؤمنين بما عليه أممهم من جحود وعناد ، وبما كان منهم من مكر برسولهم -- صلى الله عليه وسلم -- أو من استهزأهم بدينهم وقرآنهم ومن عداوة شديدة للحق وأهله ، ومن صفات ذميمة جعلتهم أهلاً لاستحواض الشيطان عليهم . . . وهذا التذكير قد تكرر كثيراً في سورتنا هذه ، لكي يستمر المؤمنون على حسن استعدادهم ، ولكي لا انفسهم نشوة النصر في بدر ما يضرهم لهم أعداؤهم من كراهية وبغضاء ، وما يبيتونه لهم من سوء وشر .

(ج) إرشاد المؤمنين إلى المنهاج الذي يجب أن يسيروا عليه في حالتهم حربهم وسلمهم ، لأنهم متى ساروا عليه حالقهم النصر ، وصاحبهم التوفيق في حالة الحرب : أمرتهم السورة الكريمة بأن يبدؤوا لأعدائهم كل

ما يستطيعون من قوة. وأن يبذلوا أموالهم بسخاء من أجل نصرة الحق..
 حوأن يقاتلوا خصومهم بشجاعة وإقدام ، وأن يكثروا من التقرب إلى الله
 بصلاح الأقوال والأعمال — خصوصاً في موطن القتال — . وأن يجعلوا
 غايتهم في قتالهم إحقاق الحق وإبطال الباطل ، حتى لا تكون فتنة ويكون
 الدين كله لله

وأن يؤثروا السلم على الحرب متى وجد السبيل إليه ، فإن السلم هو الأصل
 أما الحرب فهي أمر لا يلجأ إليه إلا عند الضرورة التي تقتضيها . . أما في حالة
 سلمهم : فقد أمرتهم السورة الكريمة بالتآخي والتناصر والتواد والزراحم
 والتصالح . . ونيز التنازع والتخاصم والاختلاف والبطر .

كما أمرتهم بتقوى الله وبإيثار ما عنده من ثواب وأجر إلى الأموال
 والأولاد .

قال — تعالى — : «واعلموا أنما أمراكم وأرلادكم فتنة وأن الله عنده
 أجر عظيم . .

وهناك موضوعات أخرى تعرضت لها السورة :

كحديثها عن الغنائم ، وعن الأسرى ، وعن المعاهدات ، وعن أحداث
 غزوة بدر ، وعن المشاعر التي تخرجت في نفوس بعض المشركين فيها قبل
 أن تبدأ المعركة وخلالها وبعدها .

وقد حاقت السورة الكريمة كل ذلك بأسلوب يهدي للقلوب ، ويشرح
 الصدور ، ويرشد الناس إلى مواطن عزهم وسعادتهم .

هذا ، وأرى من المناسب — أخى القارىء — أن نختم هذا العرض المجمل
 لسورة بدر — كما سماها ابن عباس — بتخليص قصة هذه الغزوة لتندم الجو
 الذي نزلت فيه هذه للسورة ، ولندرك مرامي النصوص فيها . . لأننا نختفه
 (٢ - الأنفال)

أن مما يهين على فهم الآيات القرآنية فهماً قوياً مستثيراً ، أن يكون القارىء -
أو المفسر لها ملماً بأسباب نزولها وبالجزء التاريخي الذي نزلت فيه ، وبالأحداث
التي لا بدت نزولها . . بجانب إلمامه بمدلولاتها اللغوية والبيان . .

قال الإمام ابن هشام عند حديثه عن « غزوة بدر الكبرى » ، (١) .

قال ابن إسحاق : لما سمع رسول الله - ﷺ - بأن سفيان مقيلاً من الغمام في
هيرة قريش عظيمه . . ندب المسلمين إليها وقال : هذه هيرة قريش فيها أموالهم .
فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها ، فانتدب الناس نخف بعضهم وثقل بعضهم
وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله - ﷺ - يلقى حرباً .

وكان أبو سفيان - حين دنا من الحجاز - يتجسس الأخبار ، ويسأل
من لقي من الركبان : تخوفاً على أمر الناس - أي : على أموالهم التي معها في القافلة -
حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعمرك
فحذر عند ذلك . فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة ، وأمره
أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لهما في
أصحابه . فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة .

فلما وصلها أخذ يصرخ ببطن الوادي . . ويقول يامعشر قريش : اللطيمة
اللطيمة - أي : العير التي تحمل اللطيف والمك والثياب . . - أموالكم مع
أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه ، لا أرى أن تدركوها . الغوث الغوث
فتجمع الناس سراهاً وقالوا : أيقظ محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن
الحضرمي ؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك فكانوا بين رجلين ، إما خارج وإما
باعث مكانه رجلاً ، وأوعيت قريش فلم يتخلف من أشرفها أحد .

- خرجوا بالقيان والدقاق يفتن في كل منهل ، وينحرون الجزر ،
وهم تستعمائة وخمسون مقاتلاً ، وقادوا مائة فرس ، عليها مائة دارع سوى
درع المشاة ، وكانت إبلهم سبعمائة بعير .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ومعا شرحها الإمام السهيلي ج ١ ص ٩١ -
طبعة دار الكتب الحديث بالقاهرة .

قال ابن إسحاق : وخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في ليال مضت من شهر رمضان فمصحبه : واستعمل ابن مكتوم على الصلاة بالناس ، واستعمل على المدينة أبا لبابة . . ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير .

وكان لبل المسلمين يومئذ سبعين بعيراً ، فاعتقبوها أى كانوا يركبونها بالتعاقب ، وكانت راية الانصار مع سعد بن معاذ .

وسلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - طريقه من المدينة إلى مكة على نقب المدينة ، ثم على العقيق ، ثم على ذى الحليفة . . ثم نزل قريباً من بدر . . وآتى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الخبر عن قريش بمسيرهم لينعوا عيرهم ، فاستنصر الناس وأخبرهم عن قريش فقام أبو بكر فقال وأحسن . ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن . ثم قام المقداد بن عمرو فقال يا رسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى . اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون .

ثم قال رسول الله - ﷺ - أشيروا على أيها الناس ، وإنما يريد الانصار ، وذلك لأنهم عدد الناس . وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله : إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلى ديارنا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أباننا ونساءنا .

فلما قال رسول الله - ﷺ - ذلك ، قال له سعد بن معاذ : والله لكانك تريدنا يا رسول الله ، لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك هودنا وموائيقنا ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك وهو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخاف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، وإننا لصبر في الحرب ، صدق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله ، ففرح - رسول الله - ﷺ - بقول سعد . .

ثم قال : سبروا وأبشروا ، فإن الله - تعالى - قد وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم .

قال ابن إسحاق : ثم ركب رسول الله - ﷺ - ومعه أبو بكر فسارا حتى وقفا على شيخ من العرب . فسأله الرسول - ﷺ - عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم ، فقال الشيخ لا أخو كما حتى تخبراني عن أنفسنا ؟ فقال رسول الله - ﷺ - إذا أخبرتنا أخبرناك . قال : أذاك بذلك ؟ قال : نعم ، قال الشيخ : فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الذي أخبرني ، فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذي به المسلمون .

وبلغني أن قريشا خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان الذي أخبرني صدقني ، فهم اليوم بمكان كذا وكذا ، للمكان الذي فيه قريش .

فلما فرغ من خبره قال : عن أنفسنا ؟ فقال رسول الله - ﷺ - نحن من ماء ، ثم انصرف عنه .

ثم رجع رسول الله - ﷺ - إلى أصحابه فأمسى أرسل بعضهم إلى ماء بدر يلتبسون الخبر له . فأصابوا ساقين لقريش فأتوا بهما . . . فقال لهما النبي - صلى الله عليه وسلم - أخبراني عن قريش .

قالا : هم والله وراء الكتيب الذي ترى بالعنوة القصوى .

فقال لهما : كم القوم ؟ قالوا كثير قال : ما عددهم ؟ قالوا لا ندري قال : كم ينحرون كل يوم ؟ قالوا : يوماً نسمأ ويوماً نأشأ . فقال القوم فيما بين القسمائة والألف ثم قال لهما : فمن فيهم من أشرف قريش ؟ قالوا : هبة وشيبة ابنا ربيعة ، والنضر بن الحارث ، وزمعة بن الأسود ، وأمية بن خلف . . . فأقبل رسول الله - ﷺ - على الناس فقال : هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها . . .

قال ابن إسحاق : ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عمره ، أرسل إلى قريش : إنكم إنما خرجتم لتمنعوا غيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد نجهاها الله فارجعوا ، فقال أبو جهل : والله لا أفرج حتى فرد ماء بدر ، فنظم عليه

ثلاثة ، تنحر الجوز ، ونظام الطعام ، ويسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ،
وتسمع بنا العرب وبمصرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها .

وقال الأخنس بن شريق انى زهرة ، يا بنى زهرة قد نجى الله لكم أمم والكم
فارجعوا فارجعوا فلم يشهد غزوة بدر زهرى واحداً . ومضت قريش حتى زلوا
بالعدوة القصوى من الوادى . . . وبعت الله السماء بالماء فأصاب المسدود منه
ماليدهم الأرض ولم يمنهم من المسير ، وأصاب قريشا منه ما لم يقدر راعى
أن يرتحلوا معه فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم — يبادرهم إلى الماء ،
حتى إذا جاء ماء نزل به . . .

فقال الحباب بن المنذر يا رسول الله ؟ أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن
تقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والمكيدة والحرب ؟

فقال رسول الله ﷺ : — بل هو الرأى والمكيدة والحرب .

فقال الحباب يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فامض بالناس حتى
تأتى أدنى ماء من القوم فنزله ، ثم نتور ما وراءه من القلب — أى :
ثم نغطى ما خلفها من الآبار — ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم
نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون .

فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم : لقد أشركت بالرأى ، ثم نهض
ومعه الناس فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ، ثم أمر بالقلب
فعمرت وبني حوضاً على القلب الذى نزل عليه فى الماء . ثم قال سعد بن معاذ
يا رسول الله ، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ثم نلقى
عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا ، كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت
الأخرى ، جلست على ركائبك فلحقنا بمن وراءنا . فقد تخلف عنك أقوام —
يا نبى الله ما نحن بأشد لك حجاباً منهم ، وأو ظناً أنك تلقى حرباً ما تخلفو عنك
فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه . ودعاه بخير ، ثم بنى رسول
الله عريشاً فشكل فيه . . .

ثم ارتحلت قريش حين أصبحت ، فلما رأها رسول الله - ﷺ -
قادمة من الكتيب إلى الوادي قال : اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها ،
تحدك و - كذب رسولك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني . اللهم أحهمم الغذاء . .
ثم أرسلت قريش حمير بن وهب الجمحي فقالوا له : احذر لنا أصحاب
محمد ، فاستجبال بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم فقال : هم ثلاث مائة
رجل يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا . .

ولقد رأيت - يامعشر قريش - البلياء تحمل المنابا ، فواضح يثرب تحملي
لناوث النافع . قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم . والله ما أرى أن
يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم ، فإذا أصابوا منكم أهدام فما خير
العيش بعد ذلك ، فروا رأيكم .

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس ، فأتى عتبة بن ربيعة فقال :
يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها ، فهل لك إلى أن تفعل شيئا
تذكر به بغير إلى آخر الدهر ؟ فقال عتبة : وما ذاك يا حكيم ؟

قال : ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك حمرو بن الحضرمي . . .
قال عتبة : قد فعلت . . ثم قام عتبة خطيبا في الناس فقال :

يامعشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا ،
والله لأن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه . قتل
ابن عمه أو ابن خاله . . فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ؛
فإن أصابوه فذاك الذي أردتم ، وإن كان غير ذلك ألقاكم ولم تعرضوا منه
ما تريدون . .

ولم يخف كلام عتبة أبا جهل فسه . . ، ثم بعث أبو جهل إلى ابن الحضرمي
فقال له : هذا حليفك عتبة يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت نارك بهيئتك ،
فقم فأنشد خضرتك ومقتل أخيك - أي : فقم فاطلب من الناس الوثاق بالعمد
والأخذ بنار أخيك .

فقام إليه الحضرمي فاكتشف ثم صرخ : واحمره ، واحمره ، واحمره ، فحميت للحرب ، واشتد أمر الناس ، واستوثقوا على ما هم عليه من الشر ، وأفسد أبو جهل للرأي الذي دعا عتبة الناس إليه ..

قال ابن إسحاق : ثم خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي - وكان عرسا من الخلق - فقال : أجاهد الله لأشرب من حوضهم أو لأهد منه ، أو لأموئن دونه . فلما دنا منه خرج إليه حمزة بن عبد المطلب . فلما التقيا طربه حمزة فأطعن قدمه بنصف ساقه - أي . أطارها - وهو فون الحوض ، فوقع على ظهره فتدخبت رجله دما نحو أصحابه . ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه ، فطربه حمزة حتى قتله في الحوض ..

ثم خرج عتبة بين أخيه شيبة وابنه الوليد بن عتبة ... فنادى بأحمد : أخرج إلينا أكفأنا من قومنا . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : قم يا عبيدة وقم يا حمزة وقم يا علي . . . أما حمزة فلم يعمل شيبة أن قتله ، وأما علي فلم يعمل الوليد أن قتله ، واختلفت عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما أقبض صاحبه - أي : جرحه جرحا شديدا لا يملك معه الحركة - وكر حمزة . وعلى بأسيا فهما على عتبة فأجهزا عليه ، واحتملا عبيدة لحمازه إلى أصحابه . قال ابن إسحاق : ثم تواخف الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، وقد أمر رسول الله الناس أن لا يعملوا حتى يأمرهم ، وقال : إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل . . .

ثم ع - ل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الصفوف ، ورجع إلى العريش فدخله ، ومعه أبو بكر الصديق . . . وأخذه الرسول - صلى الله عليه وسلم - يناشد ربه ويقول فيم يقول : اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد . وأبو بكر يقول : يا رسول الله بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجوك لك كما وعدك . . .

ثم خفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خلفه وهو في العريش ، ثم

ينبه فقال : « أبشريا أيا بكر ، أذاك نصر الله . هذا جبريل آخذ بضان فرسه يقوده على ثناية النقع » - أى الغبار .

وكان قد رمى مجمع مولى عمر بن الخطاب بسهم فقتل ، فكان أول قتيل من المسلمين .

ثم رمى حارثة بن سراقة وهو يشرب من الخوض بسهم فقتل .
ثم خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الناس فخرضهم وقال :
« والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا غيبا ، مقبلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة » . .

ثم إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أخذ حفنة من الحصياء فاستقبل قريشا بها ، ثم نفخهم بها وأمر أصحابه فقال : « شدوا » فكانت الهزيمة فقتل الله - تعالى - من قتل من صناديد قريش ، وأسر من أسر من أشرفهم .
فلما وضع القوم أيديهم يأمررون ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - في العريش ، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش الذى فيه رسول الله - ﷺ - متوشحا بالسيف في نفر من الأنصار يحرسون رسول الله . يخافون عليه كرة العدو ، ورأى رسول الله - ﷺ - في وجه سعد الكراهية لما يصنع الناس ، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « والله أسألك باسعد تذكره ما يصنع القوم » ،

فقال سعد : أجل والله يا رسول الله ؟ كانت هذه أول موقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإحسان في القتل أحب إل من استبقاء الرجال .
ثم قال الرسول الله - ﷺ - لأصحابه يؤمئذ : « إني قد عرفت أن رجلا من بنى هاشم غيرهم قد أخرجوا كرها ، حاجة لهم بقتلنا ، فن لقي منهم أحد من بنى هاشم فلا يقلبه ومن لقي أبا الجحترى فلا يقتله » .
قال ابن إسحاق : - وبعد انتهاء المعركة - أمر رسول الله - ﷺ - بالقتل من المشركين أن يطرخوا في القليب فلما طرخوا وقف عليهم فقال . .

« بنس العشرة كنتم لنبيكم - يا أهل القلب - لقد كذبتموني وصدقني الناس ،
وأخبرجتموني وآواني الناس ، وقاتلتموني ونصرني الناس .. »

ثم قال : « هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي
حقاً ، فقال المسلمون : يا رسول الله ١١ أننادي قوماً قد جيفوا ؟

فقال — ﷺ — : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم
لا يستطيعون أن يحيجوني » .

ثم إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمر بما في العسكر مما جمع الناس
لجمع ، فاختلف فيه المسلمون ، فقال من جمعه : هو لنا ، وقال الذين كانوا
يقاثلون العدو .. : والله لولا نحن ما أصبتموه ..

ثم بعث رسول الله — ﷺ — عبد الله بن رواحة وزيه بن حارثة
ليدشرا أهل المدينة بنصر الله لهم على المشركين .

ثم فرق للرسول — ﷺ — الأسرى من المشركين بين أصحابه
وقال لهم :

« استوصوا بالأسارى خيراً » .

قال ابن إسحاق : وكان أول من قدم مكة بهصاب قريش الحبشيمان بن عبد الله
الخراعي فقالوا له : ما وراءك ؟ فقال : قتل عتبة ، وشيبة ، وأبو الحكم بن
هشام ، وأمية بن خلف .. فلما جعل يعدد أشراف قريش الذين قتلوا ،
قال صفوان بن أمية وهو قاعد في الحجر : والله إن يعقل هذا فاسألوه هي ١١
فقالوا له : ما فعل صفوان بن أمية ؟ فقال : ما هو ذاك جالساً في الحجر ،
وقد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلوا ..

ولما قدم أبو سفيان بن الحارث قال له أبو لؤي : هلم إلى ، فمذك لعمري
الحجر ١١ لجلس إليه والناس قيام عليه فقال له أبو لؤي : يا بن أحمى أحمى
كيف كان أمر الناس ؟

فقال أبو صفيان: والله ما هو إلا أن لقينا للقوم فمحنناهم أكتافنا فعودونا
كيف شاءوا ، ويأمرونا كيف شاؤا . . .

أما بعد : فهذا الملخص لغزوة بدر سقناه قبل البدء في التفسير التحليل لسورة
الأنفال ، وقصدنا من ذكر هذا الملخص لهذه الغزوة الخامسة : أن ننسجم الجوه
الذي نزلت فيه السورة - كما سبق أن أشرنا - وأن نستعين به على فهم الآيات
فهما واضحا مستقيرا . . .

لأن سورة الأنفال هي سورة بدر كما سماها ابن عباس - رضي الله عنه -
وفي ختام هذا التعريف بسورة الأنفال ، نسأل الله - تعالى - أن يوفقنا لتفسير
آياتها تفسيراً واضحاً مقبولاً ، بمبدأ عن الانحراف . محرراً من لغو القول
هو باطله . . .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين

المؤلف

د . محمد سيد طنطاوى

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَأَطِيعُوا أَمْرَ رَسُولِهِ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾
إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ
عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ
يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ
حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

لعل من الخير قبل أن نتكلم في تفسير هذه الآيات الكريمة أن نذكر بعض الروايات
التي وردت في سبب نزولها ، فإن معرفة سبب النزول يعين على الفهم السليم -
قال الإمام ابن كثير - ما ملخصه - روى الإمام أحمد عن عبادة بن
الصامت قال : خرجنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فشهدت
معهم بدرًا فالتقى الفاس ، فهزم الله - تعالى - العدو ، فانطلقت طائفة في آثارهم
يهزمون ويقتلون . وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه . وأحدثت
طائفة برسول الله - صلى الله عليه وسلم - لكي لا يصيب العدو منه غرة . حتى
إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم : نحن
حويناها وجمعناها ، فليس لأحد فيها نصيب . وقال الذين خرجوا في طلب
العدو : لستم بأحق بها منا ، نحن نقيضها عنها العدو وهزمناهم . وقال للذين
أحدثوا برسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لستم بأحق بها منا . نحن أحدثنا
برسول الله - صلى الله عليه وسلم - مخافة أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به -
فخولت : ويسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول . . . ففهمنا
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين المسلمين .

وروى أبو داود والنسائي وابن جرير وابن مردويه - واللفظ له - عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا : ففسارح فذلك شبان القوم ، وبقي الشيوخ تحت الرايات ، فلما كانت المغامم وجاءوا يطلبون الذي جعل لهم . فقال الشيوخ لا تستأثروا علينا ، يا كذا ردوا لكم ، لو انكشفتم لثبتم علينا . فتنازعوا ، فأزل الله - تعالى - : يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ... وقال الثوري ، عن الكلبي ، عن أبي صالح عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : من قتل قتيلًا فله كذا وكذا ، ومن أتي بأسير فله كذا وكذا ، فجاء أبو اليسر بأسيرين ، فقال : يا رسول الله صلى الله عليك - أمت وعدتنا فقام سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله ، إنك لو أعطيت هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء ، وإنه لم يمنعنا من هذا زهادة في الأجر ولا جبن عن العدو ، وإنما هذا المقام بحفاظة عليك مخافة أن يأتوك من وراءك . فتشاجروا ، ونزل القرآن : يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ، وقال الإمام أحمد . حدثنا محمد بن سلمة . عن ابن إسحاق ، عن عبد الرحمن بن سليمان بن موهب . عن مكحول عن أبي أمامة قال : سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال : فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في الفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فزعه الله من أيدينا وجعله إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ففقهه بين المسلمين عن بواء - أي : على السواء (١) - . هذه بعض الروايات التي وردت في سبب نزول هذه الآيات ، ومنها يتبين لنا أن نزاعاً حدث بين بعض الصحابة الذين اشتركوا في غزوة بدر ، حول الغنائم التي ظفروا بها من هذه الغزوة ، فأزل الله - تعالى - هذه الآيات لبيان حكمه فيها .

والضمير في قوله يسألونك ، يعود إلى بعض الصحابة الذين اشتركوا في غزوة بدر ، وصح عو الضمير إليهم مع أنهم لم يسبق لهم ذكر ، لأن السورة

نزالت في هذه الغزوة ، ولأن هؤلاء الذين اشتركوا فيها هم الذين يهتم حكمها ، ويعينهم العلم بكيفية قسمتها .

قال الإمام الرازي - مالم يخصصه - : فإن قيل من هم الذين سألوا ؟ فالجواب : لأن قوله « يسألونك عن الأنفال » إخبار عن من يسبق ذكرهم ، وحين ذلك همها ، لأنه في حالة النزول كان السائل عن هذا السؤال معلوماً معيناً فانصرف اللفظ إليهم ، ولا شك أنهم كانوا أقواماً لهم تعلق بالفتنات والأنفال ، وهم أقوام من الصحابة اشتركوا في غزوة بدر (١) .

والأنفال جمع نفل - بفتح النون والفاء ، كسبب وأسباب - وهو في أصل اللغة من النفل - بفتح فسكون - أي : الزيادة ، ولذا قيل للتطوع نافلة ، لأنه زيادة عن الأصل وهو الفرض وقيل لولد الولد نافلة ، لأنه زيادة على الولد . قال - تعالى - : « وهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة » (٢) .

قال الألوسي : ثم صار النفل حقيقة في العطية ، لأنها لكونها تبرعاً غير لازم كأن زيادة ، ويسمى به الغنيمة أيضاً وما يشترطه الإمام الغازي زيادة على سهمه لرأى يراه سواء أكان لشخص معين أو لغير معين ، وجعلوا من ذلك ما يريد الإمام من صدره ، أثر محمود في الحرب كبير ازو حسن إقدام ، وغيرهما . وإطلاقة على الغنيمة ، باعتبار أنها زيادة على ما شرع الجهاد له وهو إعلاء كلمة الله ، أو باعتبار أنها زيادة خسر الله بها هذه الأمة ، أو باعتبار أنها منحة من الله - تعالى - من غير وجوب .

ثم قال : ومن الناس من فرق بين الغنيمة والنفل بالعموم والخصوص . فقيل : الغنيمة ما حصل مستغنياً سواء أكان بتعب أو بغير تعب ، قبل الظفر أو بعده ، والنفل ما كان قبلاً الظفر أو ما كان بغير قتل وهو النفي .

والمراد بالأنفال هنا الفتنات كما روى عن ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد ، وطائفة من الصحابة وغيرهم (٣) .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١٥ ص ١١٣ ، طبعة عبد الرحمن محمد

(٢) سورة الأنبياء الآية ٧٢ .

١٣٥٧ هـ ١٩٣٨ م .

(٣) تفسير الألوسي بتصرف وتلخيص ج ٩ ص ١٦ طبعة منير الدمشقي

هذا ، وجمهور العلماء على أن المقصود من سؤال بعض الصحابة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الأنفال - أى الغنائم - إنما هو حكمها وعن المستحق لها ، فيكون المعنى .

يسألك بعض أصحابك يا محمد عن غنائم بدر كيف تقسم ؟ ومن المستحق لها ؟ قل لهم : الأنفال لله يحكم فيها بحكمه - سبحانه - ولرسوله - صلى الله عليه وسلم - فهو الذى يقدمها على حسب حكم الله وأمره فيها . وفى هذا الإجابة على سؤالهم تربية حكيمة لهم - وهم فى أول لقاء لهم مع أعدائهم حتى يجهدوا جهادهم من أجل إعلاء كلمة الله . أما الغنائم والأسلاب وأعراض الدنيا التى تأتيتهم من وراء جهادهم فملئهم بالإيجلوعا غلبتهم السامية من جهادهم ، وأن يفوضوا الأمر فيها لله ورسوله عن إذعان وتسلم . وبعض العلماء يرى أن السؤال للاستعطاء ، وأن المراد بالأنفال ما شرط للغازى زيادة على سهمه ، وأن حرف ، عن ، زائد ، أو هو بمعنى من ، فيكون المعنى : يسألك بعض أصحابك يا محمد إعطاءهم الأنفال التى وعدتهم بها زيادة على سهامهم فيها . قل لهم : الأنفال لله ولرسول .

والذى نراه أن الرأى الأول أرجح وذلك لأمور منها :

١ - بعض الروايات التى وردت فى أسباب نزول هذه الآية تؤيد تأييداً صريحاً ، ومن ذلك ما سبق أن ذكرناه من حادثة بن الصامت أنه قال : « فينا معشر أصحاب بدر نزلت ، حين اختلفنا فى النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزله الله من أيدينا . فجعله إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - فقسمه بين المسلمين عن بواه » .

٢ - ولأن غزوة بدر كانت أول غزوة لها شأنها وأثرها بين المسلمين والكافرين ، وكانت غنائمها الضخمة التى ظفر بها المؤمنون من المشركين ، حافزاً لسؤال بعض المؤمنين رسولهم - صلى الله عليه وسلم - عن حكمها وعن المستحق لها .

٣ - ولأن الجواب عن السؤال بقوله - تعالى - : « قل الأنفال لله والرسول » .

يؤيد أن السؤال إنما هو عن حكم الأنفال وعن مصرفها ، إذ أن هذا الجواب يفيد أن اختصاص أمرها وحكمها مرجعه إلى الله ورسوله دون تدخل أحد سواهما .

ولو كان السؤال للاستعطاء لما كان هذا جواباً له ، فإن اختصاص حكم ما شرط لهم بالله والرسول لا يقتضي إعطاءه إياهم بل يحققه ، لأنهم إنما يسألونه بموجب شرطه لهم الصادر عنه بإذن الله - تعالى - لا بحكم سبق أيديهم إليه أو نحو ذلك مما يخجل بالاختصاص المذكور ، (١) .

٤ - ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك : فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ... الخ ، يؤيد أن السؤال عن حكم الأنفال ومصرفها بعد أن تنازعوا في شأنها ، فهو - سبحانه - ينهاهم عن هذا التنازع ، ويأمرهم بأن يصونوا أنفسهم عن كل ما يغضب الله ... ولو كان السؤال للاستعطاء - بناء على ما شرطه الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - لبعضهم زيادة على سهمهم - لما كان هناك محذور يحجب اتفاقه ، لأنهم لم يطلبوا من الرسول إلا ما وعدهم به وهذا لا محذور فيه .

٥ - ولأن الآية الكريمة عنطوقها الواضح ويتركيبها البليغ ، وتوجيهها السامى ، تفيد أن السؤال إنما هو عن حكم الأنفال وعن المستحق لها . أما القول بأن السؤال سؤال استعطاء - وأن من زائدة أو بمعنى من فهو مكلف لا ضرورة إليه .

والمعنى الواضح الجلى للآية الكريمة - كما سبق أن بينا - : يالك بعض أصحابك يا محمد عن غنائم بدر كيف تقسم ، ومن المستحق لها ؟ قل لهم : الأنفال لله يحكم فيها بحكمه ، ورسوله يقسمها بحسب حكم الله فيها ، فهو - سبحانه - المعلم بمصالح عباده ، الحكيم في جميع أقواله وأفعاله .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : ما وجه الجمع بين ذكر الله والرسول في قوله : قل الأنفال لله والرسول ؟

قلت : معناه أن حكمها مختص بالله ورسوله ، يأمر الله بقسمتها على حاققتضيه حكمته ، ويمثل الرسول أمر الله فيها ، وليس الأمر في قسمتها مفروضاً إلى رأى أحد ، والمراد : أن الذى اقتضته حكمة الله وأمر به رسوله أن يوامى المقابلة المشروط لهم التسهيل للشيوخ الذين كانوا عند الرايات ، خيفة سهرهم على السوية ولا يستأثروا بما شرط لهم ، فإنهم إن فعلوا لم يؤمن أن يقدح ذلك فيها بين المسلمين من التحاب والنصاف . . . (١) .

وقوله : « فاقفوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين » ، حض لهم على تقوى الله وامتثال أمره ، وإصلاح ذات بينهم ، وتحذير لهم من الوقوع فى المعاصى والنزاع والخلاف .

وكلمة « ذات » بمعنى حقيقة الشئ ونفسه ، ولا تستعمل إلا مضافة إلى الظاهر ، كذات الصدور ، وذات الشوكة .

وكلمة « بينكم » من البين ، وهو مصدر بأن يبين بيناً بمعنى بعد ، ويطلق على الاتصال والفراق ، أى : على الضدين ، ومنه قول الشاعر :

فواة لولا البين لم يكن الهوى ولولا للهوى ما حس للبين آلف

والمراد به فى الآية الاتصال .

أى : فاقفوا الله - أيها المؤمنون - ، وأصلحوا نفس ما بينكم وهى الحال والصفة التى بينكم والتى تربط بعضهم ببعض وهى رابطة الإسلام . وإصلاحها يكون بما يقتضيه كمال الإيمان من المارادة والمصافاة ، وترك الاختلاف والتنازع ، والتسك بفضيلة الأيثار .

وكلمة « ذات » على هذا المعنى مفعول به .

ومنهم من يرى أن كلمة « ذات » بمعنى صاحبة ، وأما صفة لمفعول محذوف ، فيكون المعنى : فاقفوا الله وأصلحوا أحوالاً ذات بينكم .

والى هذا المعنى أشار صاحب للكشاف بقوله : « فإن قلت : ما حقيقة قوله : « ذات بينكم » .

قلت: أحوال بينكم ، يعنى ما بينكم من الأحوال ، حتى تكون أحوال ألفة ومودة واتفاق . كقوله : بذلت للصدور ، وهى مضمراتها .

ولما كانت أحوال ملازمة للبين قبل لها : ذلت البين ، كقولهم : أسقنى .
 هذا إمامك ، يريدون ما فى الإناء من الشراب . . . (١) .

وقوله : وأطيعوا الله ورسوله ، معطوف على ما قبله ، وهو قوله :
 فأتقوا الله .

أى : فأتقوا الله — أيها المؤمنون — فى كل أفعالكم وأفعالكم ، وأصلحوا ما بينكم من الأحوال حتى تكون أحوال ألفة ومحبة ومودة ، وأطيعوا الله ورسوله فى حكمه للذى قضاء فى الإنفال وفى غيرها ، من كل أمر ونهى ، وقضاء وحكم . . .

وقد كرر - سبحانه - الاسم الجليل فى هذه الآية ثلاث مرات ، أغرية المهابة فى القلوب ، وتعليل الحكم حتى يقبله النفوس بإذعان وتسليم .
 وذكر - سبحانه - رسوله إمامه مرتين فى هذه الآية ، لتعظيم شأنه ، وإظهار شرفه ، والإيدان بأن طاعته — ﷺ — طاعة لله — تعالى — ، ومخالفته مخالفة لأمر الله — تعالى — . قال - سبحانه - : ومن يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً (٢) .

ووسط - سبحانه - الأمر بإصلاح ذات البين بين الأمر بالتقوى والأمر بالطاعة ، لإظهار كمال العناية بالإصلاح ، وليندرج الأمر به بعينه تحت الأمر بالطاعة .

وقوله : « إن كنتم مؤمنين » ، متعلق بالأوامر الثلاثة السابقة ، وهى :
 « اتقوا الله » ، « وأطيعوا الله ورسوله » ، « واتقوا الله » .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٩٥

(٢) سورة النساء . الآية ٨٠

وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله . أى : أقم كنتم مؤمنين بإيمانكم
حقاً فامثلوا هذه الأوامر الثلاثة السابقة .

قال الألوسى : قوله « إن كنتم مؤمنين » جوابه محذوف ثقة بدلالة
المذكور عليه ، أو هو الجواب على الخلاف المشهور . وأياً ما كان فالمراد
بيان ترتب ما ذكر عليه لا التمهيك في إيمانهم ، وهو يكفى في التعليق بالشرط .
والمراد بالإيمان : التصديق . ولا خفاء في اقتضائه ما ذكر . على معنى
أنه من شأنه ذلك لا أنه لازم له حقيقة .

وقد يراد بالإيمان الإيمان الكامل والأعمال شرط فيه أو شرط . فالمعنى :
إن كنتم كاملين الإيمان ، فإن كمال الإيمان يدور على تلك الخصال الثلاثة :
الافتقار ، والإصلاح وإطاعة الله — تعالى — .

ويؤيد إرادة الكمال قوله — سبحانه — بعد ذلك « إنما المؤمنون ... »
إذا المراد به قطعاً الكاملون في الإيمان وإلا لم يصح المحصر ... (١)

وعلى أية حال في هذا التذييل تنشيط للمخاطبين ، وحث لهم على الامتثال
والطاعة ، ودعوة لهم إلى أن يكون إيمانهم إيماناً حقيقياً راسخاً ، متفهماً كل
ما جاء به رسولهم — ﷺ — من هدايات وإرشادات ، ومتسامياً
عن كل ما يخلش صفاء ونقاء من معصية ومهوات . .

ثم وصف - سبحانه - المؤمنين الصادقين بخص صفات ، وبشرم بأعلى
الدرجات . فقال في بيان صفتهم الأولى : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر
الله وجلت قلوبهم . . . فأنجلة للكرامة مستأنفة وهي مسوقة لبيان أحوال
المؤمنين الذين هم أهل لرضا الله وحسن ثوابه ، حتى ينأى بهم غيرهم .
وقوله « وجلت » من الوجل وهو استشعار الخوف . يقال : وجل
يوجل وجلا فهر وجل ، إذا خاف وفرع .

والمراد بذلك الله : ذكر صفاته الجليلة ، وقدرته التافهه ، ورحمته الواسعة ،
وعقابه الشديد ، وعلمه المحيط بكل شيء ، وما يستتبع ذلك من حساب وثواب
وعقاب والمعنى : إنما المؤمنون الصادقون الذين إذا ذكر اسم الله وذكر
صفاته أماءهم ، خافت قلوبهم وفزعته استعظاماً للجلالة ، وتنبهاً من سلطانه ،
وحذراً من عقابه . ورغبة في ثوابه . وذلك اقوة لإيمانهم ، وصفاء نفوسهم ،
وشدة مراقبتهم لله - عز وجل - ، ووقوفهم عند أمره ونهيه . .

وقد جاء التعبير عن صفاتهم بصيغة من صيغ الفصحى (إنما ، والاشعار
بأن من هذه صفاتهم هم المؤمنون الصادقون في إيمانهم وإخلاصهم ، أما غيرهم
من لم تتوفر فيه هذه الصفات ، فأمره غير أمرهم ، وجزاؤه غير جزائهم .
قال الفخر الرازى : فإن قيل : إنه - تعالى - قال همنا : « وجعل قلوبهم »
وقال في آية أخرى : الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذلك الله (١) . . .
فكيف الجمع بينهما ؟

قلنا : الاطمئنان : إنما يكون عن تلج اليقين ، وشرح الصدر بمعرفة
التوحيد ، والوجل : إنما يكون من خوف العقوبة ولا مناقاة بين هاتين
الحالتين . بل نقول : هذان الوصفان اجتماعاً في آية واحدة وهي قوله
- تعالى - : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشع منه جلود
الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله (٢) . . . »
والمعنى تقشع الجلود من خوف عذاب الله . ثم تلين جلودهم وقلوبهم
عند رجاء ثواب الله ، (٣) .

والصفة الثانية من صفات هؤلاء المؤمنين الصادقين عبر عنها - سبحانه -
بقوله : وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً .

(١) سورة الرعد . الآية ٢٨ (٢) سورة الزمر . الآية ٣٢

(٣) تفسير الفخر الرازى ١٥٧ ص ١١٨

أى أن من صفات هؤلاء المؤمنين أنهم إذا قرئت عليهم آيات الله أى : حججه وهى القرآن ، زادتهم إيماناً ، أى : زادتهم تلاوتها قوة فى التصديق ، وشدة فى الإذعان ، ورسوخاً فى اليقين ، ونشاطاً فى الأعمال الصالحة ، وسعة فى العلم والمعرفة .

وجاء التعبير بصيغة الفعل المبني للمفعول فى قوله ، ذكر الله ، وه تليت عليهم آياته ، ، للإيدان بأن هؤلاء المؤمنين الصادقين إذا كانوا إضافون عندما يسمعون من غيرهم آيات الله . . فإنهم يكتونون أشد خوفاً وفرحاً عند ذكرهم لله وعند تلاوتهم لآياته بالسنة وقلوبهم .

فالقصود من هذه الصيغة مدحهم ، والثناء عليهم ، وبيان الأمر الطيب الذى يترتب على ذكر الله وعلى تلاوة آياته .

والصفة الثالثة من صفاتهم قوله - تعالى - : وعلى ربهم يتوكلون .

أى : أن من صفات هؤلاء المؤمنين أيضاً - أنهم يعتمدون على ربهم الذى خلقهم بقدرته ، ورباهم بنعمته ، فيفوضون أمورهم كلها إليه وحده - سبحانه - لا إلى أحد سواه ، كما يدل عليه تقديم المتعلق على عامله .

ورحم الله الإمام ابن كثير فقد قال عند تفسيره لهذه الجملة : أى : أنهم لا يرجون سواه ، ولا يقصدون إلا إياه ، ولا يلوذون إلا بجنابه ، ولا يطلبون الموائج إلا منه ، ولا يرغبون إلا إليه ، ويعطون أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه المنتصرف فى الملك لا شريك له ، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب . ولهذا قال سعيد بن جبير .

• التوكل على الله جماع الإيمان ، (١)

ومن الواضح عند ذوى العقول السليمة أن التوكل على الله لا يناق الأخذ
بالأسباب التي شرعها - سبحانه - بل إن الأخذ بالأسباب التي شرعها الله
وأمر بها بلوغ الغايات ، لدليل على قوة الإيمان ، وعلى حسن طاعته -
سبحانه - فيما شرعه وفيما أمر به .

وليس من الإيمان ولا من العقل ولا من التوكل على الله أن ينتظر الإنسان
ثمراً بدون غرس ، أو شبعاً بدون أكل ، أو نجاحاً بدون جهد ، أو ثواباً
بدون عمل صالح . .

إنما المؤمن العاقل المتوكل على الله ، هو الذي يباشر الأسباب التي
شرعها الله بلوغ الأهداف مباشرة سليمة . . ثم بعد ذلك يترك النتائج له
- سبحانه - يسرها كيف يشاء ، وحسبما يريد . . .

أما العنفتان الرابعة والخامسة من صفات هؤلاء المؤمنين فهما قوله - تعالى -
« الذين يقيمون الصلاة و مما رزقناهم ينفقون » .

والمراد بإقامة الصلاة : أدائها في أوقاتها مستوفية لأركانها وشروطها
وآدابها وخشوعها - من أقام الشيء إقامة إذا قومه وأزال عوجه لأن الشأن
في صلاة المؤمنين أن تكون : [حساساً حمية] بالوقوف بين يدي الله ،
واقطعاً تماماً لما جأته ، وتمثلاً لجلاله وكبريائه ، واستغناء كاملاً
في دعائه .

والمراد بقوله : « ينفقون » يخرجون ويبدلون ، من الانفاق وهو
إخراج المال وبذله وحرقه - يقال : نفق - كفرح وانصر - بمعنى : ففد
وفنى أو قل . وأنفق ماله : أى : أنفده ، والهمزة للتعدي . وأصل المادة
يدل على الخروج والذهاب .

والجمل للكرامة في محل رفع صفة للموصول في الآية السابقة أو بدله
منه أو بيان له .

والمعنى ، أن من صفات هؤلاء المؤمنين أنهم يؤدون الصلاة في مواقيتها مستوفية لأركانها وشروطها وصفاتها وآدابها ، وخصوصاً . . وأنهم يفلحون أموالهم الفقراء والمحتاجين بسماحة نفس ، وسخاء يد ، استجابة لتعاليم دينهم .
فأنت ترى أنه - سبحانه - قد وصف هؤلاء المؤمنين بخمس صفات :
الأولى والثانية والثالثة منها ترجع إلى العبادات القلبية التي تدل على شدة خضوعهم من ربهم ، وقوة تأثرهم بآيات خالقهم ، واعتمادهم عليه - سبحانه - وحده لا على أحد سواه .

والصفة الرابعة ترجع إلى العبادات البدنية ، وهى إقامة الصلاة بإخلاص وخشوع .

أما الصفة الخامسة فترجع إلى العبادات المالية ، وهى إنفاق المال في سبيل الله ولاشك أن هذه الصفات متى تمتكنت فى النفس ، كان صاحبها أهلاً لمحبة الله ، ورضوانه ، ولذا مدح - سبحانه - أصحاب هذه الصفات ، وبين ما أهده لهم من ثواب جليل فقال : « أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » .

أى : أولئك المنتصفون بتلك الصفات الكريمة هم المؤمنون إيماناً حقاً .
« لهم درجات ، عالية ، ومكانة سامية » عند ربهم ، ولهم مغفرة شاملة لما فرط منهم من ذنوب ، ولهم « رزق كريم » فى الجنة ، يجعلهم يحيون فيها حياة طيبة « لا لغو فيها ولا تأليم » .
وقوله « حقاً » منصوب على أنه صفة لمصدر محذوف ، أى : أولئك هم المؤمنون إيماناً حقاً .

والقارئون فى قوله « درجات » ، لتعظيم والتهويل - أى : لهم درجات رفيعة ، ومنازل عظيمة ، وفى وصف هذه الدرجات بأنها « عند ربهم » مزيد التعريف لهم ، وإعلاف بهم ، وإيدان بأن ما وعدهم به ميقن الوقوع ، لأنه وعد من كريم لا يخلف وعده - سبحانه - .

وفي وصف الرزق الذي أهداه لهم بالكرم ، زيادة في إدخال السرور على قلوبهم ؛ لأن لفظ الكريم يصف به العرب كل شيء حسن في بابه ، بحيث يكون لا قبح ولا شكوى معه .

وبذلك نرى أن أصحاب تلك الصفات الحميدة قد مدحهم الله - تعالى - مدحاً عظيماً ، وكافأهم على إيمانهم الحق بالدرجات العالية ، والمغفرة الشاملة ، والرزق الكريم : وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . هذا ، وقد استنبط العلماء من تلك الآيات جملة من الأحكام والآداب منها :

١ - حرص الصحابة على سؤال النبي - صلى الله عليه وسلم - عما يهمهم من أمر دينهم ودنياهم .

فإن قيل : كيف تأتي الصحابة الذين شهدوا بدرأ - وهم من هم في حفتهم وزهدهم - أن يختلفوا في شأن الغنائم .

فالجواب ، أن بعض الصحابة المكثرين في هذه الغزوة هم الذين حدث بينهم الخلاف في شأنها ؛ لأنهم لم يكن لهم عهد سابق بكيفية تقسيمها . أما أكثر الصحابة فإنهم لم يلتفتوا إلى هذه الغنائم ، بل تركوا أمرها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - يعضها كيف يشاء .

وأيضاً فإن هؤلاء الذين حدث بينهم الخلاف في شأن الغنائم ، كان من الدوافع التي دفعتهم إلى هذا الخلاف ، ما فهموه من أن حيازة الغنائم تدل على حسن البلاء ، وشدة القتال في سبيل الله ، فكان كل واحد منهم يحرص على أن يظهر بهذا المظهر المشرف وهم في أول لقاء لهم مع أعدائهم .

وعند ما تجاوز هذا الحرص حده ، بأن غلب على ما يجب أن يسود بينهم من سماحة وصفاء . . . نزل القرآن ليربيهم بتربيته الحكيمة ، وليؤديهم بأدبه السامي ، وليخبرهم بحكم الله في شأن هذه الأنفال . . . وبعد أن عرفوا حكم الله في شأنها ، قابلوه بالرضا والإذعان والتسليم .

٢ - أن القرآن في ترتيبه للمراعاة ، لا يلتزم سردها على حسب زمنه وقرها ، وإنما يرتبها بأسلوبه الخاص للبعد يراد في معنى حال المخاطب . فلقد افتتحت السورة التي معنا بالحديث عن الغنائم التي غنمها المسلمون في بدر - مع أن ذلك كان بعد انتهاء الغزوة - ليشرح المخاطبين من أول الأمر أن النصر في هذه الغزوة كان للمسلمين ، وأن الإسلام قد صرع الكفر منذ أول معركة نازله فيها .

وهذا اللون من الافتتاح هو ما يدبر عنه البلغاء ببراعة الاستهلال . ولقد أفاض بعض العلماء في شرح هذا المعنى فقال ما ملخصه .

وقد بدأت السورة بموضوع الأنفال واختلافهم في قسمتها وسؤالهم عنها ، فسألت في ذلك أربع آيات . من : « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله . . إلى قوله . . ووزق كريم . . »

وقد عالجت هذه الآيات نفوس المؤمنين ، وعملت على تطهيرها من الاختلاف الذي ينشأ عن حب المال والتطلع إلى المادة ، ولاريب أن حب المال والتطلع إلى المادة من أكبر أسباب الفشل .

ولاهمية هذا الموضوع في حياة المؤمنين بدأت به السورة ، وإن كان اختلافهم في قسمة الأنفال متأخراً في الوجود عن اختلافهم في الخروج إلى بدر ، وقاتل الأعداء .

وقد عرفنا من ستة القرآن في ذكر القصص والوقائع أنه لا يحرص لها مرتبة حسب وقوعها ، وذلك لأنه لا يذكرها على أنها تاريخيين لها الوقف والمكان ، وإنما يذكرها لما فيها من العبر والمواعظ ، ولما تتعلق به الأحكام والحكم .

وقد بدأت السورة بالحديث عن الأنفال للمسارعة من أول الأمر بنتائج النصر الذي كوله الله للمؤمنين .

وليس من تربية النفوس أن تبدأ الكلام معها بما يدل على الاضطراب

فخرج ولتردد أمام وسائل العزة والشرف ، متى وجد لهم بجانب هذا التردد ما يدل على مواقف الشرف والكرامة . . .

ولا كذلك يكون الأمر إذا بدت ببيان تناقضهم في الخروج إلى الغزوة وانظر كيف يكون وقع المطلع إذا جاء على هذا الوجه ، كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لسكر هون ... الخ . . .

لأريب أنه مطلع شديد الوقع على النفوس ، يصور علاقته المؤلمة بغيرهم في صورة يأبأها لإيمانهم به وامتناعهم لأمره . يصورهم في شقاوة واختلاف مع قائدهم ورسولهم ويصورهم في ثوب الكراهة الشديد لعالي الأمور وهو الحياة :

لهذا كله جاء الأسلوب في سرد الوقائع غير مكثرة بمخالفة ترتيبها في الوجود الخارجي ، (١) .

٣ - استدلل جمهور العلماء بقوله - تعالى - ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ، على أن الإيمان يزيد وينقص . . .
ومن المفسرين الذين بسطوا القول في هذه المسألة الإمام الألوسي ، فقد قال ما ملخصه :

قوله - تعالى - ، وإذا تليت عليهم آياته ، أي : القرآن ، زادتهم إيماناً أي : تصديقاً كما هو المتبادر ، فإن تظاهر الأدلة وتعاقد الحجج بما لأريب في كونه موجبا لذلك .

وهذا أحد أدلة من ذهب إلى أن الإيمان يقبل الزيادة والنقص ، وهو مذهب الجهم النخعي من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين ، وبه أقول لأكره .
لظواهر الدالة على ذلك من الكتاب والسنة من غير معارض لها عقلاً .

بل قد احتج عليه بعضهم بالمقل - أيضاً - وذلك أنه لو لم تتفاوت حقيقتا (١) تفسير القرآن الكريم ص ٤٤٤ لفضيلة الأستاذ الفخيم محمود دشتلوت رحمه الله . . .

الإيمان لكان إيمان آحاد الأمة بل المهمكين في الفسق والمغاصى ، معاويا
الإيمان الأنبياء والملائكة ، واللازم باطل فكذا الملزوم .

وقال النووي : إن كل أحد يعلم أن ما في قلبه يتفاضل حتى يكون في
بعض الأحيان أعظم بقلوبنا وإخلاصا منه في بعضها ، فكذا التصديق والمعرفة
يتفاضلان بحسب ظهور البراهين وكثرتها .

وذهب الإمام أبو حنيفة وكثير من المتكلمين إلى أن الإيمان لا يزيد
ولا ينقص . واختاره إمام الحرمين ، محتجين بأنه اسم للتصديق البالغ حد
الجزم والإذعان ، وذلك لا يتصور فيه زيادة ولا نقصان . فالمصدق إذا أتى
بالباطل أو ارتكب المغاصى فتصديقه بحاله لم يتغير أصلا ، وإنما يتفاوت
إذا كان اسما للطاعات المتفاوتة قوة وكثرة .

وذهب جماعة منهم الإمام الرازى إلى أن الخلاف في زيادة الإيمان
ونقصانه وعدمهما لفظى ، وهو فرع تفسير الإيمان ، فمن فسره بالتصديق قال :
إنه لا يزيد ولا ينقص ، ومن فسره بالأعمال مع التصديق قال : إنه يزيد وينقص ،
وهل هذا قول البخارى ، لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأصهار ،
فما رأيت أحدا منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص ، وهو
المعنى بما روى عن ابن عمر أنه قال . قلنا يا رسول الله إن الإيمان يزيد
وينقص ، قال . نعم ، يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة ، وينقص حتى
يدخل صاحبه النار ، (٢) .

ويبدو لنا أن رأى جمهور العلماء في هذه المسألة ، أولى بالقبول ؛ لأنه من
الواضح أن إيمان الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - أرسخ وأقوى من إيمان
آحاد الناس ، ولأنه كلما تكاثرت الأدلة كان الإيمان أشد رسوخا في النفس
واعين أرى في القلب ، فلا تزلزله المشبهات ولا تزوعه العوارض والفتن .

(١) تفسير القرآن الكريم ج ٤٤ هـ فضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت

- رحمه الله -

(٢) تفسير الألومى ج ٩ ص ١٦٥

ومن أوضح الأدلة على أن الإيمان يقوى بقوة البرهان إلى درجة الإطمئنان ،
 حاحكاه الله - تعالى - عن إبراهيم في قوله : « وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف
 تبحي الموتى » قال أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ، وإن كنت ليطمنن قلبى (١) . .
 فهذه الآية تدل دلالة واضحة على أن مقام الطمأنينة في الإيمان ، يريد على
 حادونه من الإيمان المطلق قوة وكمالاً ، فإنه إبراهيم - عليه وسلام - لاشك أنه
 كان مؤمناً عندما سأل ربه هذا السؤال ، وإنما سأل ذلك لينتقل من مرتبة
 علم اليقين إلى مرتبة أعلى : وهى مرتبة عين اليقين . . .

هذا ، وشبه هذه الآية في الدلالة على قبول الإيمان للزيادة والنقصان
 قوله - تعالى - : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم
 فزادهم إيماناً . . . » (٢)

وقوله - تعالى - : « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا
 إيماناً مع إيمانهم . . . » (٣)

وقوله - تعالى - : « وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أبكم زادته
 هذه إيماناً ؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون . وأما الذين فى
 قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وما توأموهم كافرون . » (٤)

وقوله - تعالى - : « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله
 ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً » (٥)
 إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى وردت فى هذا المعنى :

٤ - فى هذه الآيات الكريمة تربية ربانية للمؤمنين ، وتوجيه لهم إلى
 ما يسعدهم ، وإرشاد لهم إلى أن المؤمن الصادق فى إيمانه ، هو الذى يجمع بين
 سلامة العقيدة ، وسلامة الخلق ، وصلاح العمل ، وأن المؤمن متى جمع بين
 هذه الصفات ارتفع إلى أعلا الدرجات ، وأحسن هلاوة الإيمان فى قلبه . . .

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٠ (٢) سورة آل عمران الآية ١٢٣

(٣) سورة الفتح ، الآية ٤ (٤) سورة التوبة : الآيات ١٢٤ ، ١٢٥

(٥) سورة الأحزاب : الآية ٢٢

روى الحافظ الطبراني عن الحارث بن مالك الأنصاري أنه مر برسول الله ﷺ - فقال له : كيف أصبحت يا حارث ، ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقاً . فقال له الرسول - صلى الله عليه وسلم - : انظر ما تقول فإن لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ، ؟ فقال الحارث : عرفت نفسي من الدنيا فاهتديت ليلي ، وأظلمات نهارى وكأني أنظر إلى عرش ربي بارداً . وكأني أنظر إلى أهل الجنة يداورون فيها . وكأني أنظر إلى أهل النار يتهاغرون فيها . فقال - ﷺ - : يا حارث عرفت فأدوم ، ثلاثاً (١)

ثم أخذت السورة - بعد هذا الافتتاح المشتمل على أروع استهلال وأبلغه وأحكمه . . . في الحديث عن الغزوة التي كان من ثمارها تلك الأتقال ، فاستمرضت بحمل أحداثها ، وصورت نفوس فريق من المؤمنين الذين اشتروا فيها أكل نصير ، استمع معي - أخى القارىء - بتدبر وتعقل إلى قوله - تعالى - : كَمَا أَخْرَجَكَ

وَبِكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ
يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ
يَنْظُرُونَ ﴿١﴾ وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ
غَيْرَ ذَاتِ الشُّكُوكِ تَكُونُ لَكُمْ وَبُرِيدُ اللَّهِ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ
وَيَقْطَعَ دَائِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ
كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٣﴾

الكاف في قوله - تعالى - : كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ . . . بمعنى مثل ، أى : التشبيه ،
وهي خير لمبتدأ محذوف هو المذهب ، وما بعدها هو المشبه به ، ووجه التشبيه
مطلق الكرامة ، وما ترتب على ذلك من خير للمؤمنين .
(١) تفسير ابن كثير - ٢ ص ٢٨٦ طبعة عيسى الحلبي .

والمعنى : حال بعض أهل بدر في كراهتهم تقسيمك الغنائم بالسوية ،
حتل حال بعضهم في كراهة الخروج للقتال ، مع ما في هذه القسمة والقتال
من خير وبركة .

ونحن عندما نستعرض أحداث غزوة بدر ، نرى أنه قد حدث فيها أمر !
يدلان على عدم الرضا من فريق من الصحابة ، ثم أعقبهما الرضا والإذعان
والفلسيم لحكم الله ورسوله .

أما الأمر الأول فهو أن فريقاً من الصحابة — وأكثرهم من الشبان —
كانوا يرون أن قسمة الغنائم بالسوية فيها إجحاف بحقهم ، لأنهم هم الذين
قاموا بالنصيب الأوفر في القتال ، وأن غيرهم لم يكن له بلاؤهم — كما سبق أن
بيننا في أسباب نزول قوله — تعالى — « يسألونك عن الأنفال » الخ .

ولكن الرسول — ﷺ — قسم غنائم بدر بين الجميع بالسوية ، كما
أمره الله — تعالى — .

وكان هذا التقسيم خيراً للمؤمنين ، إذ أصلح الله بينهم ، وردم إلى
حالة الرضا والصفاء . . .

وأما الأمر الثاني : فهو أن جماعة منهم كرهوا قتال قريش بعد نجاة العير
التي خرجوا من أجل الحصول عليها . وسبب كراهيتهم لذلك أنهم خرجوا
بدون استعداد للقتال ، لأن حيث العدد ولا من حيث العدد . . .

ولكنهم استجابوا بعد قليل لما نصحهم به رسولهم — ﷺ — من
وتجوب قتال قريش . . .

وكان في هذه الاستجابة نصر الإسلام ، ودحر الطغيان .

قال ابن كثير : روى الحافظ بن مردويه — بسنده — عن أبي أيوب
الأنصاري قال : قال رسول الله — ﷺ — « ونحن بالمدينة : » إني أخبرت
عن هير أبي سفيان بأنها مقبلة ، فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير لعل الله أن
يغنمنا إياها ؟ فقلنا نعم ، ونخرج ونخرجنا : فلما صرنا يوماً أو يومين قال لنا

« ما زون في قتال القوم ؟ إنهم قد أخبروا بخروجكم ، فقلنا : مائلاً حلاقة بقتال العدو ولعننا ألدنا المير . ثم قال : « ما زون في قتال القوم ، ؟ فقال المقداد بن عمرو . إذن لا نقول لك يا رسول الله كما قال بنو إسرائيل لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون . . . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون . »

وفي رواية أن أبا بكر وعمر وسعد بن معاذ تكلموا بكلام سر له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (١) هذا ، وما قررناه قبل ذلك من أن الكاف في قوله - تعالى - « كما أخرجك ربك . . . » بمعنى مثل ، هو ما ترجحه من بين أقوال المفسرين التي أوصلها بعضهم إلى عشرين قولاً .

قال الجبل . قوله « كما أخرجك ربك . . . » فيه عشرون وجهاً ، أحدها : أن الكاف نعت لمصدر محذوف تقديره : الانفعال ثابتة لله ثبوتاً كما أخرجك ربك . أى : ثبوتاً بالحق كإخراجك من بيتك . يعنى أنه لا مزية في ذلك . الثاني : أن تقديره وأصلحوا ذات بينكم إصلاحاً كما أخرجك ، وقد التفت من خطاب الجماعة إلى خطاب الواحد .

الثالث : تقديره : وأطيعوا الله ورسوله طاعة ثابتة محقة كما أخرجك أى : كما أن إخراج الله إليك لا مزية فيه ولا شبهة . . الخ (٢) .

والحق أن معظم الوجوه النحوية التي ذكرها الجبل وغيره من المفسرين - كآي حية - إن والآلومى - أقول : إن معظم هذه الوجوه يبدو عليها التكلف ومجانبة الصواب .

ورحم الله صاحب الكشف فقد أعمل أكثر ما ذكره المفسرون فيه ذلك ، واكتفى بوجوهين فقال :

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٨٧ - بتصرف وتلخيص .

(٢) راجع حاشية الجبل على الجلالين ج ٢ ص ٢٢٦ . طبعة عيسى الحلبي .

قوله : « كما أخرجك ربك » . فيه وجهان أحدهما : أن يرتفع محل الكاف على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره : هذه الحال كحال إخراجك يعني أن حالهم في كراهية دارأيت من تنفيل الفوزة مثل حالهم في كراهة خروجك للحرب .

والثاني : أن ينتصب على أنه صفة مصدر الفعل المقدر في قوله « الأنفال لله والرسول » أي : الأنفال استقرت لله والرسول ، وثبتت بكراهتهم ثباتاً مثل ثبات إخراج ربك إياك من بيتك وهم كارهون ، (١) والوجه الأول من الوجهين الذين ذكرهما صاحب الكشف هو الذي نميل إليه ، وهو الذي ذكرناه قبل ذلك بصورة أكثر تفصيلاً .

وأضاف - سبحانه - الإخراج إلى ذاته فقال : « كما أخرجك ربك للإشمار بأن هذا الإخراج كان بوحى منه - سبحانه - وبأنه هو الرام له في هذا الخروج .

والمراد بالبيت في قوله : « من بيتك » مسكنه - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة أو المراد المدينة نفسها ، لأنها مشواه ومستقره ، فهي في اختصاص به كاختصاص البيت بساكنه .

وقوله : « بالحق » متعلق بقوله : « أخرجك » ، والباء للسببية ، أي : أخرجك بسبب نصرته الحق ، وإعلاء كلمة الدين ، وإزهاق باطل المبطلين . ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف على أنه حال من مفعول أخرجك وتكون الباء للملابسة ، أي : أخرجك إخراجاً ملتبساً بالحق الذي لا يمحى حوله باطل .

قال الألوسي : وقوله : « وإن قريباً من المؤمنين كارهون » ، أي للخروج ، إما لعدم الاستعداد للقتال ، أو للميل للفتنة ، أو للنفرة الطبيعية عنه وهذا مما لا يدخل تحت القدرة والاختيار ، فلا بد أنه لا يليق بمنصب الصحابة

والجمله في موضع الحال ، وهى حال مقدرة ؛ لأن الكراهه وقعت
بعد الخروج ، (١) .

والمعنى الاجمالى الآية للكرهية : حال بعض المشركين في بدر في كراهه
خسمة الغنيمه بالسوية بينهم ، مثل حال فريق منهم في كراهه الخروج للقتال ،
مع أنه قد ثبت أن هذه القسمة وذلك القتال ، كان فيهما من الخير لهم ،
لذا الخير فيما قدره الله وأراد ، لا فيما يظنون .

وقوله - تعالى - : « يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى
الموت وهم ينظرون » ، حكاية لما حدث من هذا الفريق الكاره للقتال ،
ونصوير معجز لما استعبد به من خوف وفزع .

والمراد بقوله « يجادلونك » ، يجادلهم للنبي صلى الله عليه وسلم في شأن القتال
وقوله لهم . ما كان خروجنا إلا للغير ، ولو أخبرنا بالقتال لأعدنا العدة له .
والضمير يعود لفريق الذى كان كارهاً للقتال .

والمراد بالحق الذى جادلوا فيه : أمر القتال الذى حضهم الرسول - صلى
الله عليه وسلم - على أن يعدوا أنفسهم له .

وقوله : « بعد ما تبين » متعلق : « يجادلون » و « ما » مصدرية ،
والضمير في الفعل « تبين » يعود على الحق .

والمراد بتبينه : إلهام الرسول - صلى الله عليه وسلم - لهم بأنهم سينصرون
على أعدائهم فقد روى أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أخبرهم قبل نجاه
الغير بأن الله وعده الظفر بإحدى الطائفتين : العير أو النغير ، فلما نجحت العير علم
أن الظفر الموعود به إنما هو للنغير ، أى : على المشركين الذين استنفرهم
أبوسفيان للقتال لا على العير ، أى : الأبل الحامئة لأموال المشركين .

والمعنى : يجادلك بعض أصحابك - يا محمد - ، في الحق ، أى فى أمر القتال ، بعد ما تبين ، أى ، بعد ما تبين لهم الحق ياخبارك إياهم بأن النصر سيكون حليفهم ، وأنه لا مفر لهم من لقاء قريش تحميماً لوعده الله الذى وعد بإحدى الطائفتين .

وقوله : « كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ، أى : يكرهون القتال كراهة من يساق إلى الموت ، وهو ناظر إلى أسبابه ، ومشاهد لموجباته . والجملة فى محل نصب على الحالية من الضمير فى قوله : « لا يكرهون » . وفى هذه الجملة الكريمة تصوير معجز لما استولى على هذا الفريق من خوف وفزع من القتال يسبب قلة عددهم وعددهم .

وقوله : « بعد ما تبين ، زيادة فى لومهم ، لأن الجدل فى الحق بعد تبينه أفتح من الجدل فيه قبل ظهوره .

ثم حكي - سبحانه - جانباً من مظاهر فضله على المؤمنين ، مع جزع بعضهم من قتال عدوه وعدوهم ، وإبشارهم العير على النفير فقال : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تمكون لكم » .

والمراد بإحدى الطائفتين : العير أو النفير ، والخطاب للمؤمنين . والمراد بغير ذات الشوكة : العير ، والمراد بغات الشوكة : النفير . والشوكة فى الأصل واحدة الشوك وهو النبات الذى له حد ، ثم استعيرت للشدة والحدة ، ومنه قولهم : رجل شاك السلاح أى : شديد قوى . والمعنى : واذكروا - أيها المؤمنون - وقت أن وعدكم الله - تعالى - على لسان رسوله - صلى الله عليه وسلم - بأن إحدى الطائفتين : العير أو النفير هى لكم تظفرون بها ، وتصرفون فيها تصرف المالك فى ملكه ، وأنتم مع ذلك تودون وتمنون أن تظفروا بالطائفة التى ليس معها سلاح .

هو العير .

(م ٤ - الأنفال)

وعبر — سبحانه — عن وعده لهم بصيغة المضارع ، بعدكم ، مع أنه
هذا الوعد كان قبل نزول الآية ، لاستحضار صورة الموعود به في الذهن ،
وللداومة ذكره — سبحانه — على ما وهبهم من نصر وفوز .

وإنما وعدهم — سبحانه — إحدى الطائفتين على الإيهام مع أنه كان
يريد إحداهما وهي النفيير ، ليستدرجهم إلى الخروج إلى لقاء العدو حتى
يقنعروا عليه ، وبذلك نزول هبة المشركين من قلوب المؤمنين :

وقوله : إحدى ، مفعول ثانٍ ليعد . وقوله : أنها لكم ، بدل اشتغال
من : إحدى) مبين لكيفية الوعد .

أي : بعدكم أن إحدى الطائفتين كانت لكم ، ومختصة بكم ، تتسلطون
عليها تسلط الملاك ، وتصرفون فيها كيفما شئتم .

وقوله : وتودون أن غير ذات الشوك تكون لكم ، معطوف على
قوله : بعدكم ، أي : وعدكم — سبحانه — إحدى الطائفتين بدون تحديد
لإحداهما ، وأنتم تحبون أن تكون لكم طائفة المعر التي لا قتال فيها يذكر ،
على طائفة النفيير التي تحتاج منكم إلى قتال شديد ، وإلى بذل للمهج والأرواح .
وفي هذه الجملة تعريض بهم ، حيث كرهوا القتال ، وأحبوا المال ،
وما هكذا يكون شأن المؤمنين الصادقين .

ثم بين لهم — سبحانه — أنهم وإن كانوا يريدون المعر ، إلا أنه
— سبحانه — يريد لهم النفيير ، ليعلو الحق ، ويذهب الباطل ، فقال : ويريد
لأن يحق الحق بكلماته ، ويقطع دابر الكافرين .

أي : ويريد الله بوعده غير ما أردتم ، وأن يحق الحق بكلماته ، أي الحق
يظهر الحق ويعلمه بآياته المنزلة على رسوله ، وبقضائه الذي لا يتخلف ، وإن
يستأصل الكافرين ويذلهم ، ويقطع دابرهم : أي آخرهم الذي يدبرهم .

والهابر : للتابع من الخلف . يقال : دبر فلان القوم يدبرهم ديورا ، إذا كان آخرهم في الجي . والمراد أنه سبحانه يريد أن يستأصلهم استئصالا . وقد هلك في غزوة بدر عدد كبير من صناديد قريش الذين كانوا يحاربون الإسلام ، ويستنهضون بتعاليمه .

قال صاحب الكشف في معنى الآية الكريمة . قوله : « ويريد الله أن يحق الحق بكلماته » ، يعني أنكم تريدون العاجلة وتفسفان الأمور ، وأن لا تلقوا ما يرزقكم في أبدانكم وأموالكم ، واثق - هز وجل - برد ممال الأمور ، وما يرجع إلى عمارة الدين ، ونصرة الحق ، وعلو السكينة والفوز في الهاربين . وغتان ما بين المراه . ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة ، وكسر قوتهم يضعفكم ، وغلب كثرتهم قتلهم ، وهزمهم وأدلمهم ، وحصل لكم مالا تعارض أدناء العير وما فيها ، (١) .

ثم بين - سبحانه - الحكمة في اختيار ذات الشوكة لهم ، ونصرتهم عليها فقال : « ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون . »
 أى : فعل ما فعل من النصرة والظفر بالأعداء « ليحق الحق ، أى : ليثبت الدين الحق دين الإسلام » ، ويبطل الباطل ، أى : ويمحق الدين الباطل وهو ما عليه المشركون من كفر وطفیان .

وقوله : « ولو كره المجرمون » ، بيان لنفاذ إرادته - سبحانه - . أى : اقتضت إرادته أن يمحى الدين الحق وهو دين الإسلام ، وأن يمحى ما سواه ، ولو كره المشركون ذلك ؛ لأن كراهيتهم لا وزن لها ، ولا تعويل عليها . .
 وبهذا يتبين أنه لا تكرار بين الآيتين السابقتين ، لأن المراد بإحقاق الحق في قوله - تعالى - « ويريد الله أن يحق الحق بكلماته » : إعلاؤه وإظهاره ونصرته من طريق قتال المؤمنين للمشركين . .

والمراد بإحقاق الحق في قوله بعد ذلك في الآية الثانية دليحق الحق ويبطل الباطل، : تثبيت دين الإسلام وتقويته وإظهار شربته ، ومحق دين الكفر . فكان ما اشتملت عليه الآية الأولى هو الوسيلة والسبب وما اشتملت عليه الآية الثانية هو المقصد والغاية .

وقد بسط هذا المامنى الامام الرازى فقال ماملخصه : فإن قتل : أليس قوله : وبريد الله أن يحق الحق بكلماته ، ثم قوله بعد ذلك : دليحق الحق ، تكرار محض ؟ والجواب : ليس همنا تكرير ، لأن المراد بالأول سبب ما وعد به في هذه الواقعة من النصر والظفر بالأعداء ، والمراد بالثاني : تقوية القرآن والدين ونصرة هذه الشريعة ، لأن الذى وقع من المؤمنين يوم بدر بالكافرين ، كان سبباً لعزة الدين وقوته ، ولهذا السبب قرنة بقوله : ويبطل الباطل ، الذى هو الشرك ، وذلك في مقابلة الحق ، الذى هو الدين والايان . (١) وإلى هنا نرى السورة الكريمة قد حدثتنا في الأربعة الآيات الأولى منها عن حكم الله - تعالى - في غنائم بدر بعد أن اختلف بعض المؤمنين في شأنها ، وعن صفات المؤمنين الصادقين الذين يستحقون من الله - تعالى - أرفع الدرجات .

ثم حدثتنا في الأربعة الآيات الثانية منها عن حال بعض المؤمنين عندما دعاهم النبى - ﷺ - إلى قتال أعدائهم ، وعن مجادلهم له في ذلك ، وعن إثمارهم المال على القتال ، وعن إرادة الله ما هو خير لهم في دنياهم وآخرتهم ، وفي ذلك ما فيه من العبر والعظات لقوم يعقلون .

ثم ساق - سبحانه - بعض مظاهر تديره المحكم في هذه الغزوة ، وبعض النعم التى أنعم بها على المؤمنين ، وبعض البهارات التى تقدمت فلك الغزوة أرحابها ، والتى كانت تدل دلالة واضحة على أن النصر سيكون للمسلمين فقال - تعالى - :

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ
بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ
بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾
إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
لِّيُطَهِّرَ كُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ
وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَتِيَ مَعَكُمْ
فَقَبِلُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَالِقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا
فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ
وَرُسُلَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾
هَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾

قال القرطبي : قوله - تعالى - : « إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ، الاستغاثة : طلب
الغوث والغوث . يقال : غوث الرجل ، أو قال : وأغوثاه . والاسم الغوث
والغوث والغوث ، واستغاثني فلان فأغثته ، والاسم الغياث . (١) .
وقوله « مَدَّكُمْ ، من الإمداد بمعنى الزيادة والإعانة . وقد جرت عادة
القرآن أن يستعمل الإمداد في الخير ، وأن يستعمل المد في الشر والذم .
قال - تعالى - : « وَاَنْقَرُوا الَّذِي اَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ . اَمَدَّكُمْ بِاَنْعَامٍ وَبَنِينَ .

وَجَنَاتٍ وَعِبْرَةٍ » (٢) .

(١) تفسير القرطبي ج ٧ ص ٣٧٠ . مطبعة دار الكتب سنة ١٣٨٠ هـ سنة ١٩٦٠ م

(٢) سورة الشعراء . الآيات .

وقال - تعالى - : ثم رددنا لكم الكرة عظيمة وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفراً (١) .

وقال - تعالى - : د قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدداً (٢)

وقال - تعالى - : د الله يستهزى بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون (٣)

وقوله : د مردفين ، من الإرداف بمعنى التابع .

قال الفخر الرازي : قرأ نافع وأبو بكر عن عاصم د مردفين ، - بفتح الدال - . وقرأ الباقون بكسرهما ، والمعنى هل لكسر ، أى : متتابعين يأتي بعضهم في إثر البعض كالقوم الذين أوردوا على الدواب .

والمعنى هل قراءة الفتح ، أى : فعل بهم ذلك ، ومعناه أن الله - تعالى - أورد المسلمين وأيدهم بهم (٤) أى جعلهم خلف المسلمين لتقويتهم .

والمعنى : اذكروا - أيها المؤمنون - وقت أن كنتم - وأنتم على أبواب بدر - تستغيثون ربكم ، أى : تطلبون منه الفوث والنصر على عدوكم . فاستجاب لكم ، دعاءكم ، وكان من مظاهر ذلك أن أخبركم على لسان نبيكم - ﷺ - بأنى مددكم ، أى : معينكم وناصركم ، بأنف من الملائكة مردفين ، أى : متتابعين ، بعضهم على أثر بعض ، أو أن الله - تعالى - جعلهم خلف المسلمين لتقويتهم وتثبيتهم .

روى الإمام مسلم عن ابن عباس قال : حدثنى عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم بدر ، نظر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المشركين

(١) سورة الإسراء . الآية .

(٢) سورة مريم . الآية .

(٣) سورة البقرة . الآية .

(٤) تفسير الفخر الرازي ج ١٥ ص ١٢٠ .

يوم ألف ، وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ، فاستقبلني الله - صلى الله عليه وسلم - القبلة ، ثم مد يديه ليجعل يهتف بربه ويقول : اللهم أنجز لي ما وعدتني . اللهم أنجز لي ما وعدتني . اللهم إن تلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض ، فما زال يهتف بربه ماداً يديه حتى سقط رداؤه من منكبيه .

فأناء أبو بكر ، فأخذ رداؤه ، فالتفاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه ، وقال : يا نبي الله ! اكفك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك . فأنزل الله - عز وجل - : إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم . . . الآية . فأمده الله بالملائكة (١) .

وروى البخاري عن ابن عباس قال : قال النبي - ﷺ - يوم بدر ، اللهم أنفدك ههنا ووهلك ، اللهم إن شئت لم تعبد . فأخذ أبو بكر بيده ، فقال حبسك ، فخرج - صلى الله عليه وسلم - وهو يقول : سيهزم الجمع ويولون الدبر ، (٢) .

وروى سعيد بن منصور عن طريق عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : لما كان يوم بدر نظر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المشركين وكأثرهم ، وإلى المسلمين فاحتقلهم ، فركع ركعتين وقام أبو بكر عن يمينه . فقال رسول الله - ﷺ - وهو في صلاته : اللهم لا تودع مني ، اللهم لا تقهذي ، اللهم لا تزي - أي لا تقطعني عن أهلي وأنصاري - أو لا تنفصني شيئاً من طاعتك . اللهم أنفدك ما وعدتني - أي : استنجزك ههنا . وروى ابن إسحاق في سيرته أنه - صلى الله عليه وسلم - قال : اللهم ههنا

(١) صحيح مسلم ج ٥ ص ١٥٦ . طبعة مصطفى الحلبي سنة ١٣٨٠ هـ

سنة ١٩٦٩ م .

(٢) صحيح البخاري ج ٥ ص ٩٢ . طبعة مصطفى الحلبي سنة ١٣٤٥ هـ .

قريش قد أقبلت بخيلاتها وفخرها تحادك وتكذب رسولاك ، اللهم فنصرك
الذى وعدتني ، (١) .

فإن قيل : إن هذه النصوص يؤخذ منها أن هذه الاستغاثة كانت من
رسول الله ﷺ — فلماذا أسندها القرآن إلى المؤمنين ؟

فالجواب : أن المؤمنين كانوا يؤمنون على دعائه صلى الله عليه وسلم —
ويتأسون به في الدعاء ، إلا أن الروايات ذكرت دعاء الرسول ﷺ ،
لأنه هو قائد المؤمنين ، وهو الذى يحرص الرواة على نقل دعائه ،
أكثر من حرصهم على نقل دعاء غيره من أصحابه .

وقيل : إن الضمير في قوله : تستغيثون ، للرسول ﷺ — .
وجيء به مجموعا على سبيل التعظيم ، ويعكز على هذا القيل أن السياق بعد
ذلك لا يلتزم معه ، لأنه خطاب للمؤمنين بالنعم التى أنعم بها — سبحانه
— عليهم .

وعبر - سبحانه - بالمضارع : تستغيثون ، - مع أن استغاثتهم كانت قبل
نزول الآية - استحضارا للحال الماضية ، حتى يستمروا على شكره لله ، ولذلك
عطف عليه : فاستجاب لكم ، بصيغة الماضي مسيرة لواقع .

وكان العطف بالفاء للإشعار بأن إجابة دعائهم كانت فى أعقاب نصرهم
واستغاثتهم وهذا من فضل الله عليهم ، ورحمته بهم ، حيث أجارهم من عدوهم ،
ونصرهم عليه - مع قلةهم عنه - نصرا مؤزرا .

والسين والثاء في قوله : تستغيثون ، للطلب . أى : تطلبون منه الفوت -
بالنصر . وفى قوله : فاستجاب لكم ، فائدتان . أى : فأجاب دعاءكم .
فإن قيل : إن الله - تعالى - ذكر هنا أنه أمدهم بألف من الملائكة ،
وذكر في سورة آل عمران أنه أمدهم بأكثر من ذلك فكيف الجمع بينهما ؟

(١) تفسير المنارج ٩ ص ٥٥٦ مطبعة دار المنار . الطبعة الثانية سنة ١٣٦٧ هـ .

قالجواب أن الله - تعالى - أمد المؤمنين بألف من الملائكة في يوم بدر ، كما بين هنا في سورة الأنفال ، ثم زاد عددهم إلى ثلاثة آلاف كما قال - تعالى - في سورة آل عمران : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاقنوا الله لعلكم تهكرون . » إذ تقول للمؤمنين أن يكفبكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منواين ثم زاد عددهم مرة أخرى إلى خمسة آلاف . قال - تعالى - « بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا ، يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ، » (١) . وقد صبروا واتقوا وأناهم المشركون من مكة فورا حين استنفرهم أبو سفيان لإنقاذ العير . . فكان المدد خمسة آلاف . .

واختار ابن جرير أنهم وعدوا بالممدد بعد الألف . ولا دلالة في الآيات على أنهم أمدوا بما زاد على ذلك ، ولا على أنهم لم يمدوا ، ولا يثبت شيء من ذلك إلا بنص .

وهذا بناء على أن المدد الذي وعد الله به المؤمنين في آيات سورة آل عمران كان خاصاً بغزوة بدر .

أما على الرأي القائل بأن هذا المدد الذي بتلك الآيات كان خاصاً بغزوة أحد فلا يكون هناك إشكال بين ما جاء في السورتين .

وقد بسط القول في هذه المسألة الإمام ابن كثير فقال ما ملخصه : واختلف المفسرون في هذا الموعد هل كان يوم بدر أو يوم أحد على قواين : أحدهما : أن قوله - تعالى - : « إذ تقول للمؤمنين أن يكفبكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة . » متعلق بقوله : « ولقد نصركم الله ببدر » وهذا قول الحسن والشعبي والربيع بن أنس وغيرهم . .

فإن قيل فكيف للجمع بين هذه الآيات - التي في سورة آل عمران وبين قوله في سورة الأنفال - : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين » ؟ .

فالجواب : أنه التنصيص على الآلاف هنا ، لا يتنافى الثلاثة الآلاف فثانوها
 لقوله - تعالى - « مردفهم » بمعنى يردفهم فيهم ويقيمهم الوفاء آخر مثلهم .
 قال الربيع بن أنس : أمد الله المسلمين بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ،
 ثم صاروا خمسة آلاف . .

والقول الثاني يرى أصحابه أن هذا الورد - وهو قوله - تعالى - :
 « إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة » .
 متعلق بقوله - قبل ذلك - « وإذ غدوت من أهلك ليرى المؤمنون
 حقايد للقتال . . » وذلك يوم أحد .

وهو قول مجاهد ، وهكرمة ، والضحاك ، وغيرهم .

لكن قالوا : لم يحصل الإمداد بأخسة الآلاف ، لأن المسلمين يوشقغفروا .
 وزاد هكرمة : ولا بالثلاثة الآلاف لقوله - تعالى - « بل إن
 تصبروا وننتصروا ، فلم يصبروا بل فروا فلم يمدوا بملك واحد » (١) .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله عليهم ورحمته بهم في هذا
 الإمداد فقال : وما جعله الله إلا بشرى ، ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا
 من عند الله ، إن الله عزيز حكيم ، فالآية الكريمة كلام مستأنف ساقه
 - سبحانه - لبيان بعض مظاهر فضله على المؤمنين ، ولبيان أن المؤثر الحقيقي
 هو وحده حتى يزدادوا ثقة به ، وحتى لا يقنطوا من النصر عند قلة أسبابه .

أي : وما جعل الله - تعالى - هذا الإمداد بالملائكة إلا بشارة لكم -
 أي المؤمنون - بالنصر على أعدائكم في هذه الغزوة الحاسمة وقوله
 « بشرى » مفعول لأجله مستثنى من أهم العلل .

وقوله : « ولتطمئن به قلوبكم » معطوف عليه : أي : ولتسكن به الإمداد

قلوبكم ، ورجول منكم الخوف ، وتهاجوا أهداءكم بنفوس لا يداخلها الإحجام أو الردد ..

— وقوله : « وما للنصر إلا من عند الله » ، أى : ليس النصر بالملائكة أو غيرهم إلا كائن من عند الله وحده ، لأنه - سبحانه - هو الخالق لكل شئ ، والقادر على كل شئ ..

وإن الوسائل مهما عظمت ، والأسباب مهما كثرت .. لا تؤدي إلى النتيجة المطلوبة والغاية المرجوة ، إلا إذا أبدتها إرادة الله وقدرته ورعايته .
وقوله : « إن الله عزيز حكيم » ، أى : غالب لا يقهره شئ ، ولا ينازعه منازع حكيم في تدبيره وأفعاله .

فأجمله الكريمة تذييل قصد به التعليل لما قبله ، وفيه إشارات بأن النصر « الواقع على الوجه المذكور من مقتضيات حكمته البالغة - سبحانه - .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك بعض المنن الأخرى التى منحها للمؤمنين قبل أن يلتحقوا مع أهدائهم في بدر فقال : « إذ يغشاكم للناس أمنة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطاركم به ، ويذهب عنكم رجس الشيطان ، وليربط على قلوبكم ، ويثبت به الأقدام » .

وقوله : « يغشاكم » : بتشديد الشين من الغشية بمعنى التغطية من غشاء غشية أى : خطاه .

والنعماس : أول النوم قبل أن يثقل وفعله - على الراجح - على وزن منع .
والأمنة : مصدر بمعنى الأمن . وهو طمأنينة القلب وزوال الخوف .
يقال : أمنت من كذا أمنة وأمنا وأمانا بمعنى .

قال السجمل : في قوله : « إذ يغشاكم للنعماس » ثلاث قراءات سبعة .
الأولى : يغشاكم كيلاً فاكم ، من غشية إذا أهواه وأصابه وفى المصباح : غشيته أغشاه من باب تعب بمعنى أقيته - وهى قراءة أبى عمرو وابن كثير -

الثانية : يغشيكم - بإسكان الغين وكسر اللشين - من أغشاء . أى :
أزله بكم وأوقه عليكم - وهى قراءة نافع -

الثالثة : يغشيكم - بتشديد الدين وفتح الغين وهى قراءة الباقيين -
من غشاء تمضية بمعنى غطاء .

أى : يغشيكم الله الناس أى يجعله عليكم كالغطاء من حيث اشتتاله عليكم .
والنحاس على القراءة الأولى مرفوع على الفاعلية ، وعلى الأخيرتين
منصوب على المفعولية . وقوله : دأمة ، حال أو مفعول لأجله . (١)
وقال القرطبي : . . وكان هذا للنحاس فى الآية التى كان القتال من غدها .
فكان النوم عجيباً مع ما كان بين أيديهم من الأمر المهم ، ولكن الله ربط جأشهم .
وعن على - رضى الله عنه - قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير
المقداد على فرس أبلق ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم ، سوى رسول الله
ﷺ - تحت شجرة يصل حتى أصبح .

وفى امتنان الله عليهم بالنوم فى هذه الليلة وجهان : - أحدهما : أن
قواهم بالاستراحة على القتال من الغد .
الثانى : أن أمنهم بزوال اللرب من قلوبهم : كما يقال : الأمن منيم ،
والنخوف مسور ، (٢) .

وقال ابن كثير : وجاء فى الصحيح أن رسول الله ﷺ - لما كان
يوم بدر فى العريش مع الصديق ، وهما يدعوان ، أخذت رسول الله -
ﷺ - سنة من النوم . ثم استيقظ متبسماً ، فقال : أبشرا يا أبابكر ،
هذا جبريل على ثناباه النفع . ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قول الله
- تعالى - : سيعزم الجمع ويولون الدبر ، (٣) .

(١) حاشية الجمل على الأجلالين ج ٢ ص ٢٣٠ - بتصرف يسير -

(٢) تفسير القرطبي ج ٨ ص ٣٧٢

(٣) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٩١

والمعنى : وأذكروا — أيها المؤمنون — أيضاً ، وقت أن كنتم متبعين
موظفين على مصيركم في هذه المعركة ، فالتقى الله عليكم النعاس ، وغشاكم به
قبل التحافكم بأعدائكم ، ليسكون أماناً لقلوبكم ، وراحة لأبدانكم ،
وبشارة خير لكم .

هذا ، ومن العلماء الذين تكلموا عن نعمة النعاس التي ساقها الله للمؤمنين
قبل المعركة ، الإمامان الرازي ومحمد عبده .

أما الإمام الرازي فقد قال مامنا خصه : وأعلم أن كل نوم ونعاس لا يحصل
إلا من قبل الله - تعالى - فتخصيص هذا النعاس بأنه من الله لا بد فيه من مزيد
فائدة ، وذكروا في ذلك وجوها : منها : أن الخائف إذا خاف من عدوه فإنه
لا يأخذه النوم ، وإذا نام الخائفون آمنوا . فصار حصول النوم لهم في
وقت الخوف الشديد ، يدل على إزالة الخوف وحصول الأمن .

ومنها : أنهم ما ناموا يوماً غراكا يتمكن معه العدو من معاقبتهم ، بل كان
ذلك نعاساً يزول معه الإعياء والسكران ، ولو قصدتم العدو في هذه الحالة
لعرفوا وصوله ، ولقدروا على دفعه .

ومنها : أنه غشيهم هذا النعاس دفعة واحدة مع كثرتهم ، وحصول النعاس
للجمع العظيم في الخوف الشديد أمر خارق للعادة . فلهذا السبب قيل :
إن ذلك النعاس كان في حكم المعجز (١) .

وقال الإمام محمد عبده : لقد مضت سنة الله في الخلق ، بأن من يتوقع في
حبيبة ليلته هو لا كبيراً ، ومصاباً عظيماً ، فإنه يتجافى جنبه عن مضجعه فيصبح
خاملاً ضعيفاً . وقد كان المسلمون يوم بدر يتوقعون مثل ذلك ، إذ بلغهم أن
جيشاً يزيد على عديم ثلاثة أضعاف سيحاربهم غداً ، فكان من مقتضى العادة
أن يناموا على بساط الأرض والسماد . ولكن الله رحمهم بما أنزل عليهم
من النعاس : غشيهم فناموا ، واثقين بالله ، مطمئنين لوعده ، وأصبحوا على

همة ونشاط في لقاء عدوم وعدوه . فالنعاس لم يكن يوم بدر في وقت الحرب ، بل قبلها . . . (١) .

وبذلك نرى أن النعاس الذي أنزله الله تعالى - على المؤمنين قبل لقاءهم بأعدائهم في بدر كان نعمة عظيمة ، ومنة جليلة .

وقوله - تعالى - : « وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به » معطوف على قوله « بنفسيكم » وهو - أي : أنزال الماء من السماء - نعمة عظمى تحمل في طياتها نعماً ومنناً .

أولها : يتجلى في هذه الجلة الكريمة ؛ لأنه - سبحانه - أنزل على المؤمنين المطر من السماء ليطهرهم به من الحدئين : الأصفر والأكبر ، فإن المؤمن - كما يقول الإمام الرازي - « يكاد يستمدر نفسه إذا كان جنباً ، ويغم إذا لم يتمكن من الاغتسال ، ويضطرب قلبه لأجل هذا السبب . . . » (٢) .

وثانيها : قوله - تعالى - : « ويذهب عنكم رجس الشيطان » وأصل الرجس : الاضطراب ويطلق على كل ما تشتمد مشقته على النفوس . قال الراغب : أصل الرجس : الاضطراب ، ومنه قيل رجس الهمد رجزاً فهو أرجز . وناقة رجزاء إذا تقارب خطوها واضطرب لضعفها . . . (٣) والمراد برجس الشيطان : وسوسته للمؤمنين ، وتخويفه إياهم من العطش وغيره عند فقدهم الماء ، وإفاته الظنون السيئة في قلوبهم .

أي : أنه - سبحانه - أنزل عليكم الماء - أيها المؤمنون - ليطهركم به - تطهيراً حسياً ، وليزيل عنكم وسوسة الشيطان ، بتخويفه إياكم من العطش وإفاته في نفوسكم الظنون والأوهام . . . وهذا هو التطهير الباطني .

(١) تفسير المنار ج ٤ ص ١٨٥

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ١٥ ص ١٣٣

(٣) المفردات في غريب القرآن ج ١٧٨ . الأصفهاني . طبعة مصطفى

وثالثها قوله - تعالى - : « وليربط على قلوبكم ، أي : وليقويها بالثقة في نصر الله ، وليوطنها على الصبر والطمأنينة . . . ولا شك أن وجود الماء في حوزة المحاربين يزيدهم قوة على قوتهم ، وثباتاً على ثباتهم ، أما فقداه فإنه يؤدي إلى فقد الثقة والاطمئنان ، بل وإلى الهزيمة المحققة .

وأصل الربط : الشد . ويقال لكل من صبر على أمر : ربط قلبه عليه ، أي : حبس قلبه عن أن يضطرب أو يتزعزع ، ومنه قولهم : رجل رابط الجأش . أي : ثابت متمكن .

ورابع هذه النعم التي تولدت عن نزول الماء من السماء على المؤمنين ، قبل خوضهم معركة بدر ، يتجلى في قوله - تعالى - : « ويثبت به الأقدام .

أي : أنه - سبحانه - أفول عليهم المطر قبل المعركة لتطهيرهم جسماً ومعنوياً ، ولتقويتهم وطمأنينتهم ، وليثبت أقدامهم به حتى لا تسوخ في الرمال ، وحتى يسهل المشي عليها ، إذ من المعروف أنه من العسير المشي على الرمال ، فإذا ما نزلت عليها الأمطار جددت وسهل السير فوقها ، وانطفأ غبارها . . . فالضمير في قوله « به » ، يعود على الماء المنزل من السماء .

قال الزمخشري : ويجوز أن يعود للربط - في قوله « وليربط على قلوبكم » ، لأن القلب إذا تمكن فيه للصبر والجرأة ثبتت القدم في مواطن القتال .

هذا ، وقد وردت آثار متعددة توضح ما اشتملت عليه هذه الآية الكريمة من نعم جليلة ، ومن ذلك ما جاء عن ابن عباس أنه قال : قال النبي - ﷺ - : « يعني حين سار إلى بدر ، والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دعصة - أي كثيرة مجتمعة - فأصاب المسلمين ضعف شديد ، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ ، فوسوس بينهم ، تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله ، وقد غلبكم المشركون على الماء ، وأنتم تصلون مجنبيين ؟ فأمر الله عليهم مطراً

شديداً ، فشرب المسلمون وتطهروا ، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان ، وقبض الرمل حين أصابه المطر ، ومشى الناس عليه والدواب ، فساروا إلى القوم ... (١) .

وعن عروة بن الزبير قال : بعث الله السماء وكان الوادي قد هب فأصاب رسول الله - ﷺ - وأصحابه ما يلب لهم الأرض ولم يمتهم من المسهر ، وأصاب قريشاً ما لم يقدرُوا على أن يرحلوا معه ، (٢) .

ومن هذا القول المنقول عن عروة - رضى الله عنه - نرى أن الحركان خيراً للمسلمين ، وكان شراً على الكافرين ، لأن المسلمين كانوا في مكان يصلحه المطر ، بينما كان المشركون في مكان يؤذيهم فيه المطر .

ثم ذكرهم بنعمة أخرى كان لها أثرها العظيم في نصرهم على المشركين فقال - سبحانه - : « إذ يوحى إليك إلى الملافة أنى معكم . فقتلوا الذين آمنوا ، سألنى في قلوب الذين كفروا للرعب ، فاضربوا فوق الأحنق [واضربوا منهم كل بنان] » .

والبنان : - كما يقول القرطبي - واحدة بنانة . وهى هنا الأصابع وغيرها من الأعضاء .. وهو - أى البنان - مشتق من قولهم أبى الرجل بالمكان إذا أقام به . فالبنان يعتمل به ما يكون للإقامة والحياة . وقيل : المراد بالبنان هنا أطراف الأصابع من اليدين والرجلين ، وهو عبارة عن الثبات في الحرب وموضع الضرب ، فإذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتال بخلاف سائر الأعضاء .

وذكر بعضهم أنها سميت بنانا لأن بها صلاح الأحوال التى بها يستقر الإنسان ... (٣) .

(١) تفسير ابن جرير ج ٩ ص ١٩٥

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٩٢

(٣) تفسير القرطبي ج ٧ ص ٣٧٩

والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم - وقت أن أوحى ربك إلى الملائكة الذين أمدهم المسلمين في بدره أي معكم ، أي بعوني وتأيدى وفتبتوا الذين آمنوا ، أي ففوقوا قلوبهم ، واملأوا نفوسهم ثقة بالنصر ، وصحبوا نياتهم في القتال حتى تكون غايتهم لإعلاء كلمة الله . . .

قال الألوسي : والمراد بالتهديد : الحمل على الثبات في موطن الحرب والجد في مقاساة شدائد القتال . . وكان ذلك هنا في قول - بظهورهم لهم في صورة بشرية يعرفونها ، ووجدوا إياهم النصر على إعدادهم ؛ فقد أخرج البيهقي في الدلائل أن الملك كان يأتي الرجل في صورة الرجل يعرفه فيقول له : أبشروا فإنهم ليسوا بشيء . ، وافته معكم . كروا عليهم . .

وقال الزجاج : كان بأشياء يلقونها في قلوبهم تصح بها عزائمهم ويتأكد جدهم . وللملك قوة لإلقاء الخير في القلب ويقال له لإلهام ، كما أن للشيطان قوة لإلقاء الشر ويقال له وسوسة ، (١) .

وقوله - تعالى - : : سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب ، بشارة عظيمة للمؤمنين .

أي : سأملأ قلوب الكافرين بالخوف والفرع منكم - أيها المؤمنون - ، وسأقذف فيها الهلع والجزع حتى تتمكنوا منهم . . .

والرعب : أزعاج النفس وخوفها من توقع مكروه ، وأصله التقطيع من قولهم : رعبت السنام ترعيباً إذا قطعتة مستطيلاً . كأن الخوف يقطع الفؤاد . وقوله : : فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ، الخطاب فيه للمؤمنين ، وقبل . للملائكة .

والمراد بما فوق الأعناق الرؤوس كما روى عن عطاء وعكرمة . أو المراد بها الأعناق ذاتها فتكون فوق بمعنى على وهو قول أبي عبيدة .

(١) تفسير الألوسي ج ٩ ص ١١٧ - بتلخيص يسير -

ويرى صاحب الكشف أن المراد بما فوق الاعتناق: أعلى الاعتناق التي هي المذابح ، لأنها مفصل ، فكان إيقاع الضرب فيها جراً وتطبير اللروس . والمراد بالبنان - كما سبق أن بينا - الأصابع أو مطلق الأطراف ، والمعنى : لقد أعطيتكم - أيها المؤمنون - من وسائل النصر ما أعطيتكم ، فهاجموا أعدائي واعداءكم بقوة وغاظة ، واضربوهم على أعناقهم ورددوهم ومواضع الذبح فيهم . واضربوهم على كل أطرافهم حتى تشلوا حركتهم ، فيصبحوا عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم . . .

ثم بين - سبحانه - السبب في تكليفه المؤمنين بمجاهدة الكافرين والإغلاط عليهم وقتلهم . . .

فقال - تعالى - « ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله وهم يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب » .

فالم الإشارة « ذلك » يعود إلى ما سبق بيانه من تأييد المؤمنين ، وأمرهم بضرب الكافرين . . . وهو في محل رفع على الابتداء . وقوله « بأنهم » . . . خبره . والباء السببية .

وقوله : « شاقوا » من المشاققة بمعنى المخالفة والمعاداة مشتقة من الشق - أي الجانب - ، فكل واحد من المتعادين أو المتخالفين صار في شق غير شق صاحبه .

والمعنى : ذلك الذي ذكره الله - تعالى - فيما سبق ، من تأييده للمؤمنين وأمره لإيهاهم بضرب الكافرين ، سببه أن هؤلاء الكافرين « شاقوا الله ورسوله » أي : عادوهما وخالفوا شرعهما ، ومن يشاقق الله ورسوله ، بأن يسير في غير الطريق الذي أمراه ، فإن الله شديد العقاب ، لهذا المعادى والمخالف .

قال الألوسي : وقوله : « فإن الله شديد العقاب » ، إما نفس الجزاء ، وقه حلف منه العائد عند من يلتزم ولا يكتفي بالعائد في الربط . أي : شديد العقاب له . أو قائم مقام الجزاء المحذوف أي : يعاقبه الله - تعالى - فإن الله -

شديد العقاب . وأبأ ما كان فالشرطية بيان للسببية السابقة بطريق برهاني .
كأنه قيل : ذلك العقاب الشديد بسبب المشاققة لله - تعالى - ورسوله - ﷺ -
وكل من يشاقق الله ورسوله كائنا من كان ، فله بسبب ذلك عقاب شديد ،
فإن لهم بسبب مشاققة الله ورسوله عقاب شديد (١) .

ثم بوجه - سبحانه - خطابه على سبيل الالتفات لأولئك الذين شاقوا
الله ورسوله ، متوعدا إياهم بسوء المصير فيقول : ذلكم فذوقوه وأن
للكافرين عذاب النار ، فاسم الإشارة : ذاكم ، يعود إلى ماسبق بيانه من
تأييد المزمعين ، وخذلان الكافرين وإزالة العقوبة بهم .

أي ذلكم الذي نزل بكم - أي الكافرون - من القتل والأسر في
بدر ، هو العقاب المناسب لطغيانكم وشرركم وعنادكم ، فذوقوا
آلامه ، وتجرعوا غصصه ، وهيشوا في مثله .

هذا في الدنيا ، أما في الآخرة فلكم عذاب النار الذي هو أشد وأبقى
من عذاب الدنيا . فآثروا الكفر ، وادخلوا في الإيمان لتنجوا من العذاب
وتنالوا الثواب .

قال الجمل ما ملخصه وقوله : ذلكم فذوقوه ... يجوز فيه وجوه
من الاعراب أحدها أن يرفع بالابتداء والخبر محذوف أي ذلكم العقاب .
الثاني : أن يرفع على أنه خير لمبتدأ محذوف أي : العقاب ذاكم أو الأمر
ذلكم وعلى هذين الوجهين يكون قوله فذوقوه لانهلق له بما قبله من جهة
الاعراب فهو مستأنف ، والوقف يتم على قوله : ذلكم ، الثالث : أن
يرفع بالابتداء . والخبر قوله فذوقوه ، وهذا على رأى الأخفش .

وقوله . وأن للكافرين عذاب النار ، معطوف على قوله ذاكم ، أو منصوب
على أنه مفعول معه ، والمعنى : ذوقوا ما عجل لكم مع ما أجل لكم في الآخرة

ووضع الظاهر فيه موضع المضمرة - بأن قال « فذوقوه » ، وأن الكافرين ، ولم يقل فذوقوه وأن لكم - للدلالة على أن الكفر سبب للعذاب الأجل أو للجمع بينهما ، (١) .

ومن هذا نرى أن تلك الآيات الكريمة قد ذكرت المؤمنين الذين اشترکوا في غزوة بدر بالوان من نعم الله عليهم ، وبأنواع من البشارات التي كانت تدل على أن النصر سيكون لهم .

١ - ذكرتهم بوعده الله لهم بأن إحدى الطائفتين : العير أو النضير ستكون لهم ، وقد وفى لهم - سبحانه - بوعده ، حيث جعل النصر لهم ، ومن أوفى بعهده من الله ؟

٢ - وذكرتهم بإجابة الله لدعائهم ، حيث أمدهم بأنف من الملائكة مردفين .
٤ - وذكرتهم بالنعاس الذي ألقاه - سبحانه - عليهم قبل المعركة ، ليكون أماناً لهم ، وراحة لأبدانهم .

٤ - ذكرتهم بنزول المطر عليهم من السماء ليكون طهارة ظاهرة وباطنية لهم ؛ وليكون طمأينة أقلوبهم ، وتثبيتاً لأقدامهم .

٥ - وذكرتهم بأمر الله لملائكته أن يثبتوهم ، بأن يفرسوا في قلوبهم الثقة في نصر الله لهم ، والاستهانة بقوة أعدائهم .

٦ - وذكرتهم بما ألقاه - سبحانه - في قلوب الكافرين من رعب وفزع وجزع ، جعلهم يهزموں أمامهم .

٧ - وذكرتهم بأن ما أصاب أعداء الله وأعداءهم من قتل وأسر وخسران كان سببه كفرهم وعنادهم وإيثارهم سبيل الحق على سبيل الرشد ، وأنهم - إذا استمروا في كفرهم - فسيلقون في الآخرة عقاباً أشد وأبقى مما نزل بهم في الدنيا .

ولا شك أن هذا الفكر من مقاصده الأساسية حض المؤمنين على

الاستجابة لله وارسوله : وعلى مداومة الشكر لحالهم ، فهو - سبحانه - الذى منحهم هذه النعم الجزيلة التى تمسكوا بها من رقاب أعدائهم ، وهو الذى جعلهم يغمون كل هذه الغنائم بعد أن خرجوا من ديارهم بلا مال ولا ظهر ولا عناد .

هذا ، ومن الخير قبل أن ننتقل من هذه الآيات إلى غيرها ، أن نتكلم بشئ من التفصيل عن مسألة كثر الحديث عنها .

وهذه المسألة هى : ماذا كانت وظيفة الملائكة فى بدر ؟ أكانت وظيفتهم تثبيت المؤمنين لحسب أم أنهم بجانب هذا التثبيت قاتلوا فعلا معهم ؟ إننا بمطالعتنا لما كتبه الكتاتيون عن هذه المسألة نراهم فى كتابتهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

(أ) أما القسم الأول منهم ، فيرى أن الملائكة فى غزوة بدر لم تكن وظيفتهم التثبيت لحسب ، وإنما هم قاتلوا مع المؤمنين فعلا ، ويستدلون على ذلك بأدلة من أهمها :

١ - ما جاء عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال : بينا رجل من المسلمين يستند فى أثر رجل من المشركين أمامه . إذ سمع ضربة بالسوط فوقه قائلا بقول : أقدم حيزوم . فخر المشرك مستلقيا فنظر إليه فإذا هو قد حطم وشق وجهه . فجاء فحدث رسول الله - ﷺ - فقال : صدقت . ذلك من مدد السماء الثالثة (١) .

وجاء عنه أنه قال - أيضاً - : كانت سماء الملائكة يوم بدر عمامهم بيضاء ، ويوم أحد عمامهم خضراء ، ولم تقاتل الملائكة فى يوم سوى بدر . وكانوا فيما سواه عددا وعددا (٢) .

وعن أبى داود المزنى قال : تبعت رجلا من المشركين لأضربه يوم بدر . فوقع رأسه بين يدي قبل أن يصل إليه سيفي .

(١) تفسير الألوسى ج ٩ ص ١٧٨ . (٢) معالم التنزيل للبقرى ج ١ ص ١٠

٤ - وروى عن عبد الله بن مسعود أن أبا جهل سأل يوم بدر : من أين كان ذلك الصوت الذى كنا نسمعه ولا نرى شخصاً ؟ فقال : من الملائكة ، فقال له أبو جهل : هم لاذن غلبونا لا أنتم (١) .

ه - وقال القرطبي : وتظاهرت الروايات بأن الملائكة حضرت يوم بدر وقاتلت . ومن ذلك قول أبي أسيد مالك بن ربيعة وكان شهد بدرًا : لو كنت معكم الآن ببدر ومعى بصرى لأريتكم الشعب - أى الطريق فى الجبل - الذى منه الملائكة . لا أشك ولا أمارى ، وعن سهل بن حنيف قال : لقد رأيتنا يوم بدر إن أحدهما يشير بسيفه إلى رأس المشرك فتقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه (٢) .

هذه أهم الروايات التى استند إليها العلماء الذين يرون أن الملائكة قد قاتلوا مع المؤمنين يوم بدر ، وعلى رأس هؤلاء العلماء القرطبي ، فهو يرى أن هذا هو الصحيح وأنه رأى الجمهور .

(ب) أما القسم الثانى من العلماء فيرى أن الملائكة لم تقايل يوم بدر ، وإنما كانت وظيفتهم تثبيت المؤمنين فى المعركة ، وتقوية أرواحهم وقلوبهم ، واستدلوا على ذلك بأدلة من أهمها :

١ - أنه ليس فى الآيات القرآنية التى تحدثت عن غزوة بدر آية واحدة صريحة فى أن الملائكة قد قاتلت بالفعل ، وإنما هى صريحة فى أن الله - تعالى - قد أمد المؤمنين بالملائكة ، وجعل هذا الإمداد بشارة لهم . قال الألوسي عند تفسيره لقوله - تعالى - : « وما جعله الله إلا بشري . . » وفى الآية إشعار بأن الملائكة لم يباشروا قتالا ، وهو مذهب لبعضهم . ويشعر ظاهرها بأن النبى - ﷺ - أخبرهم بذلك الإمداد ، وفى الأخبار ما يؤيد .

بل جاء في غير ما خبر أن الصحابة رأوا الملائكة - عليهم السلام - (١) .
٢ - أن بعض الآيات القرآنية التي تحدثت عن غزوة بدر قد وضحت
وظيفة الملائكة توضيحاً تاماً ، ومن ذلك قوله - تعالى - : «إذ يوحى ربك
إلى الملائكة أنى معكم فنثبتوا الذين آمنوا ، سألنى فى قلوب الذين كفروا
الزهب ، فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان » .

قال ابن جرير فى معنى « فنثبتوا الذين آمنوا ، وقوا عزمهم ، وصحبوا
نياتهم فى قتال أعدائهم من المشركين » (٢) .

وقال فى معنى قوله - تعالى - « فاضربوا فوق الأعناق ... » : والصواب
من القول فى ذلك أن يقال : إن الله أمر المؤمنين معلماً لإياهم كيفية قتل المشركين
وضربهم بالسيف ، أن يضربوا فوق الأعناق منهم والأيدي والأرجل ... (٣)
وقال الفخر الرازى : قوله « فاضربوا فوق الأعناق ، فيه وجهان :
الأول : أنه أمر للملائكة متصل بقوله - تعالى - « فنثبتوا » . وقيل : بل
أمر للمؤمنين . وهذا هو الأصح لما بينا أنه - تعالى - ما أنزل الملائكة
لأجل المقاتلة والمحاربة ... (٤) .

٣ - أن الروايات التى استند إليها من قال بأن الملائكة قاتلت مع
المؤمنين فى بدر لم ترد فى كتب السنة المعتمدة ، بل لم يذكر معظمها الإمام
ابن جرير مع علمنا باهتمامه بالمرويات فى تفسيره . وفضلاً عن ذلك فإن
أكثر هذه الروايات لم تصرح بأن الملائكة قد قاتلت .

فثلا رواية أبى داود المازنى لم تصرح بأن المشرك الذى أراد هو أن يقتله
قد قتله مالك . وكذلك الحال بالنسبة لروايتى أبى أسيد وسهيل بن حنيف
وأما قول أبى جهل لابن مسعود : « هم إذن غلبونا - بمعنى الملائكة - لا أتم ،

(١) تفسير الألوسى ج ٩ ص ١٧٤

(٢) د ابن جرير ج ٩ ص ١٩٧ ، ص ١٩٨

(٣) د الفخر الرازى ج ١٥ ص ١٣٥

فدريج أنه من باب التبرير والمغالطة - فهو يريد أن ينفى - «فقدأ منهم»
وهذا - قوة للمؤمنين الذين صرخوا أضالته من الطغاة . . .

والخلاصة أن معظم هذه الروايات - مع ضعفها - لم تصحح بأن
الملائكة قد قاتلوا مع المؤمنين يوم بدر .

٤ - استبعد كثير من العلماء اشتراك الملائكة في القتال ، ومن هؤلاء
العلماء الإمام أبو بكر الأصم فقد قال :

« إن الملك الواحد يكفي في إهلاك أهل الأرض كما فعل جبريل بعدي
قوم لوط . فإذا حضر هو يوم بدر - وجميع الروايات تذكر أنه كان على
رأس الملائكة - فأى حاجة إلى مقاتلة الناس مع الكفار ؟ بل أى حاجة حينئذ
إلى إرسال سائر الملائكة ؟ وأيضاً فإن أكابر الكفار كانوا مشهورين .
وقاتل كل منهم من الصحابة معلوم .

وأيضاً لو قاتلوا فلماذا أن يكونوا بحيث يراهم الناس أولاً . . . وعلى الأول
يكون المشاهد من هسكر الرسول ثلاثة آلاف وأكثر ، ولم يقل أحد
بذلك . . . وعلى الثاني كان يلزم جزؤ الروس ، وتمزيق البطون ، وإسقاط
الكفار من غير مشاهدة فاعل ، ومثل هذا من أعظم المعجزات ، فكان يجب
أن يتواتر ويشتهر بين المسلم والكافر والموافق والمخالف . . . (١) .

وقال صاحب المنار : مقتضى السياق أن وحى الله للملائكة دوماً جعله
إلا بشئ . . . إلخ . . .

وقوله - تعالى - « سألنى في قلوب الذين كفروا الرعب . . . إلخ »
بدء كلامه خطب به النبي ﷺ - والمؤمنون تنمة للبشرى . فيكون الأمر
بالضرب موجهاً إلى المزمعين قطعاً ، وعليه المحققون الذين جزموا بأن
الملائكة لم تقاتل يوم بدر تبعاً لما قبله من الآيات . . .

ثم قال : وفي كتب السير وصف للمعركة علم منه القاتلون والأمرون .

لأشد المشركين بأساء، فهل تعارض هذه البيئات الثقيلة بروايات لم يرها شيخ المفسرين ابن جرير حرية بل تنقل ...

كما أن الله شر هذه الروايات الباطلة التي شوهت التفسير وقلبت الحقائق، حتى إنها خالفت نص القرآن نفسه فاته - تعالى يقول في إمداد الملائكة - وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم ... وهذه الروايات تقول بل جعله مقاتلة، ولئن هؤلاء السبعين الذين قتلوا من المشركين لم يمكن قتلهم إلا باجتماع ألف أو الوف من الملائكة عليهم مع المسلمين الذين خصمهم الله بما ذكر من أسباب النصر المتعددة .

إلا أن في هذا من تعظيم شأن المشركين، وتكبير شجاعتهم وتصغير شأن أفضل أصحاب الرسول وأشجعهم مالا يصدر عن عاقل، إلا وقد سلب عقله لتصحيح روايات باطلة لا يصح لها سند، ولم يرفع منها إلا حديث مرسل عن ابن عباس ذكره الألويني وغيره بغير سند، وابن عباس لم يحضر غزوة بدر لأنه كان صغيراً؛ فروايته عنها حتى في الصحيح مرسله . (١) هذه أم الأدلة التي استند إليها القائلون بأن الملائكة لم تقاوم يوم بدر، وإنما كانت وظائفهم تثبيت المؤمنين، وتقوية عزائمهم . وتصحيح نياتهم . (ج) أما القسم الثالث من العلماء الذين كتبوا في هذه المسألة؛ فمنهم المنى اكتفى بسررد الآراء دون أن يرجح بينها؛ ومن هؤلاء صاحب الكشف، فقد قال :

فإن قلت : هل قاتلت الملائكة يوم بدر ؟ قلت : اختلف فيه . فقيل : نزل جبريل في يوم بدر في خمسمائة ملك على الميمنة وفيها أبو بكر، وميكائيل في خمسمائة على الميسرة وفيها علي بن أبي طالب في صورة الرجال . فقالت . وقيل : قاتلت يرم بدر ولم تقاوم يوم الأحزاب وقيل : لم يقاوموا وإنما كانوا يكثرلون السواد، وينتصرون المؤمنين، وإلا فلنك واحد كاف في إهلاك أهل الدنيا كلهم (٢، ٤٠٠)

(١) تفسير المنار ج ٩ ص ٥٦٥

(٢) تفسير الكشف ج ٢ ص ٢٠١

ومئهم الذى يرى أن البحث فى تفاصيل أمثال هذه المسائل ، ليس من اللجد الذى هو طاع هذه العقيدة ، ومن هؤلاء صاحب د فى ظلال القرآن ، فقد قال ما ملخصه :

« تروى روايات كثيرة مفصلة عن الملائكة فى يوم بدر: عددهم وطريقة مشاركتهم فى المعركة . وما كانوا يقولونه للمؤمنين مثبتين ، وما كانوا يقولونه للمشركين مخذلين . ونحن - على طريقتنا فى الظلال - نكتفى فى مثل هذا الشأن من عوالم الغيب بما يرد فى النصوص المستقيمة من قرآن وأسنن ، والنصوص القرآنية هنا فيها الكفاية : إذ تستغنيون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة .. فهذا عددهم ، وإذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فنبتوا الذين آمنوا ... فهذا حملهم . ولا حاجة إلى التفصيل وراء هذا فإن فيه الكفاية . وحسبنا أن تعلم أن الله لم يترك العصبة المسلمة وحدها فى ذلك اليوم ، وهى قلة والاعداء كثرة ، وأن أمر هذه العصبة وأمر هذا الدين قد شارك فيه المألأ لإعلى مشاركة فعلية على النحو الذى يصفه الله سبحانه فى كتابه . . . إنا نؤمن بوجود خلق أسماهم الملائكة ، ولكننا لا نذكر من طبعتهم إلا ما أخبرنا به خالقهم عنهم . ملائكة من إدارك الكيفية التى اشتركوا بها فى نصرة المسلمين يوم بدر لإإعقدار ما يقرره النص القرآنى . وقد أوحى إليهم ربهم : أنى معكم . وأمرهم أن يثبتوا الذين آمنوا ففعلوا - لأنهم يفعلون ما يؤمرون - ولكننا لا ندرى كيف فعلوا . . . »

إن البحث التفصيلى فى كيفية هذه الأفعال كما ليس من اللجد الذى هو طابع هذه العقيدة . وطابع الحركة الواقعية بهذه العقيدة . ولكن هذه المباحث صارت من مباحث الفرق الإسلامية ومباحث علم الكلام فى العصور المتأخرة ، عندما مرغ الناس من الاهتمامات الإيجابية فى هذا الدين ، وتسلط الزيف العقلى على للنغوس والعقول . وإن وقفة أمام الدلالة الهائلة لمعية الله - سبحانه - للملائكة فى المعركة ، واشتراك الملائكة فيها مع العصبة المسلمة لى أضع وأجدى ... (١) .

تفسير فى ظلال القرآن ج ٩ ص ٨١٥ للمرحوم الأستاذ سيد قطب

وبعد فهذه أم الأقول التي قالها العلماء في مسألة وظيفة الملائكة في جدر ، بسطناها بشيء من التفصيل لتتضح آراؤهم فيها .

والذي نراه بعد كل ذلك : أن أقرب الأقوال إلى الصواب ، هو القول الذي ذهب أصحابه إلى أن الملائكة في بدر لم تقايل ، وإنما كانت وظيفةهم تثبيت ، وتقوية عزائم المؤمنين . . وذلك لما سبق أن بيناه من أدلة وحجج - والله أعلم بالصواب .

وبعد أن بين - سبحانه - بعض البشارات والنعم التي ساقها للمؤمنين الذين اشتركوا في بدر . وجه - سبحانه - فداء إلههم أمرهم فيه بالثبات في وجوه أعدائهم ، وذكرهم بجانب من منته عليهم .

فقال - تعالى - : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُوَلَّهُمْ يَوْمَئِذٍ دَرَبُهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقُنَالٍ أَوْ مَتَحِيزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَيُسَّ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْعًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

قوله - سبحانه - : زحفاً : مصدر زحف وأصله للصبي ، وهو أن يزحف على إسته قبل أن يمشى . ثم أطلق على الجيش الكثيف المتوجه لعدوه لأنه لكثرتة ومكاثفة يرى كأنه جسم واحد يزحف ببطء وإن كان سريع السير .

قال الجبل : وفي المصباح : زحف القوم زحفاً وزحوقاً . ويطلق على الجيش الكثير زحف تسمية بالمصدر والجمع زحوف مثل فلس وفلوس . ونصب قوله : زحفاً على أنه حال من المفعول وهو الذين كفروا ، أى إذا لقيتم الذين كفروا حال كونهم زاحفين نحوكم .

والآداب : جمع دبر - بضمين - وهو الخلف ، ومقابلة القبيل وهو الإمام ، ويطلق لفظ الدبر على الظهر وهو المراد هنا .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا باقوا إيماناً حقاً إذا لقيتم الذين كفروا . زاحفين نحوكم لقتالكم فلا تولوهم الآداب ، أى . فلا تفروا منهم ، ولا قولوهم ظهروكم منهزمين ، بل قابلوهم بقوة وغلظة وشجاعة ، فإن من شأن المؤمن أن يكور شجاعاً لا جباناً ، ومقبلاً غير مدبر .

فلراد من تولى الآداب : الانهزام ، لأن المنهزم يولى ظهره وفقاً لمن انهزم منه .

وعدل من لفظ الظهور إلى الآداب ، تقييهاً للانهزام ، وتنفيذاً منه ، لأن القبل والدبر يكتنى بهما عن السوءتين ثم بين - سبحانه - أن تولية الآداب محرمة إلا في حالتين فقال - تعالى - : ومن يولهم يومئذ دبره

إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة - فقد باء بغضب من الله ، وماواه جهمهم وبئس المصير ، .

وقوله : « متحرفا » من التحرف بمعنى الميل والانحراف من جهة إلى جهة بقصد المخادعة في القتال وهو منصوب على الحالية .

وقوله « أو متحيزاً إلى فئة » من التحيز بمعنى الانضمام . تقول : حوز الشيء أحوزه إذا ضمته إليك . وتحوزت الحية أى أنطوت على نفسها .

والفئة : الجماعة من الناس . سميت بذلك لرجوع بعضهم إلى بعض في التعاضد والتناصر . من الفىء بمعنى الرجوع إلى حالة محودة .

والمعنى : أن تولية الأدبار محرمة إلا في حالتين :

الحالة الأولى : أن يكون المؤمن عند توليته الأدبار ما فلا عن مكانه إلى مكان آخر أصلح للقتال فيه ، أو أن يكون منعظاً إلى قتال طائفة من الأدبار أهم من الطائفة التى أمامه ، أو أن يوم عدوه بأنه منهزم أمامه استدراجاً له ، ثم يكر عليه فيقتله .

الحالة الثانية : أن يكون في توليه منحاذاً إلى جماعة أخرى من الجيش ومنضمماً إليها للتملؤن معها على القتال ، حيث إنها في حاجة إليه .

وهذا كله من أبواب خدع الحرب ومكابدها .

وقد توعد - سبحانه - الذى يهزم أمام الأعداء في غير هاتين الحالتين بقوله : « فقد باء بغضب من الله وماواه جهمهم وبئس المصير » .

أى : ومن يول الكافرين يوم لقاءهم دبره غير متحرف ولا متميز فقد رجع ملتبساً بغضب شديد كائن من الله - تعالى - وماواه الذى يأوى إليه فى الآخرة جهمهم وبئس المصير همى .

وقوله : « فقد باء بغضب من الله .. » جواب الشرط أقوله ، ومن يولهم هذا ، ومن الأحكام التى أخفها العلماء من هاتين الآيتين ما يأتى :

١ - وجوب مصابرة العدو ، والثبات في وجهه عند القتال ، وتحريم الفرار منه . . قال الألوسى : « في الآية دلالة على تحريم الفرار من الزحف على غير المنحرف أو المتحيز . وخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة - رضى الله عنه - عن النبي - ﷺ - أنه قال : « اجتذوا السبع الموبقات - أى المهلكات - قالوا : يا رسول الله وما هن قال : الشرك بالله والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف - وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات . » ثم قال : وجاءه - التولى يوم الزحف - من الكبار فى غير ما حدث (١) .

٢ - أن الخطاب فى الآيتين لجميع المؤمنين وليس خاصاً بأهل بدر . قال الفخر الرازى ما ملخصه : اختلف المفسرون فى أن هذا الحكم - وهو تحريم التولى أمام الزحف - هل هو مختص بيوم بدر أو هو حاصل على الإطلاق ؟

فنقل عن أبى سعيد الخدرى والحسن وقتادة والضحاك أن هذا الحكم مختص بمن كان انهمز يوم بدر . قالوا : والسبب فى اختصاص بدر بهذا الحكم أن رسول الله - ﷺ - كان حاضراً يوم بدر .. وأنه - سبحانه - شدد الأمر على أهل بدر ؛ لأنه كان أول الجهاد ، ولو اتفق للمسلمين لإنهزام فيه لزم منه الخلل العظيم .

والقول الثانى : أن الحكم المذكور فى هذه الآية كان عاماً فى جميع الحروب بدليل أن قوله - تعالى - « يا أيها الذين آمنوا إذا قاتم الذين كفروا . . . » عام فيتناول جميع الصور . أقصى ما فى الباب أنه نزل فى واقعة بدر ، لكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، (٢) .

(١) تفسير الألوسى ج ٩ ص ١٢٨

(٢) ابن جرير ج ٩ ص ١٠٣

وهذا القول الثاني هو الذي نرجحه ، لأن ظاهر الآية يفيد العموم لكل المؤمنين في كل زمان ومكان ، ولأن سورة الأنفال كلها قد نزلت بعد الفراغ من غزوة بدر لا قبل الدخول فيها .

٣ - أن الآيتين محكمتان وليستا منسوختين . أى أن تحرير التولى يوم الزحف على غير المتحرف أو المتحيز ثابت لم ينسخ .

وقد رجح ذلك الإمام ابن جرير فقال ماملخصه : « سئل عطاء بن أبي رباح عن قوله « ومن يولهم يومئذ دبره » فقال : هذه الآية منسوخة بالآية التي في الأنفال بعد ذلك وهي قوله - تعالى - : « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين . . . » وليس لقوم أن يفروا من مثلهم .

وقال آخرون : بل هذه الآية حكمها عام في كل من ولى الدبر عن العدو منهزماً .

وأولى التأويلين بالصواب في هذه الآية عندي : قول من قال : حكمها محكم ، وأنها نزلت في أهل بدر . وحكمها ثابت في جميع المؤمنين . وأن الله حرم على المؤمنين إذا لقوا العدو أن يولوه الدبر منهزمين إلا لتحرف القتال ، أو التحيز إلى فئة من المؤمنين ؛ حيث كانت من أرض الإسلام ، وأن ولاهم الدبر بعد الزحف لقتال منهزماً - بغير نية إحدى . الخلتين التل أباح الله التولية بهما - فقد استوجب من الله وعيده ، إلا أن يفضل عليه بمفوه . وإنما قلنا : هي محكمة غير منسوخة ، لما قد بينا في غير موضع أنه لا يجوز أن يحكم لحكم آية بنسخ وله في غير النسخ وجه ، إلا بحجة يجب التسليم لها : من خير بقطع العذر ، أو حجة عقل ، ولا حجة من هذين المعنيين تدل على نسخ حكم قوله - تعالى - « ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال » أو متحيزاً إلى فئة ، فقد باء بغضب من الله ، (١) .

ثم بين لهم - سبحانه - بعض مظاهر فضله عليهم ليزدادوا شكراً له ،
وطاعة لأمره فقال - تعالى - : فلم تقتلوه ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ
رميت ولكن الله رمى ، وليبلى المؤمنين منه بلاء حسناً ، إن الله سميع عليم ،
قال القرطبي : قوله - تعالى - : فلم تقتلوه ولكن الله قتلهم ، أى يوم
بدر . روى أن أصحاب رسول الله - ﷺ - لما صدروا عن بدر .

ذكر كل واحد منهم ما فعل فقال : قتلنا كذا ، وأمرت كذا ، لجاء من
ذلك تفاخر ونحو ذلك . فنزلت الآية إعلاما بأن الله هو المميت والمقدر
لجميع الأشياء ، وأن العبد إنما يشارك بتكسيبه وقصده . . . (١) .

وقال ابن كثير : قال هلى بن طلحة عن ابن عباس : رفع رسول الله
- ﷺ - يديه - يعنى يوم بدر - فقال : يا رب إن نهلك هذه
العصابة فلن نعبد فى الأرض أبداً ، فقال جبريل : خذ قبضة من التراب
تأرم بها فى وجوههم ، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوههم ، فامن
المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخره وفه تراب من تلك القبضة فولوا
مدبرين .

وقال السدى : قال رسول الله - ﷺ - لعلى يوم بدر : أعطنى
حصصاً من الأرض ، فنأوله حصصاً عليه تراباً رمى به فى وجوه القوم ، فلم
يبق مشرك إلا دخل فى عينيه من ذلك الغراب شئ . ثم ردفهم المؤمنون
يقتلونهم ويأسرونهم ، وأزله الله : فلم تقتلوه ولكن الله قتلهم وما رميت
إذ رميت ولكن الله رمى . . .

وقال أبو معشر المدنى عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظى قالوا :
لما دنا القوم بعضهم من بعض أخذ رسول الله - ﷺ - قبضة من تراب
فرمى بها فى وجوه القوم وقال : شاهدت الوجوه ، فدخلت فى

تَأْمُرُهُمْ كَلِمَةً . وَأَقْبَلَ أَهْلُ حَبَابٍ رَمَى اللَّهَ - ﷺ - وَأَزَلَّ أَقْبَهُ . وَمَا
رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَسَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ، (١) .

وهناك روايات أخرى ذكرت أن قوله - تعالى - « وما رميت إذ
رميت ولكن الله رمى » المقصود به رمية - ﷺ - لآلئ بن خباب يوم
أحد - أو رمية السكفانة بن أبي الحقيق في غزوة خيبر ، أو رمية المشركين
في غزوة حنين .

ولسكن المحققين من العلماء ضعفوا هذه الروايات ، ورجحوا أن
المقصود بهذه الجملة ما فعله النبي - ﷺ - في بدر من رميه بالحصاف
وجوه المشركين ، لأن السورة تحكي أحداث غزوة بدر ، وغزوة بدر
كانت قيل أحد وخيبر وحنين . . .

قال ابن كثير : وقد روى في هذه القصة عن عروة ومجاهد وعكرمة
وقنادة وغير واحد من الأئمة أنها نزلت في رمية النبي - ﷺ - يوم
بدر . . . وسياق الآية في سورة الأنفال في قصة بدر لا محالة ، وهذا مما
لا يخفى على أئمة العلم ، .

والمعنى : إنكم - أيها المؤمنون - لم تقتلوا المشركين في بدر بقوتكم
وشجاعتكم ، ولكن الله - تعالى - هو الذي أظهركم بحوله وقوته ، بأن
خزلهم ، وقذف في قلوبهم الرعب ، وقوى قلوبكم ، وأمدكم بالملائكة ،
ومنهجكم من معرفته ورعايته ما بلغكم هذا النصر .

والفاء في قوله : « فلم تقتلوهم » . يرى صاحب الكشف أنها جواب
شرط محذوف تقديره : إن افتخرتم بقتلهم فأنتم لم تقتلوهم ، ولكن الله
قتلهم ، لأنه هو الذي أزل الملائكة ، وألقى الرعب في قلوبهم ، وشاء
النصر والظفر وأذهب عن قلوبكم الفزع والجورع .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٩٥ .

(ج ٦ - سورة الأنفال)

وقوله : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ، خطاب للنبي - ﷺ - بطريق التلوين .

أى : « وما رميت ، بالعرب في قلوب الأعداء » إذ رميت ، في وجوههم بالحصباء يوم بدر ، ولكن الله ، - تعالى - هو الذى رمى ، بالعرب في قلوبهم نفوسهم ونصركم عليهم .

أو المعنى : ما أوصلت الحصباء إلى أعينهم إذ رميتهم بها ، ولكن الله هو الذى أوصلها إليهم .

ورجم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الجملة الكريمة « يعنى أن الرمية التي رميتها - يا محمد - لم ترمها أنت على الحقيقة ، لأنك لو رميتها ما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر رمى البشر ، ولكنما كانت رمية الله ، حيث أثرت ذلك الأثر العظيم . فأثبت الرمية رسول الله - ﷺ - لأن صورتها وجدت منه . ونفاها عنه ، لأن أثرها الذى لا تطيقه البشر فعل الله - عز وجل - ، فكان الله - تعالى - هو فاعل الرمية على الحقيقة ، وكأنها لم توجد من الرسول - ﷺ - أصلاً (١) .

وقال الألوسى : استدل بالآية على أن أفعال العباد بخلقه - تعالى - وإنما لهم كسبها ومباشرتها وقال الإمام : أثبت - سبحانه - كونه - ﷺ - رامياً ، ونفى كونه رامياً ، فوجب حمله على أنه - ﷺ - رمى كسباً ، والله - تعالى - رمى خلقاً (٢) .

فإن قيل : لماذا ذكر مفعول القتل منفياً ومثبتاً ولم يذكر للرمى مفعول أقط ؟ فالجواب - كما يقول أبو السعود - : « أن المقصود الأصلي بيان حال الرمي نفيًا وإثباتًا ، إذ هو الذى ظهر منه ما ظهر ، وهو المنشأ لتغير المرمى به في نفسه وتكرره إلى حيث أصاب عيني كل واحد من أولئك الأمة الجمعة شئ من ذلك ، (٣)

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٠٧ (٢) تفسير الألوسى ج ٩ ص ٩٨٥

(٣) تفسير أبي السعود ج ٢ ص ٢٢٣

وقوله — سبحانه — : « وليبلى المؤمنين منه بلاء حسناً ، بيان لبعض وجهه حكمته — سبحانه — في خذلان الكافرين ، ونصر المؤمنين .

وقوله « ليبلى » من البلاء بمعنى الاختبار . وهو يكون بالنعمة لإظهار الشكر ، كما يكون بالمحنة لإظهار الصبر . والمراد به هنا : الإحسان والنعمة والعطاء ليزداد المؤمنون شكراً لربهم الذى وهبهم ما وهب من نعم .

واللام لتعليل متعلقة بمحذوف مؤخر .

والمعنى . ولكن يحسن — سبحانه — له عباده المؤمنين ، وينعم عليهم بالنصر والغنائم ؛ ليزدادوا شكراً له فعل ما فعل من خذلان الكافرين وإذلالهم .
وقوله « إن الله سميع عليم » ، تذييل قصد به الحث على طاعة الله ، والتحذير من معصيته ، أى : إن الله سميع لأقوالكم ودعائكم ، عليم بضمائركم وقلوبكم ، فاستبقوا الخيرات لتتألوا المزيد من رعايته ونصره .

ثم يقرر — سبحانه — سنة من سنته التى لا تتخلف ، وهى تقوية الحق وتوهين الباطل ، ويزداد المؤمنون إيماناً على إيمانهم ، وثباتاً على ثباتهم فيقول : « ذلكم وأن الله بهم كيد للكافرين » .

قال الإمام الرازى : قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو « موهن » ، بفتح الواو وتشديد الميم والنون . من التوهين . تقول وهنت الشيء أى ضعفته ، وكيد ، بالضم على المفعولين . وقرأ حفص عن عاصم « موهن كيد » ، بالإضافة . وقرأ الباقون « موهن » ، بالتخفيف ، — من أوهنته فأنا موهنه بمعنى أضعفته — وكيد ، بالضم وتوهين الله كيدهم ومكرهم يكون بأشياء منها : إطلاع المؤمنين على عوراتهم ، وإلقاء الرعب في قلوبهم ، وتفريق كلمتهم ، (١) واسم الإشارة « ذلكم » يعود إلى ما سبق من نعمة الإبلاء والقتل والرمى وغير ذلك من النعم . وهو مبتدأ وخبره محذوف ، وقوله : « وأن الله موهن ... » معطوف عليه .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١ ص ١٤١ .

المعنى : ذلكم الذي منعه إياكم من العطاء الحسن ، والفضل المشركين ، والإمداد بالملائكة ، وإزال الماء عليكم . [ذلكم كله نعم منى إليكم ، ويضاف إلى ذلك كله أنه - سبحانه - مضعف لكيد الكافرين ومفسد لمكرهم بكم .

قال ابن كثير : وهذه بقارة أخرى مع ما حصل من النصر ، فإنه أعلمهم بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل ، مصغر أمرهم ، وأهم في ثبات ودمار ، (١) وبعد أن ذكر - سبحانه - عباده المؤمنين بما حباهم به من من في غزوة بدر ، يستمروا على طاعتهم له ولرسوله ... أتبع ذلك بتوجيه الخطاب إلى الكافرين الذين حملهم الرسوخ في الكفر على أن يدعوا الله أن يجعل الدائرة في بدر على أضل الفريقين فقال - تعالى - : : إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ، وإن تنهوا فهو خير لكم ، وإن تعودوا نعد ، وإن تقنن عنكم فتكنم شيناً ولو كثرت ، وأن الله مع المؤمنين .

روى الإمام أحمد والنسائي والحاكم وصححه ، عن ثعلبة ، أن أبا جهل قال حين التقى القوم - في بدر - : اللهم أقطعنا للرحم ، وآثانا بما لا نعرفه ، فأجبه - أي فأهلكه - الغداة . فكان المستفتح (٢) .

وعن السدي أن المشركين حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا : اللهم انصر أهدى العبدتين ، وأكرم الفئتين ، وخير القبيلتين . فقال - تعالى - : : إن تستفتحوا ... الآية ، (٣) .

قال الراغب : وقوله : : إن تستفتحوا ... أي : إن طلبتم الظفر ، أو طلبتم الفتح أي الحكم ... والفتح إزالة الإغلاق والأشكال ... ويقال : فتح القضية فتاحاً . أي فصل الأمر فيها وأزال الإغلاق عنها . قال - تعالى - : : ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ، . والاستفتاح :

(١) و (٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٩٦ .

(٣) تفسير ابن جرير ج ٨ ص ٢٠٨ .

الاستنصار - أي طلب النصرة - قال - تعالى - « وكانوا من قبل يوسف يحون على الذين كفروا » . . . (١) .

والمنع : لأن تطلبوا الفتح أي : القضاء والفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين ، فقد جاءكم الفتح ، أي : فقد جاءكم الفصل والقضاء فيما طلبتم حيث حكم الله وقضى بينكم وبين المؤمنين ، بأن أهرم ونصرهم لأنهم على الحق ، وخذلكم وأذلكم لأنكم على الباطل .

فالتطاب مسوق للكافرين على سبيل الاتهام بهم ، والتوبيخ لهم ، حيث طلبوا من الله - تعالى - القضاء بينهم وبين المؤمنين ، والنصر عليهم ، فكان الأمر على عكس ما أرادوا حيث حكم الله فيهم بحكمه العادل وهو خذلهم لكفرهم وجحودهم ، وإعلاء كلمة المؤمنين ، لأنهم على الطريق القويم .

وقوله : « وإن تظاهروا فهو خير لكم ، أي : وإن تظاهروا من الكفر وعداوة الحق ، يكن هذا الانتهاء خيراً لكم من الكفر ومحاداة الحق .

وقوله : « وإن تمودوا تعد وإن نفى عنكم فنتكم شيئاً ولو كثرت . » تحذير لهم من التمداد في الباطل بعد ترغيبهم في الانقياد للحق .

أي : « وإن تمودوا ، إلى محاربة الرسول - ﷺ - والمؤمنين وعداوتهم » تعد ، عليكم بالهزيمة والذلة . وعلى المؤمنين بالنصر والعزة ، ولن تستطيع فتكم وجاعتكم - ولو كثرت - أن تدفع عنكم شيئاً من تلك الهزيمة وهذه الذلة ، فإن الذكوة والقوة لا وزن لها ولا قيمة إذا لم يكن الله مع أصحابها يهونه وتأييده .

وقوله : « وإن الله مع المؤمنين » تحذير قصد به تثبيت المؤمنين ، وإلقاء الطمأنينة في نفوسهم .

أي : « وإن الله مع المؤمنين يهونه وتأييده ، ومن كان الله معه فلن ينطبه تخالب بها بلغت قوته . »

قال الجمل : « قرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم بفتح هاء الله ، والباقون بكسر ها . فالفتح من أوجه : أحدها : أنه على لام العلة والمطل تقديره ، ولأن الله مع المؤمنين كان كيت وكيت . والثاني : أن التقدير : ولأن الله مع المؤمنين امتنع عنادهم . والثالث أنه خبر مبتدأ محذوف . أي : والامر أن الله مع المؤمنين .

والوجه الأخير يقرب في المعنى من قراءة الكسر لأنه استئناف (١) .
هذا وما جرينا عليه من أن الخطاب في قوله تعالى : « إن تستفحوا .. »
لامشركين هو رأى جمهور المفسرين .

ومنه من يرى أن الخطاب في الآية الكريمة للمؤمنين ، وعليه يكون المأمنى : « إن تستفحوا .. » أي تطلبوا - أيها المؤمنون - النصر على أعدائكم « فقد جاءكم الفتح ، أي : فقد جاءكم النصر من عند الله كما طلبتم .
« وإن تمسكوا ، أي عن المنازعة في أمر الأنفال ، وعن التكامل في طاعة الله ورسوله ، « فمؤ ، أي هذا الاتها . « خير لكم .. »

« وإن تمسكوا ، إلى المنازعات والتكامل « فمؤ ، عليكم بالإسكار ونهييغ الأعداء .

« وإن تغنى عنكم فئنتكم شيئاً ولو كثرت ، أي : وإن تغنى عنكم فئنتكم شيئاً مهما كثرت إن لم يكن الله معكم بنصره .

« وأن الله - تعالى - مع المؤمنين الصادقين في إيمانهم وطاعتهم له . والذي يبدو لنا أن كون الخطاب للكافرين أرجح ، لأن أسباب النزول تؤيده ، فقد سبق أن بينا أن الكافرين عند خروجهم إلى بدر تمسكوا باستار الكعبة وقالوا : اللهم انصر أهدى الجندين .. وأن أبا جهل قال حين التقى القوم :

اللهم! أينما أقطع للرحم . . . فأحنه الغداة . قال ابن جرير : فكان ذلك استغناحه ؛ فأزل الله في ذلك وإن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح . . . (١) . ولعل عما يرجع أن الخطاب في قوله - تعالى - : إن تستفتحوا . . . للكافرين ، أن بعض المفسرين - كابن جرير وابن كثير - ساروا في تفسيرهم الآية على ذلك ، وأمروا الرأى القائل بأن الخطاب للمؤمنين فلم يذكروه أصلاً أما صاحب الكشاف فقد ذكره بصيغة « وقيل » وصدر كلامه بكون الخطاب للكافرين فقال : قوله - تعالى - : : إن تستفتحوا . . . خطاب لأهل مكة على سبيل التذكير ، وذلك أنهم حين أرادوا أن ينفروا تعلقوا باستار الكعبة وقالوا : اللهم انصر أفرانا للهدف ، وأوصلنا للرحم ، وأفكنا للعاني . . . (٢) .

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة التي افتتحت ببدء المؤمنين ، قد أمرتهم بالثبات عند لقاء الأعداء . . وبينت لهم جوارب من مظاهر فضل الله عليهم ، ورعايته لهم . . ورغبت المشركين في الانتهاء عن شركهم وعن محاربتهم للحق ، وحذرتهم من العقاب في باطلهم وطغيانهم . . . وأخبرتهم في ختامها بأن الله - تعالى - مع المؤمنين بتأييده ونصره . ثم وجهت السورة الكريمة نداء ثانياً إلى المؤمنين ، أمرتهم بطاعة الله ورسوله ، ونهتهم عن التشبه بالكافرين وأمثالهم من المنافقين

فقال - تعالى - : يَأَيُّهَا الَّذِينَ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْرُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

(١) تفسير ابن جرير ج ٩ ص ٢٠٨

(٢) الكشاف ج ٢ ص ٢٠٨

والمنى ؛ يا أيها الذين آمنوا حق الإيمان ، أطيعوا الله ورسوله في كل
أحوالكم ، ولا تقولوا عنه ، أى ولا تعرضوا عنه ، فإن في إعراضكم عنه
خسارة عظيمة لكم في دنياكم وآخرتكم .

قال الألوسى : « وأعيد العدمير إليه — عنه — ، لأن المقصود طاعته ،
وذكر طاعة الله — تعالى — توطئة لطاعته ، وهى مستلزمة لطاعة الله —
تعالى — ، لأنه مبلغ عنه ، فكان الرجوع إليه — عنه — كالراجع
إلى الله — تعالى — ، (١) .

وقوله : « وأتم تسمعون » بحالة مستوفدة لتأكيد وجوب الانتهاء
عن التولى مطلقا ، لا لتقييد النهى عنه بحال السماع .

أى أطيعوا الله ورسوله — أيها المؤمنون — ولا تقولوا عنه والحال أنكم
تسمعون القرآن للناطق بوجوب طاعته ، والمواظظ الزاجرة عن مخالفته .
وقوله : « ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون » تأكيد لما قبله ،
ونهى لهم عن التشبه بالاضالين .

أى أطيعوا الله ورسوله في كل أحوالكم عن إخلاص وإذعان ،
ولا تقصروا في ذلك في وقت من الأوقات ، وإياكم أن تنشبوا بأولئك
الكافرين والمنافقين الذين ادعوا السماع فقالوا سمعنا ، والحال أنهم لم يسمعوا
سماع تدبر والتعاظ ، لأنهم لم يصدقوا ما سمعوه ، ولم يتأثروا به . بل نبذوه
وراء ظهورهم .

فالمنى في قوله — تعالى — « وهم لا يسمعون » سماع خاص ، وهو سماع
التدبر والاتعاظ ، لكنه جىء به على سبيل الإطلاق ، للإشعار بأنهم قد
نزلوا منزلة من لم يسمع أصلا ، يجعل سماعهم بمنزلة العدم ، حيث أنه سماع
لا وزن له ، ولا فائدة لهم من ورائه ، مع أنهم لو فتحوا آذانهم وقلوبهم
لحقوا لاستفادوا ، ولكنهم آثروا المنى على الهدى .

ثم وصف - سبحانه - الكفار والمنافقين وأهباهم وصفاً يحمل العقلاء على النفور منهم ، فقال - تعالى - : « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون . . . » .

والدواب : جمع دابة وهي كل ما يدب على الأرض . قال - تعالى - : « وألق خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ، ومنهم من يمشي على رجلين ، ومنهم من يمشي على أربع . . . » (١) .

قال الجمل : « وإطلاق الدابة على الإنسان لما ذكره في كتب اللغة من أنها تطلق على كل حيوان ولو آدمياً ، وفي المصباح : الدابة كل حيوان في الأرض مهنراً أو غير مهنر ، » (٢) وقد روى أن هذه الآية نزلت في نفر من بنى عبد الدار كانوا يقولون : نحن صم بكم عما جاء به محمد ، فقتلوا جميعاً يوم بدر . وهذا لا يمنع أن الآية الكريمة يشمل حكمها جميع المشركين والمنافقين ، إذ العبارة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .

والمعنى : إن شر ما يدب على الأرض عند الله ، أى : في حكمه وقضائه ، هم أولئك الصم ، عن سماع الحق والبكم ، عن النطق به والذين لا يعقلون ، أى لا يعقلون التمييز بينه وبين الباطل .

ووصفهم - سبحانه - بذلك مع أنهم يسمعون وينطقون ، لأنهم ينفذوا بهمة الحواس ، بل استعملوها فيما يضرون ويؤذي ، فكان وجودها فيهم كعدمها . وقدم الصم على البكم ، لأن صممهم عن سماع الحق متقدم على بكمهم فإن السكرت عن النطق بالحق من فروع عدم سماعهم له ، كما أن النطق به من فروع سماعه .

وقوله « الذين لا يعقلون » ، تضييق لكان - وه حالهم ، لأن الأصم الأبكم

(١) - سورة النور الآية ٤٥

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ص ٢ ص ٢٢٦ .

فإذا كان له عقل ربما فهم بعض الأمور . أما إذا كان بجانب صممة وبكمه فاقد العقل ، فإنه في هذه الحالة يكون قد بلغ الغاية في سوء الحال .

قال صاحب المنار : وقوله : «الفين لا يعقلون» أى : فقدوا فضيلة العقل الذى يميز بين الحق والباطل والخير والشر ، إذ لو عقلوا لطلبوا ، ولو طلبوا لسمعوا وميزوا ، ولو سمعوا لخطوا ريتوا ، وتذكروا وذكروا . فهم لفقدوا منفعة العقل والسمع والنطق صاروا كالفقدين لهذه المشاعر والقوى . بل هم شر من ذلك لأنهم أعطيت لهم المشاعر والقوى فأفسدوها على أنفسهم لعدم استعمالها فيما خلقها الله لأجله ، فهم كما قال الشاعر :

خلقوا ، وما خلقوا المكرمة فكأنهم خلقوا وما خلقوا

رزقوا وما رزقوا سماح يد فكأنهم رزقوا وما رزقوا

ولم يصفهم هنا بالعمى كما وصفهم في آية الأعراف وآتى البقرة ، لأن المقام هنا مقام تعريض بالذين رهبوا دهوة الإسلام ، ولم يهتدوا بسماع آيات القرآن ، (١) .

وقوله - تعالى - «ولو علم الله فيهم خيرا لسمعهم . . .» بيان لما جبلوا عليه من إثارة الفى على الرشد ، والضلالة على الهداية .

أى : ولو علم الله - تعالى - في هؤلاء الصم البكم خيرا ، أى : استعدادا للإيمان ورغبة فيما يصلح نفوسهم وقلوبهم «لسمعهم» سماع تفهم وتدبر ، أى : لجعلهم سامعين للحق ، ومستجيبين له ، وليكنه - سبحانه - لم يعلم فيهم شيئا من ذلك ، فحجب خيره عنهم بسبب سوء استعدادهم .

ولذا قال - تعالى - بعد ذلك : «ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون» أى : ولو أسمعهم سماع تفهم وتدبر ، وهم على هذه الحالة العارضة من كل خير لتولوا عما سمعوه من الحق وهم معرضون ، عن قبوله جمودا وعنادا . قال الفخر الرازى : قوله - تعالى - «ولو علم الله فيهم خيرا لسمعهم

حول أسماعهم اتولوا وهم معرضون، أى : أن كل ما كان حاصلًا ، فإنه يجب أن يعلمه الله ، فعدم علم الله بوجوده من لوازم عدمه ، فلا جرم حسن التصدير من عدمه في نفسه بعدم علم الله بوجوده ، وتقرير الكلام : لو حصل فيهم خيراً لأسمعهم الله الحجج والمواظظ سماع تعليم وفهم ، ولو أسمعوهم بعد أن علم أنه لاخير فيهم لم ينتفعوا بها ، واتولوا وهم معرضون ، (١) .
ثم وجه - سبحانه - إلى المؤمنين فداء ثالثاً أمرهم فيه بالاستجابة لتعاليمه ، وحذرهم من الأقوال والأعمال التي تكون سبباً في هزأهم ، وذكرهم بحجاب من منته عليهم ، فقال - تعالى - :

يٰۤأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ۚ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ يُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾
وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعِفُونَ فِي الْأَرْضِ
تَخَافُونَ أَن يَخْطِفَكُمْ النَّاسُ فَعَاوَنَكُمْ وَأَيْدِيكُمْ يُنْصِرُهُ ۚ وَرَزَقَكُمْ
مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

قال القرطبي : قوله - تعالى - : يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله
والرسول . . . هذا الخطاب للمؤمنين المصدقين بلا خلاف ، والاستجابة :
الإجابة . . . قال الشاعر :

وداع دعا يامن يجيب إلى الندى فلم يستجيبه عند ذلك مجيب (٢)
أى : فلم يجبه عند ذلك مجيب .

(١) تفسير الفخر الرازي ٥ ص ١١٤

(٢) القرطبي ٧ ص ٣٨٩

وكان الإمام القرطبي يرى أن السين والتاء في قوله: «استجيبوا» واثنان -
واعلم الأحسن من ذلك أن تكون السين والتاء للطلب، لأن الاستجابة
في الإجابة بنشاط وحسن استعداد.

وقوله: «لما يحييكم، أي لما يصلحكم من أعمال البر والخير والطاعة، التي
وصلكم متى تمسكن بها إلى الحياة الكريمة الطيبة في الدنيا، وإلى السعادة
لتي ليس بعدها سعادة في الآخرة.

وهذا المعنى الذي ذكرناه لقوله: «لما يحييكم»، أدق مما ذكره بعضهم من
أن المراد بما يحييهم القرآن، أو الجهاد، أو العلم... إلخ.
وذلك، لأن أعمال البر والخير والطاعة تفعل كل هذا.

والمعنى: «يا أيها الذين آمنوا، بالله حق الإيمان، «استجيبوا لله وللرسول»
من طوعية واختيار، ونشاط وحسن استعداد إذا دعاكم، الرسول -
صلى الله عليه وسلم - «لما يحييكم، أي: إلى ما يصلح أحوالكم، ويرفع
درجاتكم، من الأقوال النافعة، والأعمال الحسنة، التي بالتفعل بها تصيرون
حياة طيبة، وتظفرون بالسعادات في الدنيوية والآخروية.

والضمير في قوله: «دعاكم»، يعود إلى الرسول الله - صلى الله عليه وسلم -
لأنه هو المباشر للدعوة إلى الله، ولأن في الاستجابة له لمستجابة لله - تعالى -
قال - سبحانه - : «من بطع الرسول فقد أعطى الله، ومن قولى فله
أرسلناك عليهم حفيظاً» (١).

وقوله: «واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه» تخيير لهم من الغفلة
عن ذكر الله، وبعث لهم على مواصلة الطاعة له - سبحانه - .
وقوله: «يحول» من الحول بين الشيء والشيء، بمعنى المحذور والفصل بينهما.
قال الراغب: أصل الحول تنفير الشيء وانفصاله عن غيره، وباحتبار.

التغيير قبل حال الشيء . يحول حوولا واستحال تنهياً لأن يحول ، وباعتبار
الانفصال قبل حال الشيء وبينك كذا . . . أى فصل . . . (١)

هذا ، والمفسرين فى معنى هذه الجملة الكريمة أقوال متعددة أهمها قولان :
أما القول الأول فهو أن المراد بالحيلة بين المرء وقلبه - كما يقول
ابن جرير - : أنه - سبحانه - أملك لقلوب عباده منهم ، وأنه يحول بينهم
وبينها إذا شاء ، حتى لا يقدر ذو قلب أن يدرك شيئاً من إيمان أو كفر ،
أو أن يمس به شيئاً ، أو أن يفهم إلا بإذنه ومشيدته ، وذلك أن الحول بين
الشيء والشيء إنما هو الحجز بينهما ، وإذا حجز - جل ثناؤه - بين عبد
وقلبه فى شيء أن يدركه أو يفهمه ، لم يكن للعبد إلى إدراك ما قد منع الله قلبه
إدراكه سبيل ، وإذا كان ذلك معناه دخل فى ذلك قول من قال : يحول بين
المؤمن والكافر ، وبين الكافر والإيمان .

وقول من قال : يحول بينه وبين عقله . وقول من قال : يحول بينه وبين
قلبه حتى لا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه . . . فالخبر على العموم
حتى يخصصه ما يجب التسليم له ، (٢) وقد رجح ابن جرير هذا القول بعد
أن ذكر قبله بعض الأقوال الأخرى .

وقال ابن كثير - بعد أن لخص القول الذى رجحه ابن جرير - : وقد
وردت الأحاديث عن رسول الله - ﷺ - بما يناسب هذه الآية ، ومن
ذلك ما رواه الإمام أحمد والترمذى عن أنس بن مالك قال : كان النبى
- ﷺ - يكفر أن يقول : يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك ، . . .
قال قلنا : يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا ؟ قال :
نعم ، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله - تعالى - بقلوبنا . . .

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أنه سمع رسول الله - ﷺ -
يقول : إن قلوب بنى آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد ،

يصرفها كيف شاء ، ثم قال رسول الله - ﷺ - : « اللهم يا مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك » .

وروى : الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه عن النّواسة بن سمعان الكلّابي قال : سمعت النبي - ﷺ - يقول : ما من قلب إلا وهو بين لصبي من أصابع الرحمن رب العالمين ، إذا شاء أن يقيمه أقامه ، وإذا شاء أن يزيفه ألقاه ، (١) .

أما القول الثاني فهو أن المراد بالحيلة بين المرء وقلبه - كما يقول الهمخشري - « أنه - سبحانه - يمت المرء فتفرقه للفرصة التي هو واجدها ، وهي التمكن من إخلاص القلب ومعالجة أدوائه وعلاؤه ، وردده سليماً كما يريد الله ، فاعتنموا هذه الفرصة ، وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله ورسوله ، (٢) . أو - كما يقول الفخر الرازي - بعبارة أوضح : « أن المراد أنه - تعالى - يحول بين المرء وبين ما يمتناه ويريد به بقلبه ، فإن الأجل يحول دون الأمل . فكانه قال : بأدروا إلى الأعمال الصالحة ولا تعتمدوا على ما يقع في قلوبكم من توقع طول البقاء ، فإن ذلك غير موقوف به . وإنما حسن إطلاق لفظ القلب على الآمال الحاصلة في القلب ، لأن تسمية الشيء باسم ظرفه جائزة كقولهم : سأل الوادي ، (٣) .

والذي نراه أن القول الثاني أولى بالقبول ، لأن الآية الكريمة ساقتنا لحض المؤمنين على سرعة الاستجابة للحق الذي دعاهم إليه رسولهم ﷺ والذي أتباعه يحيون حياة طيبة . وقد كبرهم بيوم الحساب وما فيه من ثواب وعقاب ، كما قال - تعالى - في ختامها « وأنه إليه تحشرون » .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢١٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٩٨ - باختصار يدير -

(٣) تفسير الفخر الرازي ج ١٥ ص ١٤٨ - وقد ذكر (بضمه) أقوال

غير هذا القول فراجع إن شئت .

وليس مسوقة لإثبات قدرة الله ، وأنه أملك القلوب عباده منهم : وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء .

فالمعنى الذى ذكره ابن جرير - وتابعه عليه ابن كثير وغيره ، معنى وجبه فى ذاته ، إذ لا يتكر أحد أن الله مقلب القلوب ومالكها . . . ولكن ليس مناسباً هنا مناسبة المعنى الذى ذكره الزمخشري والرازي ، لأن الآية التى معنا والتى بعدها صريحتان فى دعوة المؤمنين إلى الاستجابة للحق قبل أن يفاجئهم الموت ، وقبل أن تحمل بهم مصيبة لا تصيب الظالمين منهم خاصة . والمعنى الإجمالى للآية الكريمة دأبها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول ، بمنزلة صادقة ، وسرعة فائقة ، « إذا دعاكم ، الرسول - صلى الله عليه وسلم - لما يحْيِيكم ، أي لما به يحيون حياة طيبة من الأموال والأعمال الصالحة وادخلوا علماء يقينا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، أي يحول بين المرء وبين ما يتمناه قلبه من شهوات الدنيا ومنعها ، فكم من إنسان يؤمل أنه سيفعل كذا فدا ، وسيجمع كذا فى المستقبل ، وسيحصل على كذا قريباً . . ثم يحول الموت ويفصل بينه وبين آمله وأمانيه . . فبادورا إلى اغتنام الأعمال الصالحة من قبل أن يفاجئكم الموت .

وقوله : « وأنه إليه تحشرون » تذييل قصده تذكيرهم بأحوال يوم القيامة . والضمير فى قوله « وأنه » يعود إلى الله - تعالى - أو هو ضمير الشأن . أى : « وأنه - سبحانه - إليه وحده ترجعون لا إلى غيره ، فيحاسبكم على ما قدمتم وما أخرتم ، ويجازي كل إنسان بما يستحقه من خير أو شر .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد جمعت بين الترغيب . فى العمل الصالح بسرعة ونشاط ، وبين الترهيب من التكاثر والتفكك عن طاعة الله .

ثم يؤكد - سبحانه - بعد ذلك ترهيبه لهم من القرائن فى تغيير المنكر فيقول : « واقفوا فتنه لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب ، والفتنة : من الفتن . وأصله - كما يقول الراغب - : إدخال الذهب النار لتظهر جودته من وادته . واستعمل فى إدخال الإنسان النار

كافى قوله - تعالى - « فذوقوا فتنكم ، أى : هذاكم ، وتارة يسمون
 ما يحصل عنه العذاب فتنه فيستعمل فيه نحو قوله - تعالى - : « ألا في الفتنه
 سقطوا » ، وتارة في الاختبار نحو قوله - تعالى - « وفتنك فتناً » (١) .
 والمراد بالفتنة هنا العذاب الدنيوى ، كالأمراض ، والقحط ،
 واضطراب الأحوال ، وتساط الظلمة ، وعدم الأمان .. وغير ذلك من المحن
 والمصائب والآلام التى تنزل بالناس بسبب غيبياتهم الذنوب ، وإفراهم
 المنكرات ، والمداينة فى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ..
 والخطاب لجميع المؤمنين فى كل زمان ومكان .

فالمعنى : « أوامر أيتها المؤمنون على طاعة الله بقوة ونشاط ، واحذروا
 من أن ينزل بكم عذاباً سيعم عند نزوله الأخيار والفجار والمحسنين والمسيئين .
 وقوله ، « واعلموا أن الله شديد العقاب » ، المراد منه الحث على لزوم
 الاستقامة خوفاً من عقاب الله - تعالى - .

أى : « واعلموا أن الله شديد العقاب لمن خالف أمره ، وإنه لك حرمانه .
 قال صاحب التفسير : وقوله « لا نصيبين » لا يخلو من أن يكون
 جواباً للأمر ، أو نهياً بعد أمر ، أو صفة افتنة .

فإذا كان جواباً فالمعنى : « إن أصابكم لا نصيب الظالمين منكم خاصة
 ولكننا نعممكم ... وإذا كانت نهياً بعد أمر فكأنه قيل : واحذروا ذنباً
 أو عقاباً ، ثم قيل : لا تعرضوا للظلم فيصيب العقاب أو أثر الذنب وبإله
 الجميع وليس - من ظلم منكم خاصة .

فإن قلت : كيف جاز دخول النون المؤكدة فى جواب الأمر ؟

قلت : لأن فيه معنى للنهي - ومتى كان كذلك جاز إدخال النون المؤكدة -

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ٣٧١ مرآة الراغب الأصفهاني .

كما إذا قلت : إنزل عن الدابة لا تطرحك أو لا تطرحك، ومنه قوله تعالى :
 « يا أيها الملأ ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده » (١) .
 وقوله « خاصة » منصوب على الحال من الفاعل المستكن في قوله
 « لا نصيب » . ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف . والتقدير :
 إصابة خاصة .

هذا ، وقد دلت الآية الكريمة على وجوب الإفلاخ عن المعاصي ،
 ووجوب محاربة مرتكبيها ، فإن الأمة التي تشيع فيها المعاصي والمظالم
 والمنكرات . . . ثم لا نجد من يهاجها ويعمل على إلزائها ، تستحق العقوبة
 جزاء سكوتها واستغفائها وجبها . .

وقد ذكر بعض المفسرين أن هذه الآية الكريمة نزلت في حق بعض
 الصحابة الذين اشتهر كوا في واقعة الجبل فيها بعد . . .

ولكن هذا القول لا تستسيغه ولا تؤيده ؛ لأن الآية الكريمة
 مخاطبة المؤمنين جميعاً في كل زمان ومكان . وأمرهم بالبعد عن المعاصي
 والمنكرات التي تفضي بهم إلى العذاب الدنيوي قبل الآخروي . وليست
 خاصة بفريق دون فريق .

لذا قال ابن كثير : والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم هو
 الصحيح ، ويدل عليه الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن .
 ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن عدي بن عتبة قال : سمعت
 رسول الله - ﷺ - يقول : « إن الله - تعالى - لا يهذب العامة
 بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظمرائهم وهم قادرون على أن ينكروه ،
 فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة .

(١) تفسير السكشاف ج ٣ ص ٢١١ - بتصرف يسير -

وروى الإمام أحمد أيضاً عن جرير بن عبد الله أن رسول الله - ﷺ - قال :
« ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي وهم أهدوا أكثر من يملكون ، ثم لم ينجهم الله ،
إلا عنهم الله بعقاب » (١) .

وقال الإمام القرطبي : قال ابن عباس : أمر الله المؤمنين ألا يقرؤا
المنكر بين أظهرهم فيمهمم العذاب . .

وفي صحيح مسلم عن زينب جحش أنها سألت رسول الله - ﷺ -
فقلت له : يا رسول الله ، أئتملك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم إذا
كثر الخبث » .

وفي صحيح الترمذي : « إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه ،
أو شك أن يعصم الله بعقاب من عنده » .

وفي صحيح البخاري والترمذي عن النعمان بن بشير عن النبي - ﷺ -
قال : مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا - أي
اقترعوا - على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين
في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا في
صدعينا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ، فإن يتركم وهم وما أروا داهلكوا جميعاً ،
وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً .

وفي هذا الحديث تعذيب العامة بذنوب الخاصة .

قال علماؤنا : فالفتنة إذا عمت هلك الكل وذلك عند ظهور المعاصي ،
وانتشار المنكر وعدم التغيير . وإذا لم تغير وجب على المؤمنين المنكرين
لها بقلوبهم هجران تلك البلدة والحرب منها . . .

روى ابن وهب عن مالك قال : نهجر الأرض التي يصنع فيها المنكر
بجوارها ولا يستقر فيها .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٩٩ - وهناك أحاديث أخرى ذكرها
في هذا فراجعها إن شئت .

واحج بصنيع أبي الدرداء في خروجه عن أرض معاوية حين أعلن بالربا ، فأجاز بيع سقاية الذهب بأكثر من وزنها . . .

فإن قيل : فقد قال الله تعالى : ولا تزر وازرة وز أخرى ، ، وكل نفس بما كسبت رهينة ، ، وهذا يوجب ألا يؤخذ أحد بذنب أحد ، وإنما يتعلق العقوبة بصاحب الذنب ؟

فالجواب | أن الناس إذا نظاهروا بالمنكر فن الفرض على كل من رآه أن يغيره ، فإذا سكنت عليه فكلام خاص ، هذا بفعله وهذا برضاه . وقد جعل الله في حكمه الراضى بمنزلة العامل ، فانتظم في العقوبة ، (١) .

وقال بعض العلماء : وذكر القسطلاني ، أن علامة الرضا بالمنكر عدم التألم من الخلل الذي يقع في الدين بفعل المعاصي ، فلا يتحقق كون الإنسان كارجاه ، إلا إذا تألم للخلل الذي يقع في الدين ، كما يتألم ويتوجع لفقد ماله أو ولده . فكل من لم يكن بهذه الحالة ، فهو راض بالمنكر ، فتممه العقوبة والمصيبة بهذا الاعتبار ، (٢) .

وبعد أن أمر - سبحانه - المؤمنين بالاستجابة له ونهاهم عن الوقوع في المعاصي . . أخذ في تكريم بجانب من فضله عليهم فقال : واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس
أى : واذكروا ، يا معشر المؤمنين ، إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض أى : وقت أن كنتم قلة مستضعفة في أرض مكة تحت أيدي كفار قريش ، أو في أرض الجزيرة العربية حيث كانت الدولة أظيركم من الفرس والروم .
وقوله : تخافون أن يتخطفكم الناس ، أى : تخافون أن يأخذكم أعداؤكم أخذاً سريعاً . أقونهم وضعفكم . يقال خطفه يخطفه . من باب تعب - أى : استلبه بسرعة .

(١) تفسير القرطبي ج ٧ ص ٢٩١ .

(٢) تفسير القاسمي ج ٨ ص ٢٩٧٧ .

والمراد بالنفكر في قوله : « اذكروا » ، أن يذنبوا بعقولهم وقلوبهم إلى نعم الله ، وأن يداوموا على شكرها حتى يزدحم - سبحانه - من فضله .
و « اذ » ظرف بمعنى وقت . و « أنتم » مبتدأ ، أخبر منه بثلاثة أخبار بعده وهي : قليل ، ومستضعفون ، وتخافون .

والمراد بالناس : كفار قريش ، أوهم وغـيـرهم من كفار العرب ، والفـرس والروم .

وقوله : « فأواكم وأبدكم بنصره ورزقكم من الطيبات . » بيان لما من به عليهم من نعم بعد أن كانوا محرومين منها :

أى : اذكروا وقت أن كنتم قلة ضعيفة مستضعفة تخشى . أن يأخذها أعداؤها أخذاً مريباً ، فرفع الله عنكم بفضله هذه الحال ، وأبدلكم خيراً منها ، بأن آراكم ، إلى المدينة ، وألف بين قلوبكم بامعشر المهاجرين والأنصار . « وأبدكم بنصره » ، في غزوة بدر ، وقذف في قلوب أعدائكم الرعب منكم « ورزقكم من الطيبات » ، أى : ورزقكم من الغنائم التي أحلها لكم بعد أن كانت محرمة على الذين من قبلكم . كما رزقكم - أيضاً - بكثير من المطاعم والمشارب الطيبة التي لم تكن متوفرة لكم قبل ذلك .

وقوله « لعابكم تشكرون » ، تذييل قصد به حضهم على مداومة الشكر والطاعة لله - عز وجل - أى : نفعكم الله - تعالى - من الشدة إلى الرخاء ، ومن القلة إلى الكثرة ، ومن الضعف إلى القوة ، ومن الخوف إلى الأمن ، ومن الفقر إلى الغنى . حتى تستمروا على طاعة الله وشكره ، ولا يشغلهم من ذلك أى شاغل .

قال ابن جرير : قال قتادة في قوله - تعالى - « اذكروا » اذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض . . .

« كان هذا الحى من العرب أذل الناس ذلاً ، وأشقاه هيباً ، وأجرعه »

بطونا ، وأهراء جلودا ، وأبينه ضللا ، من عاش منهم عاش شقيا ، ومن مات منهم ردى في النار ، يؤكلون ولا يأكلون ، والله ما تعلم قبيلنا من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشمر منهم منزلا ، حتى جاء الله بالإسلام ، فكان به في البلاد ، ووسع به في الرزق ، وجمع لكم به ملوكا على رقاب الناس . فبالإسلام أعطى الله ما رأيتم ، فاشكروا الله على نعمه ، فإن ربكم منعم بعب الشكر ، وأهل الشكر في مزيد من الله - تعالى - (١) .

وبذلك يرى أن هذه الآيات الثلاثة قد جمعت بين الترغيب والترهيب والتحذير ... الترغيب كما في قوله - تعالى - : «يأيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول ...»

والترهيب كما في قوله - تعالى - : «واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ...»

والتذكير كما في قوله - تعالى - : «واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض ...»

وبالترغيب في الطاعات ، وبالترهيب من المعاصي ، وبالتذكير بالنعم ، بنجح الدعاة في دعوتهم إلى الله .

ثم وجه - سبحانه - بعد ذلك نداء رابعا وخامسا إلى المؤمنين فقال :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا

اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّ

أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَشَقُّوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ

وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

روى المفسرون في سبب نزول قوله - تعالى - : يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا ، روايات منها :

ما جاء عن ابن عباس من أنها نزلت في أبي لبابة حين بعثه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى بني قريظة فقالوا له : يا أبا لبابة ما ترى ؟ أنزل هل حكم سعد بن معاذ فينا ؟ فأشار أبو لبابة إلى حلقه . أي أن حكم سعد فيكم سيكون الذبح فلا تنزلوا .

قال أبو لبابة : والله ما زالت قدماي - عن مكانهما - حتى علمت أني قد خنت الله ورسوله . . .

ومنها ما جاء عن جابر بن عبد الله من أنها نزلت في منافق كتب إلى أبي سفيان يطلبه على سر من أسرار المسلمين .

ومنها ما جاء عن السدي من أنها نزلت في قوم كانوا يسمعون الشيء من النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم يحدثون به المشركين . (١) .

قال ابن كثير : والصحيح أن الآية عامة وإن صح أنها وردت على سبب خاص ؛ فإن الآخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب هو المعتمد عند المجاهير من العلماء .

وقوله « لا تخونوا » من الخون بمعنى النقص . يقال خونه تخويناً أي : نسبه إلى الخيانة ونقصه .

قال صاحب الكشف : معنى الخون : النقص . كأن معنى الوفاء التمام . ومنه تخونه إذا تنقصه ، ثم استعمل في ضد الأمانة والوفاء ؛ لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان فيه . وقد استعمل ف قيل : خان الدلو الكرب - والكرب حبل يشد في رأس الدلو - وخان المشتار السبب - والمشتار مجئى المسل والسبب الحبل - لأنه إذا انقطع به فسكاته لم يفله (٢)

(١) راجع تفسير ابن جرير ج ٩ ص ٢٢١ . وتفسير الفخر الرازي

ص ١٥١ ابن كثير ج ٢ ص ٣٠٠ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢١٣ .

والمقصود بخيانة الله : ترك فرائضه وأوامره التي كلف العباد بها ،
سواء أهلك حرما له التي نهى عن الاقتراب منها .

والمقصود بخيانة الرسول - ﷺ - : إهمال سنته التي جاء بها
وأمرنا بالتقيد بتعاليمها .

المقصود بالآمانات : الأسرار والعهود والودائع وغير ذلك من الشؤون
التي تكون بينهم وبين غيرهم مما يجب أن يمان ويحفظ .

والمعنى : « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله ، بأن تهملوا فرائضه ،
وتتعدوا حدوده ، ولا تخونوا الرسول ، ﷺ ، بأن تتركوا سنته
وتنصرفوا إلى غيرها ، وتخالفوا ما أمركم به وتحترحوا ما نهاكم عنه ،
ولا تخونوا آماناتكم ، بأن تفشوا الأسرار التي بينكم ، وتفضوا العهود
التي تعاهدتم على الوفاء بها ، وتذكروا الودائع التي أودعها لديكم غيركم ،
وتستليحوا ما يجب حفظه من سائر الحقوق المادية والمعنوية ، فقله :
« وتخونوا آماناتكم ، معطوف على قوله « لا تخونوا » .

وأعاد النهي للإشعار بأن كل واحد من المنهي عنه مقصود بذاته اهتماما به .
وقوله : « وأتم تعلمون ، الواو للحال ، والمفعول محذوف . أي . والحال
أنكم تعلمون سوء عاقبة الخائن لله ورسوله والآفات التي انتمن عليها ،
فعليناكم أن تتجنبوا الخيانة في جميع صورها ، لتتألوا رضى الله ومثوبته .
ولما كان حب الأموال والأولاد والاشتغال بهم من أهم دواعي
الاقدام على الخيانة ، فبه - سبحانه - إلى ذلك فقال : « وأعلموا إنما
أمرناكم وأولادكم فتنه ، وأن الله عنده أجر عظيم » .

أي : وأعلموا - أيها المؤمنون - إنما أموالكم وأولادكم فتنه ، أي امتحان
واختبار لكم من الله - تعالى - ، ليتبين قوى الإيمان من ضعفه .

أما قوى الإيمان فلا يشغله ماله وولده عن طاعة الله ، وأما ضعيف الإيمان

فيعتدله ذلك من طاعة الله ، ويجعله يعيش حياته عبداً لما له ، ومطيعاً لمطالب أولاده حتى ولو كانت هذه الطاعة متناقضة مع تعاليم دينه وآدابه .

وقال صاحب المنار : الفتنة هي الاختبار والامتحان بما يشق على النفس فعله أو تركه ، أو قبوله أو إنكاره . .

وأموال الإنسان عليها مدار حياته ، وتحصيل رغائبه وشهواته ، ودفع كثير من المنكر عنه ، فهو يتكلف في طلبها المشاق ، ويركب الصعاب ، ويكلفه الشرع فيها التزام الحلال واجتناب الحرام ، ويرغبه في القصد الاعتدال في إنفاقها . .

وأما الأولاد فخيمهم — كما يقول الأستاذ الأمام — ضرب من الجنون . يلقيه الفاطر الحكيم في قلوب الأمهات والآباء ، فيحملهم على بذل كل ما يستطيع بذله في سبيلهم . .

روى أبو ليلى من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً : الولد ثمرة القلب ، وإنه مجبنة مبخلة محزنة ، لحب الولد قد يحمل الوالد على اقتراف الآثام ، وعلى الجبن ، وعلى البخل ، وعلى الحزن . .

فالواجب على المؤمن اتقاء خطر الفتنة الأولى بكسب المال من وجوهه الحلال ، وإنفاقه في وجوهه المشروعة . . واتقاء خطر الفتنة الثانية باتباع ما أوجبه الله على الآباء من حسن تربيته الأولاد على الدين والفضائل ، وتجنبهم أسباب المعاصي والردائل ، (١) .

وقوله : وإن الله عنده أجر عظيم ، تذييل قصد به ترغيب المؤمنين في طاعة الله ، بعد أن حذرهم من فتنة المال والولد .

أي : وأعلموا أن الله عنده أجر عظيم لمن آثر طاعته ورضاه على جمع المال

(١) تفسير المنار ج ٩ ص ٥٩٤ — بتصرف وتلخيص .

وحب الأولاد ، فكفونوا — أيها المؤمنون — من حرب المؤمنين لحب الله
على حب الأموال والأولاد لتنالوا السعادة في الدنيا والآخرة .

ثم ختم سبحانه نداءاته للمؤمنين بهذا النداء الذي يهديها إلى سبيل الخير
والفلاح فقال - سبحانه - يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ،
ويكفر عنكم سيئاتكم ، ويغفر لكم ، والله ذو الفضل العظيم .

والفرقان في كلام العرب - كما يقول ابن جرير - مصدر من قولهم فرقت بين
الشيء والشيء - أفرق بينهما فرقاً وفرقاً - أي أفرق وأفصل بينهما . . .

وقد اختلف أهل التأويل في العبارة عن تأويل قوله يجعل لكم فرقاناً .
فقال بعضهم : يجعل لكم مخرجاً . وقال بعضهم نجاة ، وقال بعضهم فصلاً
وفرقاً بين حقكم وباطل من يبيخكم للسوء من أعدائكم . . . وكل ذلك
متقارب المعنى ، وإن اختلفت العبارة . . . (١)

وقال الألوسي : وفرقانا ، أي هداية ونورا في قلوبكم تفرقون به بين الحق
والباطل — كما روى عن ابن جريج وابن زيد — أو نصراً يفرق به بين الحق
والباطل بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين — كما قال الفراء — أو نجاة في
الدارين — كما هو كلام السدي — أو مخرجاً من الشبهات - كما جاء عن مقاتل -
أو ظهوراً يشهر أمركم وينشر صيتكم - كما يشعر به كلام محمد بن إسحاق -
من هت أفل كذا حتى ساطع الفرقان أي الصبح . وكل المعاني ترجع إلى الفرق
بين أمرين . وجوز الجمع بين المحققين الجمع ، إنهاء (٢) ونحن مع هذا البعض من
المحققين في جواز الجمع من هذه المعاني فيكون المعنى : يا أيها الذين آمنوا
إن تتقوا الله ، بأن تصونوا أنفسكم عن كل ما يفضيه ، وتطيعوه في السر
والعلن ، يجعل لكم فرقاناً ، أي هداية في قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل
ونصراً تعلموا به كنيتكم على كلمة أعدائكم ومخرجاً من الشبهات التي تفاق

(١) تفسير ابن جرير ٩ ص ٢٢٤ — بتصرف والمختص —

(٢) تفسير الألوسي ٩ ص ١٩٦ .

النفوس ، ونجاة عما تخافون وفضلا عن كل ذلك فإنه - سبحانه - يكفر عنكم سيئاتكم ، أى يسترها عليكم فى الدنيا ، ويغفر لكم ، أى : ويغفر لكم يوم القيامة ما فرط منكم من ذنوب بلطفه وإحسانه وقوله : « واقه ذو الفضل العظيم ، تدبيل قصد به التعليل لما قبله ، والتدبيل على أن ما وعد به - سبحانه - المؤمنين على تقواهم إنما هو تفضل منه لهم ، فهو - سبحانه - صاحب العطاء الجزيل ، والخير العميم . لمن أطاعه واتقاه ، وصان نفسه عما يسخطه ويغضبه .

فأنت ترى أنه - سبحانه - قد رغب على تقواه على الخوف منه ، نعماء عظمى ، ومننا كبرى ، وأى نعم يتطلع إليها المؤمنون أفضل من هداية القلوب وتكفير الخطايا والذنوب ؟ .

اللهم لا تخر منا من هذه النعم والمن بفضلك وإحسانك ، فأنت وحدك صاحب العطاء العميم ، وأنت وحدك ذو الفضل العظيم ، وأنت وحدك على كل شيء قدير

وبعد : فنحن - أئمة القارىء - لو استعرضنا سورة الأنفال من مطلعها إلى هنا ، لرأيناها تحدثنا -- على سبيل الاجمال - عن :

(أ) أحكام الأنفال ، وأن مرد الحكم فيها إلى الله ورسوله . .

(ب) وعن الصفات الكريمة التى يجب أن يتحلى بها المؤمنون لينالوا مغفرة الله ورضوانه . .

(ج) وعن أحوال بعض المؤمنين الذين اشتروا فى غزوة بدر ، وكانوا يفضلون العير على النفير . ولما كن - الله تعالى - بين لهم أن الخير فيما قدره لا فيما يظنون . .

(د) وعن النعم والبشارات وأسباب النصر التى أمد الله بها المؤمنين فى بدر والتى كان من آثارها ارتفاع شأنهم ، واندحار شأن أعدائهم . .

(هـ) وعن التوجيهات الحكيمة التى أعقبت تلك النداءات الخمسة التى نادى

الله بها المؤمنين ، فقد أمرهم - سبحانه - بالثبات في وجه أعدائهم ، وبالطاعة
 وإتباعه له ولرسوله - صلى الله عليه وسلم - وبالأستجابة السريعة للحق الذي
 جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - .. ونهتهم عن التولي يوم الزحف ؛
 وعن التشبه بمن قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ، وعن إقرار المنكرات والبدع
 والرضا بها ، وعن خيانه الله والرسول ، وعن خيانة الأمانات التي يجب
 حيانتها والمحافظة عليها . . .

ووعدهم - سبحانه - بهداية القلوب ، وتكفير الخطايا والذنوب ،
 متى اتقوه ووقفوا عند حدوده . .

(و) والآن ، وبعد هذا التوجيه الحكيم ، والتأديب القويم ، والتعليم
 للنافع والتذكير بالنعم ، والتحذير من النقم . . ماذا نرى ؟

نرى السورة الكريمة تأخذ في تذكير المؤمنين بجوانب من جرائم أعدائهم
 فنقص عليهم ما كان من هؤلاء الأعداء من قمار على حياة رسولهم - صلى الله
 عليه وسلم - ومن تهكم بالقرآن الكريم وادعاء أنهم في استطاعتهم أن يأتوا
 بمثله لو هادوا ، ومن استهزاء بتهاليم الإسلام ، وسخرية بشعائره وعباداته
 من إنفاق أموالهم ليهصدوا الناس عن الطريق الحق ، ومن إصرار على
 العناد والجحود جعلهم يستعجلون العذاب . .

ومع كل هذا فالسورة الكريمة تفتح الباب في وجوه هؤلاء الجاحدين
 المعاندين ، وتأمّر المؤمنين أن ينصحوهم بالدخول في دين الله .. فإذا لم
 يستجيبوا لنصيحهم فعليهم أن يقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين
 كله لله . .

اسمع - أخى الفارسى - بتدبر إلى الآيات التي تحكى كل ذلك
 بأسلوبها البليغ المؤثر فنقول :

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ
الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذْ تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ
لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ
إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ
أَتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ
اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ

يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ
إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ
الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءٌ وَتَصْدِيَةٌ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا
ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ
يُخْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ
بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ
الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُلِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ
وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا
تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ آنتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ
النَّصِيرِ ﴿٤٠﴾

أنه قال : تشاورت قريش ليلة بمكة - في شأن النبي - صلى الله عليه وسلم - .
وذلك بعد أن رأوا أمره قد اشتهر ، وأن غيرهم قد آمن به - فقال بعضهم : إذا
أصبح فأنشروه بالوثاق . وقال بعضهم بل نقتله . وقال بعضهم بل أخرجوه -
ثم اتفقوا أخيراً على قتله - ، فأطلع الله تعالى نبيه على ذلك ، وأمره أن
لا يبصبت في مضجعه ، فأمر النبي - ﷺ - علياً أن يبصبت مكانه ففعل
وخرج النبي - ﷺ - حتى لحق بالغار ، وبات المشركون يحرسون
علياً يحسبونه النبي - ﷺ - فلما أصبحوا ثاروا إليه ، فلما رأوا
علياً قالوا له أين صاحبك ؟ قال : لا أدري فانتصوا أثره ، فلما باغوا الجبل اختلط
عليهم ، فصعدوا في الجبل فرأوا بالغار ، فرأوا على بابه نسج العنكبوت ،
فقالوا لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه ، فمكث فيه ثلاث ليال .
وقد ذكر ابن كثير وغيره روايات أخرى تتعلق بهذه الآية ، إلا أننا
نكتفي بهذه الرواية ، لإفادتها للمطلوب في موضوعنا ، ولأن غيرها قد اشتمل
على أخبار أمكرها بعض المحققين ، كما أمكرها ابن كثير نفسه (١) .

وقوله : « وإذ يمكر بك ، » تدكير من الله - تعالى - - لنبيه للمؤمنين ببعض
نعمه عليهم ، حيث نجى نبيه - ﷺ - من مكر المشركين حين
تآمروا على قتله وهو بينهم بمكة . قال ابن جرير : أنزل الله على النبي - صلى
الله عليه وسلم - بعد قدومه المدينة سورة الأنفال ، يذكره نعمه عليه - ومن
ذلك قوله - تعالى - « وإذ يمكر بك الذين كفروا ۚ ۰۰۰ الآية » (٢) .

وقوله « يمكر ، » من المكر ، وهو - كما يقول الراغب - صرف الذير عما
يقصده بحيلة وذلك ضربان : مكر محمود وذلك أن يتحرى بمكره فعلاً جميلاً
ومنه قوله - تعالى - « والله خير الماكرين » . ومكر مذموم ، وهو أن يتحرى
بمكره فعلاً قبيحاً ، ومنه قوله - تعالى - « وإذ يمكر بك الذين كفروا ۚ ۰۰۰ » وقال

(١) راجع التفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٠٢ وتفسير ابن جرير ج ٩ ص ٢٢٦

(٢) تفسير ابن جرير ج ٩ ص ٢٢٨ .

وقال - سبحانه وتعالى - في الآمرين : ومكروا بمكرا ومكرا ما مكروا هم لا يشعرون ، (١)

وقوله : وليثبتوك ، أى ليحبسوك . يقال أثبتته إذا حبسته .
والمعنى : واذكر - يا محمد - وقت أن نجيتك من مكرا أعدائك ، حين قاموا عليك وأنت بين أظهرهم في مكة ، لكي يثبتوك ، أى : يحبسوك في دارك ، فلا تتمكن من لقاء الناس ومن دعوتهم إلى الدين الحق أو يقتلوك ، بواسطة مجموعة من الرجال الذين اختلفت قبائلهم في النسب ، حتى يتفرق دمك فيهم فلا تقدر عشرينك على الأثر الأخذ بشارك من هذه القبائل المتعددة .
أو يفرجوك ، أى : من مسكة منفيا مطاردا حتى يحولوا بينك وبين لقاء قومك .

وقوله : ويمكرون ويمكرك الله والله خبير الماكرين ، بيان لموضع النعمة والمنة ، أى : والحال أن هؤلاء المشركين يمكرون بك وباتباعك المكر السيئ ، والله - تعالى - يرد مكرم في نحوهم ، ويحبط كيدهم ، ويطلب سمهم ، ويعاقب عليه عقابا شديدا ، ويدبر أمرك وأمر أتباعك ، ويحفظكم من شرورهم ، فهو - سبحانه - أقوى الماكرين . وأعظمهم تأثيرا ، وأهلهم بما يضر منه وما ينفع .

قال الألوسي : قوله : ويمكرون ويمكرك الله ، أى : يرد مكرم ويحطل وخامته عليهم ، أو يجازيهم عليه أو يعاملهم معاملة الماكرين ، وذلك بأن أخرجهم إلى بدر ، وقال المسلمين في أعينهم حتى حملوا عليهم فلقوا منهم ما يذيب منه الوليد .

والله خير الماكرين ، إذ لا يعتد بمكرم عند مكرا - سبحانه - .
وإطلاق هذا المركب الإضافة عليه - تعالى - لأن كان باعتبار أن مكرم - سبحانه - أنفذ وأبلغ تأثيرا فالإضافة للتفصيل ، لأن لمكرا الغير أيضا -

(١) المفردات في غريب القرآن ص ٤٧١ الراغب الأصفهاني - يتصرف بسير

فهو ذالو تأثير آتى الجملة . . . وإن كان باعتبار أنه سبحانه لا ينزل إلا الحق ولا يصيب إلا ما يستوجب المذكور به ، فلا شركة لمكر الغير فيه ، وتكون الإضافة حينئذ للاختصاص ، لا انتفاء المشاركة . . (١) هذا والصورة التى برسمها قوله - تعالى - : « ويمكرون ويمكر الله ، صورة عميقة للتأثير ، ذلك حين تتراعى للخيال ندوة قريش ، وهم يتآمرون ويتذاكرون ويدبرون ويمكرون ، والله من روائهم محيط ، ويمكرهم ويبطل كيدهم وهم لا يشعرون . إنها صورة ساخرة ، وهى فى الوقت ذاته صورة مفزعة . . فأين هؤلاء لبشر الضعاف المهازيل ، من تلك القدرة القادرة . . قدرة الله الجبار ، القاهر نوق عباده ، الغالب على أمره ، وهو بكل شىء محيط ؟

والتعبير القرآنى برسم الصورة على طريق القرآن الفريدة فى التصوير ، يهزجها القلوب ، ويحرك بها أعماق الشعور ، (٢)

ثم حكى القرآن بعد ذلك جانباً من الدعاوى المكاذبة التى تقوه بها المشركون فقال - تعالى - « إذا تعلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا ، لم ننشأه قلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين . .

وقد ذكر كثير من المفسرين أن القائل لهذا القول : النضر بن الحارث ؛ إنه كان قد ذهب إلى بلاد فارس فأحضر منها قصصاً عن ملوكهم . . . ولما دم مكة ووجد رسول الله ﷺ يتلو القرآن قال للمشركين : لو شئت قتلت مثل هذا ، وكان - ﷺ - إذا قام من مجلس ، جاء بعده النضر بفلس فيه وحدث المشركون بأخبار ملوك الفرس والروم ، وغيرهم ثم قال : أينأ أحسن قصصاً ؟ أنا أو محمد ؟ وقد أمكن الله منه يوم بدر ، فقد مره المقداد بن عمرو ، فأمر - ص - بضرب عنقه وقال فيه : « إنه كان يقول فى كتاب الله - عز وجل - ما يقول ، (٣) .

(١) تفسير الألوسى ج ٩ ص ١٩٨

(٢) من فى ظلال القرآن ، ج ٩ ص ٨٤٤ للأستاذ سيد قطب .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٠٤ بتصرف وتلخيص .

وأُسند - سبحانه - قول النضر إلى جميع المشركين ، لا هم كانوا راضين بحوله ، ولأنه كان من زعمائهم الذين يقودونهم إلى طريق الغواية .

والأساطير - كما يقول ابن جرير - : جمع أسطر ، وهو جمع الجمع ، لأن واحد الأسطر سطر . ثم يجمع السطر : أسطر وسطور ، ثم يجمع الأسطر أساطير وأساطر . وقد كلف بعض أهل العربية : واحد الأساطير : أسطورة - كأحاديث وأحدوثه (١) - والمراد بها : تلك القصص والحكايات التي كتبها الكائنون عن القدماء ، والتي يغلب عليها طابع الخرافة والتخيلات التي لا حقيقة لها .

والمعنى : أن هؤلاء المشركين قد بالغ بهم الكذب والتفادي في الطغيان ، أنهم كانوا إذا نزل عليهم آيات الله ، قالوا ، بصفافة ووقاحة : قد سمعنا ، أى : قد سمعنا ما قرأه علينا - يا محمد - ووعيتاه ولو نشاء أن قلنا مثل هذا ، أى لو نشاء أن قلنا مثل هذا القرآن الذي نتلوه علينا يا محمد ما هو إلا من قصص الأولين وحكاياتهم التي سطرها بعضهم عنهم وليس من عند الله - تعالى - ولا شك أن قولهم هذا يدل على تعمد الكذب على أنفسهم وعلى الناس فإن هذا القرآن - الذي زعموا أنهم لو شاءوا لقالوا مثله - قد تحداهم في نهاية المطاف أن يأتوا بسورة من مثله فجزوا وانقلبوا خاسرين .

والذي فعتقده أن قولهم هذا ، ما هو إلا من قبيل الحرب النفسية التي كانوا يشنونها على الدعوة الإسلامية ، بقصد تضليل البسطاء ، والوقوف في وجه تأثير القرآن في القلوب ، ولحاولة طمس معالم الحق ولو إلى حين .

ولكنهم لم يفعلوا ، فإن نور الحق لا تحجبه الشبهات الزائفة ، ولا يعدم الحق أن يجد له أنصاراً حتى من أعدائه ، يكفي هنا أن نقسّم بما قاله الوليد ابن المغيرة في وصف القرآن الكريم : « إله له لحلاوة ، وإن هايه لطلاوة ، وإن أسفه لمغنى ، وإن أعلاه لمثمر .. وما يقول هذا بشر .. »

(١) تفسير ابن جرير ج ٩ ص ٢٣١ - (م ٨ - سورة الأنفال)

ورحم الله صاحب الكشف فقد قال عند تفسيره لقوله تعالى - لو نشاء
لنماثل هذا... : فاجابة منهم ووصاف تحت الراحدة ، فإنهم لم يتوانوا في مشيبتهم
ساعتهم الاسطاعة ، وإلا فما منعهم إن كانوا مستطيعين أن يعاؤوا غلبة
تهداهم وقرهم بالله . وحتى يقولوا بالقدم المعلى دونه ، مع فرط أنفهم ،
استنكافهم أن يغلبوا في باب البيان خاصة . . . (١) .

ثم تمضي السورة في حديثها عن ردائل مشركي قريش ، فتحكي لونا هجيبا
، ألوان هنادهم ، وجودهم للحق . فتقول : . . . وإذا قالوا اللهم إن كان هذا
والحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم . . .
وقابل هذا القول : النضر بن الحارث صاحب القول السائف لو نشاء
لنماثل هذا... ذكر ذلك عطاء ومجاهد وسعيد بن جبير .

وأخرج البخاري عن أنس بن مالك أن قاتل ذلك : أبو جهل بن همام .
أخرجه ابن جرير عن بن رومان وعبد بن قيس أن قريشا قال بعضهم
مض : أكرم الله محمدا - صلى الله عليه وسلم - من بيننا اللهم إن كان هذا
والحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء (٢) .

والمنى : أن هؤلاء المشركين قد بلغ بهم العناد والجحود أنهم لم يكتفوا
بكار أن القرآن من عند الله ، وأن محمدا قد جاءهم بالحق . . بل أضافوا
، ذلك قولهم : اللهم إن كان هذا الذي جاءنا به محمد من قرآن وغيره هو الحق
نزل من عندك ، فعاقبنا على إنكاره والكفر به ، بأن تنزل علينا حجارة
من السماء . ثم لكانا . أو تنزل علينا عذابا أليما يقضى علينا .

قال الجمل : قوله : . . هو الحق ، قرأ العامة الحق بالنصب على أنه خير الكون
لفظ . هو ، للفصل . . . وقرأ الأعمش وزيد بن علي ، الحق ، بالرفع ووجهها
أمر برفع أفظ . هو ، على الابتداء ، والحق خبره ، والجملة خير الكون (٣) .

(١) تفسير الكشف ج ٢ ص ٢١٦ وقوله : فاجابة ، أي : تكبير ، والوصاف
فرور ومجاوزة الحد . والراحدة السحابة وهذا مثل يضرب لرجل يتوعد ثم
يعمل شيئا (٢) نفسه الألوسي ج ١ ص ١٩٩ (٣) حاشية الجمل على الجلائين ج ٢ ص ٢٤٣ -

وفي إطلاقهم الحق ، على ما جاء به الرسول ﷺ ، وجعله من عند الله ؛ نهكم بمن يقول ذلك سواء أكان هذا القتال - رسول صلى الله عليه وسلم - أو المؤمنون .

وأل فيه للمهد : أى الحق الذى ادعى محمد أنه جاء به من عند الله .

وقوله : « من السماء » متعلق بمحذوف صفة لقوله « حجارة » . وقائدة هذا الوصف الدلالة على أن المراد بها حجارة معينة مخصوصة لتعذيب الظالمين .

قال صاحب الكشف : وهذا أسلوب من الجورود بلنج . يعنى إن كان القرآن هو الحق فمقابلنا على إنكاره بالسجيل كما فعلت بأصحاب الفيل ، أو بعذاب آخره ومرادهم نفي كونه حقا ، وإذا انتفى كونه حقا لم يستوجب منكره عذابا ، فكان تطبيق للعذاب بكونه حقا ، مع اعتقاد أنه ليس بحق كتمليقه بالمحال فى قولك : إن كان الباطل حقا فأمطر علينا حجارة من السماء .

فإن قلت : ما قائدة قوله « من السماء » والأمطار لا تكون إلا منها ؟

قلت : كأنهم يريدون أن يقولوا : فأمطر علينا السجيل وهو الحجارة المسومة للعذاب ، فوضع حجارة من السماء موضع السجيل .

وعن معاوية أنه قال لرجل من سبأ : ما أجمل قومك حين أسكوا عليهم امرأة ، فقال الرجل : أجمل من قومى قومك ، فقد قالوا رسول الله ﷺ - حين دعاهم إلى الحق : « إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء .. » ولم يقولوا : إن كان هذا هو الحق فاهدنا له (١) .

ولقد كان هذا الرجل حكيما فى رده على معاوية ، لأنه كان الأولى بأولئك المشركين أن يقولوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووقفنا لاتباعه .. ولكن للعناد الجامع الذى استولى عليهم جعلهم يؤثرون الهلاك

على الإذعان للحق ويفضلون عبادة الأصنام على اتباع محمد - ﷺ - الذي دعاهم إلى عبادة الله وحده . . وهكذا النفوس عندما تنغمس في الأحقاد وتتمادى في الجحود . وتفقد الأوهام والشهوات ، وتأخذها العزة بالإثم . ترى الباطل حقا ، والحق باطلا ، وتؤثر العذاب وهي سادرة في باطلها ، على الخضوع للحق والمنطق والصواب .

ثم تعقب السورة على هذا الدعاء الغريب الذي حكته عن مشركي مكة ، فتيين الموجب لإمامهم وعدم إجابة دعائهم فتقول : وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون .

أى : وما كان الله مريداً لتعذيب هؤلاء الذين دعوا بهذا الدعاء الغريب تعذيب استئصال وإهلاك ، وأنت مقيم فيهم - يا محمد - بمكة ، فقد جرت سنته - سبحانه - ألا يهلك قرية مكذبة وفيها نبيها والمؤمنون به حتى يخرجهم منها ثم يعذب الكافرين . واللام في قوله « ليعذبهم » تأكيد للنفي ، والدلالة على أن تعذيبهم والرسول - ﷺ - بين أظهرهم غير مستقيم في الحكمة .

والمراد بالاستغفار في قوله : « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » استغفار من بقى بينهم من المؤمنين المستضعفين الذين لم يستطيعوا مغادرة مكة بعد أن هاجر منها النبي - ﷺ - والمؤمنون .

أى : ما كان الله مريداً لتعذيبهم وأنت فيهم - يا محمد - وما كان - أيضاً - مريداً لتعذيبهم وبين أظهرهم بمكة من المؤمنين المستضعفين من يستغفر الله ، وهم الذين لم يستطيعوا مغادرتها والحق بك في المدينة .

قالوا : ويؤيد أن هذا هو المراد بالاستغفار قوله - تعالى - في آية أخرى : « لو تزلزلوا لعذبنا الذين كفروا منهم هذا بالآية (١) » أى : لو تمين

المؤمنون على الكافرين لعذابنا الذين كفروا عذابا أليما . وأسند سبحانه الاستغفار إلى ضمير الجميع ، لوقوعه فيما بينهم ، ولنزول ما صدر عن البعض منزلة ما صدر عن الكل . كما يقال : قتل أهل بلدة كذا فلانا والمراد بعضهم . ويرى بعضهم أن المراد بالاستغفار المذكور : استغفار الكفرة أنفسهم كقولهم : غفرانك في طوافهم بالبيت ، أو ما يشبه ذلك من معاني الاستغفار وكان هذا البعض يرى أن مجرد طلب المغفرة منه - سبحانه - يكون مانعا من عذابه ولو كان هذا الطلب صادرا من الكفرة .

ويرجح ابن جرير أن المراد بقوله : وهم يستغفرون ، نفي الاستغفار عنهم . فقد قال بعد أن ذكر بضعة آراء : وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب قول من قال : تأويله وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم يا محمد ، وبين أظهرهم مقيم ، حتى أخرجك من بين أظهرهم ، لأنني لا أملك قرية وفيها نبيها ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون من ذنوبهم وكفرهم ، ولكنهم لا يستغفرون من ذلك بل هم مصرون عليه ، فهم للعذاب مستحقون . . . (١) . قال بعض المحققين : والقول الأول أناخ لدلالته على أن استغفار للغير عما يدفع به للعذاب عن أمثال هؤلاء الكفرة .

ثم قال : روى الترمذي عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله - ص - أنزل الله على أماني لأمتي . وما كان الله ليعذبهم . . . الآية . فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة . قال ابن كثير : ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد والحاكم وصححه عن أبي سعيد أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : إن إبليس قال لربه : بعزتك وجلالك لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم . فقال الله تعالى : فبعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني ، (٢) .

(١) تفسير ابن جرير ج ٩ ص ٢٣٨ .

(٢) تفسير القاسمي ج ٨ ص ٢٩٨٧ طبعة عيسى الحلبي سنة ١٩٥٨ م -

ثم بين - سبحانه - بعض الجرائم التي ارتكبها المشركون، والتي فعلها مستحقين لعذاب الله، فقال - تعالى - : وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام، وما كانوا أولياءه، إن أو لياؤه إلا المتقون، ولكن أكثرهم لا يعلمون .

والمنع : وأى شيء يمنع من عذاب مشركي قريش بعد خروجك - بالحج - وخروج المؤمنين المستضعفين من بين أظهرهم ؟ إنه لا مانع أبداً من وقوع العذاب عليهم وقد وجد مقتضيه منهم، حيث اجترحوا من المنكرات والسيئات ما يحلهم مستحقون للعقاب الشديد .

فلاستفهام في قوله : وما لهم . . . إنكارى بمعنى النفي . أى : لا مانع من تعذيب الله لهم وقوله : وهم يصدون عن المسجد الحرام ، جملة حالية مبينة لجريمة من جرائمهم الشنيعة . أى : لا مانع يمنع من تعذيبهم، وكيف لا يصدون وحالهم أنهم يمنعون المؤمنين عن الطواف بالمسجد الحرام ، ومن زيارته . ومن مباشرة عيادتهم عنده . . . لأنهم لابد أن يصدوا على هذه الجرائم . ولقد أوقع الله بهم عذابه في الدنيا : ومن ذلك ما حدث لهم يوم بدر من قتل صناديدهم ومن أسر وجوهاتهم ، ومن كلتهم .

وأما عذابهم في الآخرة فهو أشد وأبقى من عذابهم في الدنيا .

وقوله : وما كانوا أولياءه ، رد على ما كانوا يقولونه بالباطل : نحن ولاية البيت الحرام ، فلما أن قصد من إنشاء عن دخوله، ولنا أن نبيح لمن نساء دخوله . أى : إن هؤلاء المشركين ما كانوا في يوم من الأيام أهلاً لولاية البيت الحرام بسبب شركهم وعداوتهم - لله تعالى - رب هذا البيت .

وقوله : إن أو لياؤه إلا المتقون ، ولكن أكثرهم لا يعلمون ، بيان للمستحقين لولاية البيت الحرام ، بعد نفيها عن المشركين .

أى : إن هؤلاء المشركين ليسوا أهلاً لولاية البيت الحرام، وليدوا أهلاً

لأن يكونوا أولياء الله تعالى - بسبب كفرهم ووجودهم ، وإنما المستح
لذلك هم الملقون الذين صانوا أنفسهم عن الكفر عن الشرك وعن
ما يغضب الله ، ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون ذلك به
جهلهم وتعمدهم في الجحود والضلال .

وقد جاءت جملة من أوليائه إلا المنفرون ، مؤكدة بأقوى
التأكيد ، لنفي كل ولاية على البيت الحرام سوى ولايتهم .

ونفي - سبحانه - العلم عن أكثر المشركين ، لأن الله منهم كانت تعال
لا ولاية لها على المسجد الحرام ولكنها كانت تجمد ذلك عناداً وغروراً
أو أن المراد بالأكثر الكل ، لأن للأكثر حكم الكل في كثير من الأحكام
كما أن الأقل قد لا يعتبر فينزل منزلة العدم .

ثم حكى - سبحانه - لونا آخر من ألوان ضلال هؤلاء المشركين
وجودهم فقال : « وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية »
« فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » .

قال القرطبي ما ملخصه : قال ابن عباس : كانت قریش تطوف بالبيت
عراة ، يصفقون ويصفرون ، فكأن ذلك عبادة في ظنهم . .
والمكاء : الصفير . يقال مكأ يمكؤ مكوا ومكأ إذا صفر .

والتصدية : التصفيق . يقال : صدى يصدى تصدبة إذا صفق .

وقال قتادة : المكاء : طرب بالأيدي ، والتصدية : الصياح .

وعلى التفسيرين ففيه رد على الجملة من الصوفية الذين يرقصون
ويصفقون ، وذلك كله مفكر يتنزه عن مثله العقلاء ، ويذهب فاعله بالمشرك
فيما كانوا يفعلونه عند البيت . . (١) .

والمعنى : أن هؤلاء المشركين لم تكن صلاتهم عند البيت الحرام إلا نصفية صغيرة ، وهم جاحلون بما فيها ، ولا استشعار لحرمته البيت ، ولا خشوع لخالقه تعالى . وذلك لجهلهم بما يجب عليهم نحو خالقهم ، ولحرصهم أن يسيثوا إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو يقرأ القرآن ، أو وهو وف البيت ، أو وهو يؤدي شيئاً من شعائر الإسلام وعبادته . فقد حكى أن عنهم أنهم كانوا إذا سمعوا القرآن رفعوا أصواتهم بالصياح والغناء . نعو الناس من سماعه . قال - تعالى - : وقال الذين كفروا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون (١) .

وروى ابن جرير أن ابن عمر حكى فعلهم ، فصرخ ، وأمال خده وصفق يديه وقال مجاهد إنهم كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا على النبي - صلى الله عليه وسلم - لم - صلاته .

وعن سعيد بن جبير : كانت قریش يعارضون النبي - صلى الله عليه وسلم - الطواف يستهزئون به ، يصفقون ويصفقون (٢) .

وقال الفخر الرازي : فإن قيل المكاء والتصدية ما كانا من جنس الصلاة يف جاز استثناءهما من الصلاة ؟

قلنا : فيه وجوه : الأول : أنهم كانوا يعتقدون أن المكاء والتصدية من الصلاة فخرج هذا الاستثناء على حسب معتقدهم .

الثاني : أن هذا كقولك : ودوت الأمير فجعل جفائي صلتى . أى : الجفاء مقام الصلاة . فكذا هنا .

الثالث : الغرض منه أن من كان المكاء والتصدية صلاته فلا صلاة له .

(١) سورة فصلت . الآية .

(٢) تفسير ابن جرير ٩ ص ٢٤٠ .

كما تقول العرب : يا لفلان عيب إلا السخاء . يريد من كان السخاء فيه فلا عيب له . (١)

وقوله : « فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، وعيد لهم على كفرهم ووجودهم ، واستهزائهم بشمائر الله .

أى : فذوقوا - أيها الضالون - العذاب الشديد بسبب كفركم وعنادكم واستهزائكم بالحق الذى جاءكم به محمد - ﷺ - من عند الله . ثم حكى سبحانه - ما كانوا يفعلونه من إنفاق أموالهم لافى الخير والى الشرور والآثام وقودهم على ذلك بسوء المصير فقال - تعالى - : « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون . . . »

روى المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات منها ما ذكره محمد بن إسحاق عن الزهري وغيره قالوا : لما أصيبت قريش يوم بدر ، ورجع فلهم - أى جيشهم المهزوم - إلى مكة ورجع أبو سفيان بعيره ، وشى عبد الله بن ربيعة وعكرمة ابن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، في رجال من قريش أصيب آبائهم وأبنائهم وإخوانهم في بدر ، فكلموا أبا سفيان بن حرب ، ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة ، فقالوا : يا معشر قريش إن محمداً قد وترككم وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، اعلنا أن ندرك منه ثاراً من أصيب منا . ففعلوا . قال : ففهم - كما ذكر عن ابن عباس - أنزل الله - تعالى - : « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله . . . » الآية (١) .

وروى ابن جرير عن سعيد بن جبير قال : نزلت في أبي سفيان بن حرب ، استأجر يوم غزوة أحد الفين من الأحابيش من بنى كنانة ، فقاتل بهم النبي - صلى الله عليه وسلم - (٢) :

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٥ ص ١٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٠٧ .

وروى عن أبي طيبي والضحاك ومقاتل أنها نزلت في المطعمين يوم بدره
وكانوا اثني عشر رجلاً من قريش ... كان كل واحد منهم يطعم الناس كل
يوم عشر جزر (١) .

قال ابن كثير : وعلى كل تقدير فهي عامة وإن كان سبب نزولها خاصاً .
أي : أن الآية الكريمة تتناول بوعيدها كل من يبذل أمواله في الصدهن
سبيل الله ، وفي تأييد الباطل ومعارضة الحق .

والمعنى : إن الذين كفروا بالحق لما جاءهم دينفقون أموالهم ، لا في وجوه
الحير ، وإنما ينفقونها ليعصوا عن سبيل الله ، أي : ينفقونها ليعتصروا الناس
عن الدخول في الدين الذي يوصلهم إلى رضا الله ، وإلى طريقه القويم .
واللام في قوله : ليعصوا ، لام العسيرة . ويصح أن تكون للتعطيل ؛
لأن غرضهم من منع الناس عن الدخول في دين الله الذي جاء به النبي
— ص — ، والذي يروونه ديناً مخالفاً لما كان عليه الآباء والأجداد
فيحب محاربه في رصمهم .

وقوله : فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ... بيان
لما سيؤول إليه أمرهم في الدنيا من الخيبة والحزينة والندامة .

أي : فسينفقون هذه الأموال في الشرور والعدوان ، ثم تكون عاقبة ذلك
حسرة وندامة عليهم ، لأنهم لم يصلوا - ولن يصلوا - من وراء إنفاقها إلى ما يبخون
ويؤملون . فضلاً عن كل هذا فستكون نهايتهم الحزينة والإذلال في الدنيا ،
لأن سنة الله قد اقتضت أن يجعل النصر في النهاية لاتباع الحق لا لاتباع الباطل .
وقوله : فسينفقونها ، خبر إن في قوله : إن الذين كفروا ... ، واقترن

(١) تفسير ابن جرير ج ٩ ص ٢٤٥ .

(٢) تفسير الألوسي ج ٩ ص ٣٠٤ .

عليه السلام بالفناء لتضمنه الموصول مع صلته معنى الشرط ، فصار الخبر بمنزلة
الجواز بحسب المعنى وفي تكرير الإنفاق في شبه الشرط والجزاء ، إشعاراً بكمال
سوء إنفاقهم ، حيث إنهم لم ينفقوا أموالهم في خير أو ما يشبه الخير ، وإذا
أنفقوها في الشرور المحضة . . وجاء للمطف بحرف ، ثم الدلالة على البور
الفاسد بين ما قصدوه من نفقتهم وبين ما آل وبثول إليه أمرهم . فهم قد
قصدوا بنفقتهم الوقوف في وجه الحق والانتصار على المؤمنين . . . ولكن
هذا القصد ذهب أدراج الرياح ، فقد ذهبت أموالهم سدى ، وغلبوا المرة
المرة ، وعاد المؤمنون إلى مكة فاتحين ظافرين بعد أن خرجوا منها مهاجرين .
وقوله : . . والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ، بيان لسوء مصيرهم
الآخرة ، بعد بيان حسرتهم وهميتهم في الدنيا .

أى : أن هؤلاء الكافرين ستكون عاقبة إنفاقهم لأموالهم الحرام
الحزبية في الدنيا ، أما في الآخرة فسيكون مصيرهم الحشر والسوق لا
غار جهنم لا إلى غيرها .

وقوله : . . ليعر الله الخبيث من الطيب ، ويجعل الخبيث بعضه على بعض
خبركه جميعاً فيجعل في جهنم . . . بيان لحسنته - سبحانه - في هذا
الكافرين وحشرهم إلى جهنم . . .

وقوله : . . ويركه ، أى : فيجمعه ويضم بعضه إلى بعض . يقال : ركم الشيء
بركه ، إذا جمعه وألقى بعضه على بعضه . وارتكمت الشيء وترأكت أى : اجتمع
والمعنى : أنه - سبحانه - فعل ما فعل مع هؤلاء الكافرين وحشرهم إلى
جهنم ، ومن تأيد المؤمنين وفوزهم برضوانه ، ليتبين للفريق الخبيث والفريق
الطيب ، من الفريق الطيب وهو فريق المؤمنين ، فإذا ما تأمروا به
- سبحانه - الفريق الخبيث منعها بعضه على بعض ، فيلقى به في جم
جزاء خبثه وكفره . .

واللام في قوله « ليميز » متعلقة بقوله « يظليون » أو بقوله « يحشرون »
ويحوز أن يكون المراد بالخبث ما أنفق الكافرون من أموال للصد عن
بيل الله ، وبالطيب ما أنفق المؤمنين من أموال لإعلاء كلمة الله .

وعليه تكون اللام في قوله « ليميز » متعلقة بقوله : « ثم تكون عليهم حسرة »
: أنه — سبحانه — يميز هذه الأموال بعضها من بعض ، ثم يضم الأموال
ثابتة بعضها إلى بعض ، فيلقى بها وأصحابها في جهنم .

والتعبير بقوله — سبحانه — « فيركمه جميعاً » تعبير مؤثر بليغ ، لأنه
دور القريب الخبيث كأنه أشدة تراحمه وانضمام بعضه إلى بعض شيء متراكم
مل ، يقذف به في النار بدون اهتمام أو اعتبار .

واسم الإشارة في قوله : « أولئك هم الخاسرون » يعود إلى هذا
ريق الخبيث . أي : أولئك الكافرون الذين أنفقوا أموالهم في الصد عن
بيل الله هم الخاسرون لدنياههم وآخرتهم .

وبعد كل هذا التهديد والوعيد للكافرين ... يوجه — سبحانه — خطابهم
، نبيه - صلى الله عليه وسلم - يأمره فيه أن يبلغهم حكم الله إذا ما انتهوا عن
كفرهم ، كما يأمر المؤمنين أن يقاتلوهم حتى تكون كلمة الله هي العليا ،
نول — سبحانه — : « قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف » ،
إن يعودوا فقد مضت سنة الأولين . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة
بكون الدين كله لله ، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير . وإن تولوا
عدوا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير .

أي : « قل ، يا محمد هؤلاء الذين بالحق لما جاءهم ، من أهل مكة
غيرهم ، قل لهم : « إن ينتهوا » عن كفرهم وعداوتهم للمؤمنين يغفر لهم
قد سلف ، من كفرهم وما صيهم » وإن يعودوا ، إلى قتالهم ويستمرروا
ضلالهم وكفرهم وطمعائهم ، انتقمنا منهم ، ونصرنا المؤمنين عليهم » فقد
نمت سنة الأولين ، على ذلك .

أى : فقد مضت سنة الله - تعالى - فى الأولين ، وسنته لا تتخلف فى أمنا
 سبحانه - يعذب المكذبين بعد إظهارهم وتبليغهم دهرته ، وينصر عباده المؤمنين
 وينجيهم ويمكن لهم فى الأرض . وقد رأى هؤلاء المشركون كيف كانت
 حافية أمرهم فى بدر ، وكيف أملاك - سبحانه - الكافرين من الأمم قبلهم ،
 وجواب الشرط لقوله : وإن يعودوا ، محذوف والتقدير : وإن يعودوا
 فننتقم منهم .

وقوله ، فقد مضت سنة الأولين ، تعليل للجواب المحذوف .

قال الألوسى : قوله ، فقد مضت سنة الأولين ، أى عادة الله الجارية فى الذين
 تحزبوا على الأنبياء من نصر المؤمنين عليهم وخذلانهم وتدميرهم . وأضيفت
 السنة إليهم لما بينهما من الملازمة الظاهرة . ونظير ذلك قوله - سبحانه - سنة
 من قد أرسلنا ، فأضاف السنة إلى المرسلين مع أنها سنته لقوله - سبحانه -
 ولا تجد لسنةنا تبديلا ، باعتبار جريانها على أبدىهم . ويدخل فى الأولين
 الذين حاق بهم مكرهم يوم بدر .

والآية حث على الإيمان وترغيب فيه . واستدل بها على أن الإسلام
 يجب ما قبله ، وأن الكافر إذا أسلم لا يخاطب بقضاء ما فات من صلاة أو زكاة
 أو صوم أو إنلاف مال أو نفس . وأجرى المالكية ذلك كله فى المريد إذا تاب
 لعموم الآية ... (١) .

وقوله . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . . . أم
 من نفع - تعالى - للمؤمنين بقتال الكافرين إذا ما استمروا فى كفرهم
 وطفائهم .

والمعنى : عليكم - أيها المؤمنون - إذا ما استمر أولئك الكافرون فى كفرهم
 وعدوانهم ، أن تقاتلوهم بشدة وغلظة ، وأن تستمروا فى قتالهم حتى لزوا

سولة الشرك ، وحتى يعيشوا أحرارا فيه مباشرة نعاليم دينكم بدون أن يهرق
 أحد على محاولة فتنتكم في عقيدتكم أو عبادتكم ... وحتى تصير كلمة الذين
 كفروا هي السفلى .

قال الجمل : وقوله : « وقالوا هم ... مع ماوف على قوله « قل للذين كفروا .
 لكن لما كان الغرض من الأول التلطف بهم وهو وظيفة النبي وحده جاء
 الإفراء . ولما كان الغرض من الثاني تحريض المؤمنين على القتال جاء بالجمع
 خراطبوا جميعا ، (١) .

وقوله : « فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير ، أى : فإن انتهوا عن كفرهم
 عن معاداتكم ، فكفروا أيديكم عنهم ، فإن الله — تعالى — لا يخفى عليه شيء
 من أعمالهم ، وسيجازيهم عليه بما يستحقون من ثواب أو عقاب .

وقوله : « وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير »
 عبارة منه — سبحانه — للمؤمنين بالنصر والتأييد .

أى : « وإن أعرضوا عن الإيمان ولم يبتئوا عن الكفر والطغيان فاعلموا
 أن الله مولاكم ، أى : فاصركم ومعينكم عليهم ، فتقوا بولايته ونصرته ،
 هو — سبحانه — نعم المولى ونعم النصير ، لأنه لا يضيع من تولاه ،
 لا يزم من نصره .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد فتحت الباب للكافرين حتى
 فيثوا إلى رشدهم ، وينتهوا عن كفرهم ، وبشرتهم بأنهم إذا فعلوا ذلك غفر
 الله لهم ما سلف من ذنوبهم . . أما إذا استمروا في كفرهم ومعاداتهم للحق ،
 قد أمر الله عباده المؤمنين بقتالهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .
 أى أن القتال في الإسلام شرعه الله — تعالى — من أجل إعلال كلمته
 من أجل رفع الأذى والفتنة والمدران ممن يعتنقون دينه وشريعته .

هذا ، وقد ساق ابن كثير هند تفسيره الآيات جملة من الأحاديث التي تفيد بأن القتال في الإسلام إنما شرعه الله - تعالى - لإعلاء كلمته ، وليس لأجل الغنيمة أو السيطرة على الغير . . . وأنه لا يجوز لمسلم أن يقتل إنساناً بعد نقطة بالشهادتين . فقال - رحمه الله - : « وقوله - تعالى - « وقالوهم حتى لا تكون فتنة . . . » :

روى البخاري عن ابن عمر أن رجلاً جاءه - في فتنة ابن الزبير - فقال له يا أبا عبد الرحمن ، ألا تصنع ما ذكره الله في كتابه ، وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا . . . الآية (١) . فما بمنعك من القتال ؟ فقال يا ابن أخي لأن أغير بهذه الآية ولا أقاتل ، « أحب إلي من أن أغير بالآية التي تقول : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها . . . » الآية (٢) .

فقال الرجل : فإن الله يقول : « وقالوهم حتى لا تكون فتنة » ، فقال ابن عمر : « قد فعلنا على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذ كان الإسلام قليلاً ، فكان الرجل يفتن في دينه : إما أن يقتلوه ، وإما أن يوثقوه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة . . . »

وهن سعيد بن جبير قال : خرج إلينا ابن عمر فقال له قائل : كيف ترى في قتال الفتنة ؟ فقال له ابن عمر وهل تدري ما الفتنة ؟ كان محمد - صلى الله عليه وسلم - يقاتل المشركين ، وكان الدخول عليهم فتنة ، وليس بقتالكم على الملك . . .

وفي رواية أنه قال : قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله . وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ، ويكون الدين لغير الله . . .

(١) سورة الحجرات : الآية ٩

(٢) سورة النساء : الآية ٩٣ .

ثم قال ابن كثير : وقوله « فإن انتهوا ، أتى بقتالكم عما فيه من الكفر فكفروا منه وإن لم تملوا بواطئهم » فأيض الله بما يعملون بصير ..
 وفي الصحيح أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لأسامة لما هلا ذلك الرجل بالسيف ، فقال الرجل لا إله إلا الله فضربه فقتله ففكر ذلك للرسول - صلى الله عليه وسلم - فقال لأسامة : أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله ؟ فكيف تصنع ؟ بلا إله إلا الله ، يوم القيامة ؟ فقال : يا رسول الله إنما قالها تودا ، فقال : هلا شققت عن قلبه ؟ وجعل يقول ويكرر عليه من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة ، قال أسامة : حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ (١) .

وبعد هذا الحديث المتنوع عن مكر الكافرين ، وعن دعاويهم الكاذبة ، وعن وجوب مقاتلتهم إذا ما استمروا في طغيانهم وهدوانهم .. بعد كل ذلك بين - سبحانه - للمؤمنين كيفية قسمة الغنائم التي كثيرا ما تترتب على قتال أعدائهم ، فقال - تعالى - :

أَوْ أَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ
 وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ عَامِنْتُمْ
 بِاللهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقِي الْأَجمَعَانِ وَاللهُ
 عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾

وقوله : « غنمتم » من الغنم بمعنى الفوز والربح يقال : غنم غنما وغنيمة إذا ظفر بالشئ - قال القرطبي ما ملخصه : الغنيمة في اللغة ما يناله الرجل أو الجماعة يسمى ، ومن ذلك قول الشاعر :

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٠٨ - بتصرف وتلخيص - .

وقد طوِّف في الاتفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإيجاب

وأهل أن الاتفاق حاصل على أن المراد بقوله - تعالى - : « غنمتم من
الغنم » ، مال الكفار إذا ظفر به المسلمون على وجه الغلبة والقهر . .
وسمى الشرع الواصل من الكفار إلينا من الأمان - والباسمين :
غنيمة وفيتا .

فالتى - الذى يناله المسلمون من عدوهم بالسعى وإيجاف الخيل والركاب
يسمى غنيمة . ولزم هذا الاسم هذا المعنى حتى صار عرفا .

ولقى - مأخوذ من قا . بقى ، إذا رجع ، وهو كل مال دخل على المسلمين
من غير حرب ولا إيجاف . كخراج الأرضين ، وجزية الجاهم . (١) .

والمعنى الإجمالى للآية الكريمة : « وأعلموا » ، أيها المسلمون أن ما غنمتم
من شيء ، أى : ما أخذتموه من الكفار قهراً ، فإن الله ، الذى منه سبب حقه
النصر المنفرد عليه الغنيمة ، خمس ، أى خمس ما غنمتموه شكراً له على هذه
النعمة ، والرسول ، الذى هو سبب في هدايتكم ، ولذى القرى ، أى : ولأصحاب
القرابة من رسول الله - ص - والمراد بهم على الراجح بنو هاشم
وبنو المطلب .

« واليتامى » ، وهم أطفال المسلمين الذين مات آباؤهم قبل أن يبلغوا .

« والمساكين » ، وهم أهل الفاقة والحاجة من المسلمين .

« وابن السبيل » ، وهو المسافر الذى نفذ ماله وهو في الطريق قبل أن
يصل إلى بلده .

وقوله « أعلموا » ، مطوف على قوله قبل ذلك ، وكانوا هم حتى لا تكون

الغنيمة . . الخ ، و « ما » ، في قوله : « أن ما غنمتم » ، موصولة والعايد محذوف .

(١) تفسير القرطبي ج ٨ ص ١ . طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٦١ م .

وقوله : من شيء ، بيان للموصول محله النصب على أنه حال من العائد المقدر .
 أى : أن ما غنمتموه من شيء سواء أكان هذا الشيء قليلا أم كثيرا .
 ، فإن لله خمسة .

وقوله : فإن لله خمسة ، خبر مبتدأ محذوف والتقدير : لحكمه أن لله خمسة
 والجار والمجرور خبر . أن ، مقدم ، وخمسة اسمها مؤخر . والتقدير : فإن
 خمسة كائن لله وللرسول ولذئ القربى . . . الخ .

وأعبدت اللام فى قوله : ولذئ القربى ، دون غيرهم من الأصناف التالية
 لدفع توهم اشتراكهم فى سهم النبى - ص - لمزيد اتصالهم به .
 وقوله : إن كنتم آئتم بالله . . . شرط جزاؤه محذوف .

أى : إن كنتم آئتم بالله حق الإيمان ، وآئتم بما نزلنا على عبدنا ،
 فقد ص - يوم الفرقان ، أى يوم بدر - يوم التقى الجمعان ، أى :
 جميع المؤمنين وجمع الكافرين . . . إن كنتم آئتم بكل ذلك ، فاحملوا
 ما علمتم ، وارضوا بهذه القسمة عن إذهاب وتسليم وحسن قبول .

وما أفزله الله على نبيه . ص - يوم بدر - يتناول ما نزل من آيات
 آتية ، كما يتناول نزول الملائكة لتثبيت المؤمنين ، ونبشبرهم بالنصر
 يتناول غير ذلك مما أيدهم الله به فى بدر .

وسمى يوم بدر بيوم الفرقان ، لأنه اليوم الذى فرق الله فيه بين الحق
 للباطل وقوله : والله على كل شيء قدير ، تيقيل قصد به بيان أن ما أصابه
 ومؤمنون يوم بدر من غنيمة ونصر إنما هو بقدرة الله التى لا يعجزها شيء ،
 بإيهم أن يداوموا على طاعته وشكره ليزيدهم من عطاءه وفضله .

هذا ، وقد ذكر العلماء عند تفسيرهم لهذه الآية جملة من المسائل
 الأحكام من أهمها ما يأتى :

١ - أن هذه الآية وضحت أن غنائم الحرب خمس ، فيجعل الخمس الأول
 نها لله وللرسول ولذئ القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . والأربعة

الأخماس الباقية بينت السنة أنها تقسم على الجيش : للراجل منهم ، والفارس ثلاثة أسهم أو سهمان .

قال ابن كثير : ويؤيد هذا ما رواه البيهقي بإسناد صحيح عن عبد الله بن شقيق عن رجل قال : أتيت النبي - ﷺ - ، وهو بوادي القرى ، وهو معترض فرسا فقلت : يا رسول الله ، ما تقول في الغنيمة ، فقال : لله خمسة أسهم وأربعة أخماسها للجيش ، قلت : فما أحد أولى به من أحد ، قال : لا ، ولا سهم تستخرجه من جيبيك ، ليس أنت أحق به من أخيك المسلم ، (١) .

وقال بعض العلماء : أفادت الآية أن الواجب في المغنم تخميسه ، وصرف الخمس إلى من ذكره الله تعالى . وقسمة الباقي بين الغنائمين بالعدل ، للراجل سهم ، ولل فارس ثلاثة أسهم ، سهم له وسهمان لفارسه . وهكذا قسم النبي - ﷺ - الغنائم عام خيبر .

ومن الفقهاء من يقول : للفارس سهمان . والأول هو الذي دلت عليه السنة الصحيحة ، ولأن الفرس يحتاج إلى مؤته نفسه وسائسه ، ومنفعة الفارس به أكثر من منفعة رجلين .

ويجب قسمتها بينهم بالعدل ، فلا يهاجي أحد ، لا لرياسته ولا لنسبه ولا لفضله وفي صحيح البخاري أن سعد بن أبي وقاص رأى أن له فضلا على من دونه ، فقال النبي - ﷺ - : هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم ؟ (٢) .

ذهب جمهور العلماء إلى أن المقصود بالإيتاء بلفظ الجلالة في قوله : فإن لله خمسة ، : التبرك والتعظيم والحض على إخلاص النية عند القسمة ، وعلى الامتنال والملازمة له - سبحانه - .

وليس المقصود أن يقسم الخمس على ستة منها لله - تعالى - ، فإنه - سبحانه - له الدنيا والآخرة ، وله ما في السموات وما في الأرض وما بينهما .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣١١ .

(٢) تفسير القاسمي ج ٨ ص ٢٩٩٧ .

وعليه يكون خمس الغنيمة مقسما على خمسة أقسام : للرسول ، ولأبي
القريب واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل .

ويرى أبو العالية والربيع والقاسم أن هذا الخمس يقسم إلى ستة أقسام ،
حملا بظاهر الآية ، وأن سهم الله - تعالى - يصرف في وجوه الخير ،
أو يؤخذ للمكعبة .

وقد رجح ابن جرير رأى الجمهور فقال : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب
من قال : قوله : فإن لله خمسة ، افتتاح كلام ، وذلك لإجماع الحجة على
أن الخمس غير جائز قسمه على ستة أسهم . ولو كان لله فيه سهم - كما قال
أبو العالية - لوجب أن يكون خمس الغنيمة مقسوما على ستة أسهم .
ولما اختلف أهل العلم في قسمه على خمسة فما دونها .

فأما على أكثر من ذلك فلا نعلم قائلا قاله غير الذي ذكرنا من الخبر
عن أبي العالية . وفي إجماع من ذكرت الدلالة الواضحة على ما اخترناه (١) .

وسهم النبي - ﷺ - الذي جعله الله - تعالى - له في قوله : والرسول
كان مفروضا إليه في حياته ، يتصرف فيه كما شاء ، ويضعه حيث يشاء .

روى الإمام أحمد أن أبا الدرداء قال لعبادة بن الصامت : يا عبادة ،
ما كلمات رسول - ﷺ - في غزوة كذا وكذا في شأن الأخماس ؟ فقال
عبادة : إن رسول الله - ﷺ - صلى بهم في غزوهم إلى بعثهم
من المقسم . فلما سلم قام رسول الله - ﷺ - ص - فتناول وبرة بين أغلطين
فقال : إن هذه من غنائمكم ، وأنه ليس لي فيها إلا نصيبي معكم الخمس ، والخمس
مردود عليكم ، فأدروا الحيط والخير . وأكبر من ذلك وأصفر ، ولا تغفلوا
فإن الغلول نار ومار على أصحابه في الدنيا والآخرة ، وجاهدوا الناس في الله
تبارك وتعالى ، القريب والبعيد ، ولا لبالوا في الله لومة لائم ، وأقيموا الحدود

في الخضر والسفر ، وجاهدوا في سبيل الله ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة .
ينهى الله به من الغم والحلم ، قال ابن كثير : هذا حديث حسن عظيم .

وروى أبو داود والنسائي عن عمرو بن عبسة ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صلى بهم إلى بئر من المغنم ، فلما سلم أخذه وبرة من جنب البعير ثم قال : ولا يحمل لي من غنائمكم مثل هذا إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم (١)

هذا بالنسبة لسهمة - رضي الله عنه - في حياته ، أما بعد وفاته ، فمنهم من يرى : أن سهمة - رضي الله عنه - يكون لمن بلى الأمر من بعده .
روى هذا عن أبي بكر وعلى وقادة وجماعة . . .

ومنهم من يرى أن سهمة - صلى الله عليه وسلم - يصرف في مصالح المسلمين . روى ابن جرير عن الأعمش عن إبراهيم قال : كان أبو بكر وعمر يجملان سهم النبي - ص - في الكراع والسلاح .

ومنهم من يرى صرفه لبقية الأصناف : ذرى القري واليتامى والمساكين وابن السبيل .

وقد رجح ابن جرير هذا الرأي فقال : والصواب من القول في ذلك عندنا : أن سهم رسول الله مردود في الخمس ، والخمس مقسوم على أربعة أسهم على ما روى عن ابن عباس : للقراية سهم ، واليتامى سهم ، والمساكين سهم ، ولابن السبيل سهم ؛ لأن الله - تعالى - أوجب الخمس لأقوام وصوفين بصفات ، كما أوجب الأربعة الأخماس الآخرين . وقد أجمعوا أن حق الأربعة الخماس لن يستحقه غيرهم ، فكذلك حق أهل الخمس لن يستحقه غيرهم ، فغير جاز أن يخرج عنهم إلى غيرهم

٤ - المراد بذى القري - كما - بقى أن أشرنا - : بنو هاشم وبنو المطلب على الراجح . وعليه فإن السهم المخصص لذى القري لا يصرف إلا لهم -

قال القرطبي ما ملخصه : اختلف العلماء في ذوى القربى على ثلاثة أقوال :
أولها : أن المراد بهم قریش كلها : قاله بعض السلف ، لأن النبی
— ﷺ — لما صدق الصفا جعل يهتف يا بنى فلان يا بنى عبد مناف ...
أنفذوا أنفسكم من النار .

ثانيها : أن المراد بهم بنو هاشم وبنو المطلب . قاله الحنفى وأحمد
وأبو ثور ومجاهد ... لأن النبی — ﷺ — لما قسم سهم ذوى
القربى بين بنى هاشم وبنى المطلب قال : إنهم لم يفارقوا في جاهلية ولا إسلام
ولما بنو هاشم وبنو المطلب شئ واحد ، وهبك بين أصابعه . أخرجه
البيهاقى والفسائى ...

ثالثها : أن المراد بهم بنو هاشم خاصة . قاله مجاهد وعلى بن الحسين .
وهو قول مالك والثورى والأوزاعى وغيرهم (١) .

وقال الألوسى : وكيفية القسمة عند الأصحاب أنها كانت على عهد رسول
الله — ص — على خمسة أسهم سهم له — صلى الله عليه وسلم — ،
وسهم للمنفك كورين من ذوى القربى ، وثلاثة أسهم للأصناف الثلاثة الباقية .
وأما بعد وفاته — صلى الله عليه وسلم — فسقط سهمه ... وكذا سقط
سهم ذوى القربى ، ولما يعطون بالفقر ، ويقدم فقراؤهم على فقراء غيرهم ،
ولا حق لأغنيائهم ، لأن الخلفاء الأربعة قسموا الخمس كذلك وكفى بهم
قدوة ...

ثم قال : ومذهب المالكية أن الخمس لا يلزم تخميسه ، وأنه مفوض
إلى رأى الإمام .

— أى أنهم يرون أن خمس الغنيمة يجعل في بيت المال فينفق منه على من
ذكر وعلى غيرهم بحسب ما يراه الإمام من مصلحة المسلمين ، وكانهم يرون

أن هذه الأصناف إنما ذكرت على سبيل المثال ، وأنها من باب الخاص الذي قصد به العام ، بينما يرى غيرهم أن هذه الأصناف من باب الخاص الذي قصد به الخاص . . .

ثم قال : ومذهب الإمامية أنه ينقسم إلى ستة أسهم كما ذهب أبو العالية ، إلا أنهم قالوا : إن سهم الله - تعالى - ، وسهم رسوله - ﷺ - ، وسهم قوى القرى السكل للإمام القائم مقام الرسول - ﷺ - ، أما الأسهم الثلاثة الباقية فهم اليتامى من آل محمد - ﷺ - ، وسهم المساكينهم ، وسهم لأبناء سبيلهم ، لا يشركهم في ذلك غيرهم . رووا ذلك من زين العابدين ، ومحمد بن علي الباقر . . .

ثم قال : والظاهر أن الأسهم الثلاثة الأولى التي ذكروها اليوم تمخبا في السرداب ، إذ القائم مقام الرسول - ﷺ - قد غاب عنهم فتخبا له حتى يرجع من غيبته . . . (١) .

هذا ، ومن كل ما سبق نرى أن أكثر العلماء يرون أن خمس الغنيمة يقسم إلى خمسة أقسام ، ومنهم من يرى أنه يقسم إلى ستة أقسام ، ومنهم من يرى أنه لا يلزم تقسيمه إلى خمسة أقسام أو إلى ستة ، وإنما هو موكول إلى نظر الإمام واجتماده . . . ومنهم من يرى غير ذلك ، ولكل فريق أدلته المبسوطة في كتب الفروع ،

• ذكرنا عند تفسيرنا لقوله - تعالى - في مطلع السورة : يسألونك عن الأنفال . . . أن المراد بالأنفال : الغنائم وعليه تكون الآية التي معنا وهي قوله : واعدلوا إنما غنمتم . . . مفصلة لما أجملته الآية التي في مطلع السورة .

أي أن الآية التي في مطلع السورة بينت أن الأمر في قسمة الأنفال مفوض

لى الله ورسوله ، ثم جاءت الآية التى معنا ففصلت كيفية قسمة الغنائم حتى
يتطلع أحد إلى ما ليس من حقه .

وهذا أول من قول بعضهم : إن الآية التى معنا نسخت الآية التى فى مطلع
سورة ؛ لأن النسخ لا يصار إليه إلا عند التعارض وهنا لا تعارض
ن الآيةين .

٦ - الآية الكريمة أرشدت المؤمنين إلى أن من الواجب عليهم أن
يأبوا فى طاعتهم لله - تعالى - ورسوله - صلى الله عليه وسلم - ، وأن يحملوا
نهم من جهادهم لإعلاء كلمة الله ، أى يكونوا مؤمنين حقا .

ويشعر بهذا الإرشاد تصديره - سبحانه - الآية بقوله : « واعلموا أنما
نتم من كل شئ » فإن الله خمس ... كما يشعر به قوله - تعالى - « إن كنتم
تم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان . » ، فإن كل ذلك فيه معنى الحفز
إلى خلاص للنية لله - تعالى - ، والامتثال لحكمه ، والمداومة على شكره ،
ن منحهم - سبحانه - هذه النعم بفضله وإحسانه ، وإلى هذا المعنى أشار
حب للكشاف بقوله : « فإن قلت : هم نعلق قوله « إن كنتم آمنتم بالله » ،
بمحذوف يدل عليه قوله « واعلموا أنما غنمتم .. » والمعنى : « إن كنتم
م بالله فاعلموا أن الخس من الغنمة يحجب التقرب به ، فاقطعوا عنه
عكم وافتنعوا بالأخماس الأربعة . وليس المراد بالعلم المجرد ، ولأنه
المضمن بالعمل ، والطاعة لأمر الله - تعالى - ، لأن العلم المجرد يستوى فيه
ن والكافر ، (١) .

هذه بعض المسائل والأحكام التى استنبطناها من الآية الكريمة ، وهناك
، وأحكام أخرى تتعلق بها ذكرها بعض المفسرين فارجع إليها .
نت (٢) .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٢٢ .

(٢) راجع تفسير القرطبي ج ٨ من ص ١ إلى ص ٢٠ .

لم حكى - سبحانه - بعض مظاهر فضله وحكمه في خروجه بدر ، فبين
الأمكن التي نزل فيها كل فريق ، كما بين الحكمة في لقاء المؤمنين والكافرين
على غير ميعاد ، والحكمة في تقليل كل فريق منها في عين الآخر ...

فقال - تعالى - : إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدَّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ

الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ اسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَدِ
وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ
وَيُحْيِي مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ
فِي مَنَامِكُمْ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَثِيرًا لَفَسَلْتُمْ وَلَتَنْتَزِعَنَّ فِي الْأَمْرِ
وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذْ
الْتَقَيْتُمْ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي آعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا
كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

قوله : : إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدَّنْيَا ... ، بدل من قوله ، يوم الفرقان ...
أو معمول لفعل عذوف ، والتقدير : اذ گروا .

والعدوة - مثلثة العين - جانب الوادي وحافته - وهي من العدو بمعنى
التجاوز - سميت بذلك لأنها هدت - أي منعت - مافي الوادي من ماء ونحوه
أن يتجاوزها .

والدنيا : تأنيب الأدنى بمعنى الأقرب ، والقصوى : تأنيب الأقصى بمعنى الأبعد .
والركب : اسم جمع لراكب - وهم العشرة فصاعداً من راكبي الإبل -

قال الفرطبي : ولا نقول العرب : ركب إلا للجاهل الرأى الإبل ..
والمراد بهذا الركب : أبو سفيان ومن معه من رجال قريش الذين كانوا
قادمين بشجارتهم من بلاد الشام ومتجهين به إلى مكة ، فلما بلغ النبي
— ص — أمرها ، أشار على أصحابه بالخروج للملاقاة ، كما سبق أن بيناه
تفسيرنا لقوله - تعالى - د كما أخرجك ربك من بيتك بالحق

والمعنى : اذكروا - أيها المؤمنون - وقت أني خرجتم إلى بدر ، فسرتم
إلى أن كنتم د بالعدوة الدنيا ، أي : بجانب الوادي وحافته الأقرب إلى
المدينة ، وكان أعداؤكم الذين قدموا لنجدة العير د بالعدوى القصوى ، أي :
بالجانب الآخر الأبعد من المدينة ، وكان أبو سفيان ومن معه من حراس
العير د أسفل منكم ، أي : في مكان أسفل من المكان الذي أنتم فيه ،
بالقرب من ساحل البحر الأحمر ، على بعد ثلاثة أميال منكم .

قال الجمل : قوله د والركب أسفل منكم ، الأحسن في هذه الواو ، والواو
التي قبلها الدخلة على دم ، أن تكون عاطفة ما بعدها على د أنتم ، لأنها
مبدأ تقسيم أحوالهم وأحوال عدوهم ويجوز أن يكونا واو حال ، وأسفل
منسوب على الطرف الغائب عن الخبر ، وهو في الحقيقة صفة نظرف مكان
محذوف . أي : والركب في مكان أسفل من مكانكم وكان الركب على
ثلاثة أميال من بدر (١) ، ...

وقال الإمام الزمخشري - رحمه الله - فإن قلت : ما فائدة هذا التوقيت ،
وذكر مراكز الفريقين ، وأن العير كانت أسفل منهم ؟

قلت : الفائدة فيه الإخبار عن الحال الدالة على قوة الشان للعدو ، وتكامل
عدته ، وتمهد أسباب الغلبة له ، وضعف شان المسلمين ، والنيات أمرهم ، وأن
خيلهم في مثل هذه الحال ليست إلا صنماً من آفة - سبحانه - ، ودليلاً على
أن ذلك أمر لم يقيس إلا بحوله وقوته وباهر قدرته .

وذلك لأن العدو القصى الذى أفاخ بها المشركون، كل فيها الماء، وكانت أرضاً لا يأمن بها، ولا ماء بالعدو الدنيا، وهى خبار - أى أرض ليثة وخوة - تسوخ فيها الأرجل، ولا يمشى فيها إلا بتطبوء شقة.

وكانت المعير وراء ظهور العدو، مع كثرة عددهم، فكانت الحماة دونها تضاعف حميتهم، وتشجعوا فى المقاتلة عنها نياتهم، ولهذا كانت العرب تخرج إلى الحرب بظعنهم وأموالهم، ليعينهم اللب من الحريم على بذل جهيدتهم فى القتال . . .

وفيه تصوير مادبر - سبحانه - من أمر غزوة بدر، ليقضى أمراً كان مفعولاً، ومن إعزاز دينه، وإعلاء كلمته، حين وعد المسلمين إحدى الطائفتين مهمة غير مبدئية حتى خرجوا إليها أخذوا المعير راغبين فى الخروج، وأقلق قريشاً ما بلغهم من تعرض المسلمين لأموالهم، فنفروا ليعينوا غيرهم، وسبب الأسباب حتى أفاخ هؤلاء بالعدو الدنيا وهؤلاء بالعدو القصى، ووراءهم المعير يحامون عليها، حتى قامت الحرب على ساق، وكان ما كان، (١).

وقوله: «ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد، ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولاً، ببيان تدبير الله الحكيم، وإرادته النافذة.

أى: لو تواعدتم وأهل مكة على موعد تلتقون فيه للقتال، لاختلفتم عن الميعاد المضروب بينكم، لأن كل فريق منكم كان سيتسبب الإقدام على صاحبه، ولكن الله - تعالى - بتدبيره الخفى شاء أن يجمعكم للقتال على غير ميعاد، ليقضى - سبحانه - أمراً كان مفعولاً، أى: ثابتاً فى علمه وحكمته، وهو: إعزاز الإسلام وأهله، وخذلان الشرك وحزبه.

روى ابن جرير من حديث كعب بن مالك - رضى الله عنه - قال: لما أخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمسلمون يريدون غير قريش،

حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد . وروى - أيضاً - عن
عمر بن إسحاق قال : أقبل أبو سفيان في الركب من الشام ، وخرج أبو جهل
ليمنعه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ، فالتقوا بيدرس
ولا يشمر هؤلاء هؤلاء ، ولا هؤلاء هؤلاء ، حتى انتفى السقاء . قال : ونظر
الناس بعضهم إلى بعض ، (١) .

وقوله : لهلك من لهلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة ، بدل من قوله
« ليقضى » بإعادة الحروف ، أو هو متعلق بقوله « فمغولا » .

والمراد بالهلاك والحياة هنا ما يشمل الحسى والمعنوى منهما .

والمراد بالبينة الحجة الظاهرة الدالة على حقيقة الإسلام وبطالان الكفر .

قال الألوسى : أى : لموت من يموت عن حجة عاينها ، ويعيش من يعيش
عن حجة شاهدها ، فلا يبقى محل للتمل بالاحذار ، فإن وقعة بدر من الآيات
الواضحة والحجج الغر المحججة .

ويجوز أن يراد بالحياة : الإيمان ، وبالموت : الكفر على سبيل الاستعارة
أو المجاز المرسل . أن يراد بالبينة : إظهار كمال القدرة الدالة على الحجة
لدافعة .

أى : ليصدر كفر من كفر وإيمان من آمن عن وضوح وبينة . وإلى هذا
ذهب قتادة وابن إسحاق . والظاهر أن « من » هنا بمعنى بعد كقوله تعالى -
عما قليل ليصبحن نادمين ، .

وقرأ نافع وابن كثير وأبو بكر ويعقوب ، « حي » - على وزن تعب -
نك الإدغام . وقرأ الباقون بإدغام اللام الأولى في الثانية على وزو شد ومد (٢)
وقوله ، وإن الله اسمع عالم ، تذييل قصد به القرع غيب في الإيمان - والقرع هيبه

(١) تفسير ابن جرير ج ١٠ ص ١١ .

(٢) تفسير الألوسى ج ١٠ ص ٧ - بتصرف وتلخيص .

عن الكفر . أى : وإن الله لسميع لأقوال أهل الإيمان والكفر ، عليم بما
يعطون عليه قلوبهم وضمائرهم ، وسيجازى - سبحانه - كل إنسان بما يستحقه
من ثواب أو عقاب على حسب ما يعلم وما يسمع منه .

ثم بين - سبحانه - بعض وجوه نعمه على المؤمنين ، وتوبيخه الخلق
لنصرهم وفوزهم فيقول : إذ يريكم الله في إيمانكم قليلا ، ولو أراكم كثيرا
لفعلتم وانتازعتم في الأمر ، ولكن الله سلم لأنه عليم بذات الصدور .

أى : اذكروا يا محمد فضل الله عليكم وعلى أصحابك ، حيث أراك في
مفامك للكافرين قليلا عددهم ، ضئيلا وزنهم ، فأخبرت بذلك أتباعك فازدادوا
ثباتا واطمئنانا وجرأة على عدوهم ، ولو أراكم كثيرا ، أى : ولو أراك
الأعداء عددا كثيرا ، لفعلتم ، أى : لنهيبكم الإقدام عليهم ، لكثرة عددهم
ومن الفشل وهو ضعف مع جين ، وانتازعتم في الأمر ، أى : في أمر
الإقدام عليهم والإحجام عنهم ، فنكم من يرى هذا ومنكم من يرى ذلك .
وقوله ، ولكن الله سلم ، بيان لحل النعمة . أى . ولكن الله - تعالى -
بفضله وإحسانه أنعم عليكم بالسلامة من الفشل والتنازع وتفرق الآراء في
شأن القتال : حيث ربط على قلوبكم ، ورزقكم الجرأة على أعدائكم وعدم
اللبالة بهم بسبب رؤيا نبيكم .

وقوله : إنه عليم بذات الصدور ، تذييل يدل على شمول علمه - سبحانه -
أى : إنه - سبحانه - عليم بكل ما يحصل في القلوب وما يخطر بها من
شجاعة وجبن ، ومن صبر وجور ولذلك دبر ما دبر .

قال الفخر الرازى ، قال مجاهد : أرى الله النبي - صلى الله عليه وسلم -
كفار قریش في مفامه قليلا ، فأخبر بذلك أصحابه فقالوا : رؤيا النبي حق -
القوم قليل . فصار ذلك سببا لجرأتهم وقوة قلوبهم .

فإن قيل : رؤية الكثير قليلا غلط ، فكيف يجوز من الله - تعالى - أن
يشمل ذلك ؟

قلنا : قد بينا أنه - تعالى - يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وإيضاحه - سبحانه -
أراد البعض دون البعض لحكم الرسول على أولئك الذين رآهم بأنهم قليلون ، (١)
ونستطيع أن نضيف إلى ما أجاب به للفخر الرازي أنه يجوز أن يكون
المراد بالقلّة : الضعف وهو أحد الشأن . .

أى : أن المشركين وإن كانوا فى حقيقة تم يقاربون الألف - أى أكثر من
ثلاثة أمثال المؤمنين - إلا أنهم لا قوة لهم ولا وزن ، فهم كثير عددهم ولكن
قليل غناؤهم ، قليل وزنهم فى المعركة . لأنهم يتقصم الإيمان الصحيح الذى
يقوى القلوب ، ويدفع النفوس إلى الإقدام لنصرة الحق . لكن نفوز برضا الله
وحسن مثوبته .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب المنار بقوله : وقد تقدم أن النبى - صلى -
قدّر عدد المشركين بألف وأخبر أصحابه بذلك ، ولكنه أخبرهم مع
هذا أنه رآهم فى منامه قليلا ، لا أنهم قليل الواقع ، فالظاهر أنهم أولوا
للرؤيا بأن يلاهم يكون قليلا ، وأن كيدهم يكون ضعيفا ، فتجروا
وقوت قلوبهم .

هذا ، ونسب إلى الحسن أنه ذكر أن هذه الآراء كانت فى اللفظة ، وأن
المراد من المنام العين التى هى موضع النوم . قال الزخشري : وهذا تفصيل فيه
تعسف . وما أحسب الرواية صحيحة فيه عن الحسن .

وقال الألوسى : وعن الحسن أنه فسر المنام بالعين ، لأنها مكان النوم كما
يقال للقطيفة المنامة لأنها ينام فيها ، فلم تكن عنده هناك رؤيا أصلا بل كانت
رؤية ، وإليه ذهب البلخى . ولا يخفى ما فيه لأن المنام شائع بمعنى النوم مصدر
ميمى . . فى الحبل على خلاف ذلك تعقيد ولا نسكت فيه . . على أن الروايات
الجملة برؤيته - صلى الله عليه وسلم - إياهم مناما ، وقص ذلك على أصحابه .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١ ص ١٦٩ (٢) تفسير المنار ج ١ ص ٢٢٠

مشهورة ، لا يعارضها كون العين مكان النور نظرا إلى الظاهر .. ولعل الرواية عن الحسن غير صحيحة ، فإنه الفصيح العالم بكلام العرب (١) .

وقوله - تعالى - : « وإذ يريكهم إذ التفتيتهم في أعينكم قليلا وبفللهم في أعينهم . . . » معطوف على ما قبله وهو قوله « وإذ يريكهم الله في منامك قليلا . . . » وذلك لتأكيد الرؤيا المنامية بالرؤية في اليقظة .

والمعنى : واذكروا - أيها المؤمنون - وقت أن التفتيت مع أعدائكم وجها لوجه في بدر ، فكان من فضل الله عليكم قبل أن تلتحموا ، مهم أن جعل هددهم قليلا في أعينكم ، وجعل عددكم قليلا في أعينهم ، وذلك لإغرائهم على خوض المعركة .

أما أنتم فتخوضونها بدون مبالاة بهم لقائهم في أعينكم ، ولتفتكم بنصر الله إياكم . . .

وأما هم فتخوضونها معتمدين على غرورهم وبطوهم ولتتكم في أعينهم ، فيترب على ذلك أن يقر كوا الاستعداد اللادم لقتالكم ، فتكون الدائرة عليهم . . .

قال ابن مسعود - وهو عن حنظل بن براء - : « لقد نلوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي : أترأهم سبعين ؟ قال : أراهم مائة ، فأسرنا رجلا منهم فقلنا له : كم كنتم ؟ »

قال : ألفا (٢) .

وقال أبو جهل - في ذلك اليوم وقبل الالتحام - : إن محمدا وأصحابه أكلة جرور - أي هم قليل يشبعهم لحم ناقة واحدة - خذوهم أخذاً وأربطوهم بالحبال . . . (٣)

(١) تفسير الآلوسي ج ١٠ ص ٨ (٢) تفسير ابن جرير ج ١٩ ص ١٣

(٣) تفسير القرطبي ج ٨ ص ٢٢

وقد أجاد صاحب الكشف عند تفسيره لهذه الآية حيث يقول: قوله
 « وإذ برؤوسهم ، الضمير ان مفعولان : يعنى : وإذا يبصركم إياهم . و « قلبلا »
 حال . وإنما قللم في أعينهم تصديقاً لرؤيا رسول الله — ﷺ — ،
 وليعلموا ما أخبرهم به فيزداد يقينهم ويحمدوا ويشكروا . . .
 فإن قلت : للغرض من تقليل الكفار في أعين المؤمنين ظاهر ، فالغرض
 من تقليل المؤمنين في أعينهم ؟

قلت : قد قللم في أعينهم قبل اللقاء ، ثم كثرهم فيها بعده ، ليجتروا
 عليهم ، فله مبالاة بهم . ثم تفجؤهم الكثرة فيهنوا وإيهابوا ، وتقل شوكتهم ،
 حين يرون ما لم يكن في حسابهم وتقديرهم ، وذلك قوله « قد كان لكم
 آية في فتنتي البقعة ، فثة تقايل في سبيل الله وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم
 رأى العين » . (١) وثلاثا يستعيدوا لهم ، وليعظم الاحتجاج عليهم باستيضاح
 الآية البينة من قللمهم أولاً ، وكثرهم آخرها .

ثم قال : فإن قلت : بأي طريق يبصرون الكثير قليلاً ؟

قلت : بأن يستر الله عنهم بعضه يسائر ، أو يحدث في عيونهم ما يستقلون به
 للكثير ، كما أحدث في أعين الحول ما يرون به الواحد اثنين .

قيل لبعضهم : إن الأحوال يرى الواحد اثنين . وكان بين يديه ذلك
 واحد — فقال : ما لي لا أرى هذين الديكيتين أربعة ، (٢) .

وقوله — سبحانه — « ليقضى الله أمراً كان مفعولاً وإلى الله ترجع
 الأمور » بيان لحكمه تدبيره ، ونفاذ قدرته ، وشمول إرادته .

أى : فعل — سبحانه — ما فعل من تقليل كل فريق في عين الآخر
 ليقضى أمراً كان مفعولاً ، أى : ثابتاً في علمه وحكمته ، وهو نصب البقعة

(١) سورة آل عمران الآية ١٣

(٢) تفسير الكشف ج ٢ ص ٢٢٥

المفضى إلى انتصار المؤمنين، واندحار الكافرين. وإلى الله وحده ترجع الأمور لا إلى إحد سواه ، فإن كل شيء عنده بمقدار . ولا ينفذ شيء في هذا المكون إلا بقضائه وقدره ، وما من شيء إلا مصيره ومرده إليه .

قال بعض العلماء : ولا يقال إن قوله — تعالى — : « ليقضى الله أمراً كان مفعولاً » مكرر مع ماسبق ، لأننا نقول : إن المقصود من ذكره أولاً في قوله : « إذ أنتم بالعدوة الدنيا . . . » هو اجتماعهم بلا ميعاد ، ليحصل استيلاء المؤمنين على الكافرين ، على وجه يكون معجزة دالة على صدق النبى — ص — والمقصود منه هنا بيان عارق آخر ، وهو تغليبهم في أعين المشركين ثم تكثيرهم للحكم المقدمة ، (١) .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد حكمت لنا جانباً من أحداث غزوة بدر بأسلوب تصويرى بديع في استحضاره لمشاهدها ومواقفها ، وكشفت لنا عن جوانب من مظاهر قدرة الله ، ومن تدييره المحكم الذى كان فوق تدبير البشر ، ومن تهيئة الأسباب الظاهرة والخفية التى أدت إلى نصر المؤمنين وخذلان الكافرين .

وبعد هذا التذكير الكبير بالنافع ، والتصوير المؤثر لأحداث غزوة بدر ، وجهه سبحانه - في هذه السورة إلى المؤمنين النداء السادس والآخر ، حيث أمرهم بالثبات في وجه أعدائهم ، وبالمداومة على ذكره وطاعته . . . ونهاهم عن التنازع والاختلاف فقال — تعالى — : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾
وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ
وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾

وقوله : « لقيتم » من اللقاء بمعنى المقاتلة والمواجهة ، ويغاب استعماله في لقاء القتال وهو المراد هنا .

وقوله : « فئة » أى : جماعة ، مشتقة من الفى - بمعنى الرجوع ، لأن بعضهم يرجع إلى بعض .

والمراد بها هنا : جماعة المقاتلين من الكافرين وأشباههم .
والمتنبع لاستعمال القرآن لهذه الكلمة ، يراه يستعملها في الأعم الأغلب - في الجماعة المقاتلة أو الناصرة أو ما يشبه ذلك .

قال - تعالى - : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ... » (١) .

وقال - تعالى - : « قد كان لكم آية في فتنتين اللتين فئة تقاوت في سبيل الله وأخرى كافرة ... » (٢) .

وقال - تعالى - : « ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا » (٣) .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا بالله حق الإيمان ، إذا لقيتم فئة ، أى : حاربتم جماعة من أعدائكم ، فاقبضوا ، واقتلهم ، واغلظوا عليهم في النزال ، ولا تولوهم الأدبار ، واذكروا الله كثيرا ، لاسيما في مواطن الحرب ، فإن ذكر الله عن طريق القلب واللسان من أعظم وسائل النصر : لأن المؤمن متى استحضر عظمة الله في قلبه لا تهوله قوة عدوه ، ولا تخيفه كثرة .

وقوله « لعلكم تغلحون » أى : لعلكم تظفرون بمرادكم من النصر وحسن الثواب ، متى فعلتم ذلك عن إخلاص .

(١) سورة البقرة الآية ٢٤٩ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٣ .

(٣) سورة الكهف الآية ٤٣ .

وقوله ، وأطيعوا الله ورسوله ، معطوف على ما قبله ، أى : انبئوا عند لقاء الأعداء ، وأكثروا من ذكر الله ، وأطيعوا الله ورسوله فى كل أقوالكم وأعمالكم ، وفى سركم وجهركم ، وفى كل ما تأفون وما تذكرون .

وقوله ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، نهي لهم عن الاختلاف المؤدى إلى الفشل وخضائع القوة بعد أمرهم بالثبات والمداومة على ذكر الله وطاعته .

وقوله ، تنازعوا ، من النزاع بمعنى الجذب وأخذ الشيء والتنازع والمنازعة المجاذبة كأن كل واحد من المتنازعين يريد أن ينزع ما عند الآخر ويلقى به .

والمراد بالتنازع هنا : الخصام والجدال والاختلاف المفضى إلى الفشل أى : الضعف .

قال الألوسى : وقوله : وتذهب ريحكم ، ، قال الأخفش : الريح مستعارة للدولة . لشيئها بها فى نفوذ أمرها وتمشيها . ومن كلامهم هبت رياح فلان إذا دالت له الدولة وجرى أمره على ما يريد . وركدت رياحه إذا ولى عنه وأدبر أمره . قال الشاعر :

إذا هبت رياحك فاغتنمها فإن لكل خافقة سكون
ولا تنفل عن الإحسان فيها فما تدرى السكون متى يكون (١)
والمعنى : كونوا - أيها المؤمنون - ثابتين ومستمرين على ذكر الله وطاعته عند لقاء الأعداء ، ولا تنازعوا وتختصموا وتختلفوا ، فإن ذلك يؤدى بكم إلى الفشل أى الضعف ، وإلى ذهاب دولتكم ، وهوان كاهنكم ، وظهور عدوكم عليكم .

وواصبروا ، على شدة اند الحرب ، وعلى مخالفة أهوائكم التى تحمىكم على التنازع ، ، إن الله مع الصابرين ، بتأييده ومعاونته ونصره .

هذا والمتأمل في هاتين الآيتين يرأى قد رسما للمؤمنين مع كل زمان ومكان الطريق التي توصلهم إلى الفلاح والظفر .

لأنهما يأمران بالثبات، وللتثبات من أعظم وسائل النجاح، لأنه بمعنى ترك اليأس والتراجع وأقرب الفريقين إل النصر أكثرهما ثباتا .

ويأمران بمداومة ذكر الله ، لأن ذكر الله هو الصلة التي تربط الإنسان بحالقه الذي بيده كل شيء ، ومتى حسنت صلة الإنسان بحالقه ، صغرت في عينه قوة أعدائه مهما كثرت .

ويأمران بطاعة الله ورسوله ، حتى يدخل المؤمنون المعركة بقلوب نقية ، وبنفوس صافية . . . لا مكان فيها للتنازع والاختلاف المؤدى إلى الفشل ، وذهاب القوة . . . ويأمران بالصبر ، أى بتوطين النفس على ما يرضى الله ، واحتمال المكاره والمشاق في جلد . وهذه الصفة لا بد منها لمن يريد أن يصل إلى آماله وغاياته .

ورحم الله الإمام ابن كثير فقد قال عند تفسيره لهاتين الآيتين الكريمتين :
« هذا تعليم من الله - تعالى - لعباده المؤمنين آداب اللقاء ، وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء . »

وقد ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - انتظر في بعض أيامه التي أتى فيها العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال : يا أيها الناس لا تتمموا لقاء العدو واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ثم قام وقال : اللهم منزل الكتاب ، وجري السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم . .

وفي الحديث الآخر المرفوع يقول الله - تعالى - . . « إن عبيدى كل عبيدى الذى يذكرنى وهو مناجز قرنه ، أى : لا يشغله ذلك الحال عن ذكرى ودعائى واستعانى . »

وعن قتادة في هذه الآية : « افترض الله ذكره عند أشغل ما يكون .
عند الضرب بالسيف » .

ثم قال : « وقد كان الصحابة - رضي الله عنهم - في باب الشجاعة والانتهاز بما أمرهم الله ورسوله ، وامثال ما أرشدهم إليه ، ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم ، ولا يكون لأحد من بعدهم ، فإنهم ببركة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وطاعته فيما أمرهم ، فتحروا القلوب والأقاليم شرقاً وغرباً ، في المدة اليسيرة مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم من الروم والفرس ... قهرُوا الجميع حتى علت كلمة الله وظهر دينه على سائر الأديان ، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها في أقل من ثلاثين سنة فرضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين ، وحشرنا في زمريهم لأنه كريم وهاب (١) . » .
وبعد هذه التوجيهات السامية التي رسمت للمؤمنين طريق النصر ، نهاهم سبحانه عن التشبه بالكافرين صدهم الشيطان عن السبيل الحق ، فقال تعالى :

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ هُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّهُمْ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

قال الفخر الرازي عندي تفسيره لقوله - تعالى - « ولا تكونوا كالذين خرجوا ... » المراد قريش حين خرجوا من مكة لحفظ العير . خرجوا بالقبان والمغنيات والمعازي ، فلما وردوا الجحفة ، بعث خفاف السكتاني - وكان صديقاً لأبي جهل - يهدايا إليه مع ابن له ، فلما أتاه قال : إن أبي ينعمك صباحاً ويقول لك : إن شئت أن أمدك بالرجال أمددك ، وإن شئت أن أزحف إليك بمن معي من قرابتي فعلت .

فقال أبو جهل : قل لأبيك جزاك الله ولرحم خيراً . إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد فوالله ما لنا بالله طاقة . وإن كنا إنما نقاتل الناس ، فوالله إن بنا على الناس لقوة .

والله ما ترجع عن قال محمد حتى نرد بدرأ فنشرب فيها الخمر ، وتعزف فيها القيان ، فإن بدرأ موسم من مواسم العرب ، وسوق من أسواقهم . وحتى تسمع العرب - بمنخرجنا منها بنا آخر الأبد - .

قال المفسرون : فوردوا بدرأ ، وشربوا الكؤوس المنابيا مكان الخمر ، وناحت عليهم الذوائح مكان القيان ، (١) .

وقوله « بطراً » مصدر بطر - كفرح - ومعناه - كما يقول الراغب - دهش يعترى الإنسان من سوء احتمال النعمة ، وفلة القيام بحققها ، وصرفها إلى غير وجهها ، (٢) .

أي أن البطر ضرب من التكبر والغرور واتخاذ نعم الله - تعالى - وسيلة إلى ما لا يرضيه وهو مفعول لأجله ، أو حال أي حال كونهم بطرين .

وقوله « رثاء » مصدر رآى ومعناه : القول أو الفعل الذي لا يقصد منه الإخلاص ، وإنما يقصد به المتظاهر وحب التناء .

(١) تفهيم الفخر الرازي ج ١٥ ص ١٧٢ .

(٢) المفردات في غريب القرآن ص ٥٠ .

والمعنى : كونوا أيها المؤمنون - ثابتين عند لقاء الأعداء ، ومكثرين
 من ذكر الله وطاعته ، وصابرين في كل المراتب . . واحذروا أن تقسبوا
 بأولئك المشركين الذين خرجوا من مكة بطرا ورتاء الناس ، أي خرجوا
 غرورا وفخرا وتظاهرا بالشجاعة والحمية . . . حتى ينالوا الثناء منهم . .

وقوله : « ويصدون عن سبيل الله » معطوف على « بطرا » ، والسبيل :
 الطريق الذي فيه سهولة . والمراد بسبيل الله : دينه . لأنه يوصل للناس
 إلى الخير والفلاح .

أي : خرجوا بطرين بما أتوا من نعم ومراتب بها الناس ، وصادين
 إليهم من دين الإسلام الذي يأتيه يصلون إلى السعادة والنجاح .

وعبر عن بطرهم وريائهم بصيغة الاسم الدال على التمكن والثبوت ،
 وعن صدهم بصيغة الفعل الدال على التجدد والحدوث ، الإشعار بأنهم كانوا
 مجبولين على البطر والمفاخرة والرياء ، وأن هذه الصفات دأبهم ودينتهم ،
 أما الهد عن سبيل الله فلم يحصل منهم إلا بعد أن دعا الرسول - ص -
 الناس إلى الإسلام .

وقوله : « واقع بما يعملون محيط » تفيد قصد به التحذير من الانصاف
 بهذه الصفات الذميمة ، لأنه سبحانه محيط بكل صغيرة وكبيرة ، وسيجازي
 الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازي الذين أحسنوا بالحسنى . فعلى المؤمنين أن
 يخلصوا لله - تعالى - أعمالهم .

وقوله : « وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس
 وإني جار لكم . . » تذكير للمؤمنين بما خدع به الشيطان الكافرين من وهود
 كاذبة ، وأمانى باطلة .

والمراد بهذا التذكير : حضهم على المداومة على طاعة الله وشكره ، حيث
 يلزمه - سبحانه - لم يعلمهم كأولئك الذين استحوذ عليهم الشيطان .

والمعنى : احفروا - أي المؤمنون - أن تذهبوا بأولئك الذين خرجوا من ديارهم بطرا ومفاخرة . . واذكروا وقت أن زين لهم الشيطان أعمالهم ، في معاداتكم ، بأن وسوس لهم بأنهم على الحق وأنتم على الباطل ، وحسن لهم ما جيلوا عليه من غرور ومرااة ، وأوهمهم بأن النصر سيكون لهم عند لقاءكم ، بأن قال لهم : لا غالب لكم اليوم من الناس وإنني جار لكم ، أي : إن يغلبكم أحد من الناس ، لا عهد - ص - وأصحابه ، ولا غيرهم من قبائل العرب ، وإن يغير ومعين وناصر لكم ، إذ المراد بالجار هنا : الذي يغير غيره . أي : يؤمنه بما يخاف ويخشى .

قال الألوسي : أي : ألقي في روعهم وخيل لهم أنهم لا يغلبون . لكثرة عددهم وعددهم ، وأوهمهم أن اتباعهم إياه . فيما يظنون أنها قربات - يجعله بغير أ لهم ، وحافظا لإياهم عن السوء حتى قالوا : اللهم انصر أهدي الفشتين ، وأفضل الدينين . فاقول مجاز عن الوسوسة . والإسناد في قوله : وإنني جار لكم ، منه قبيل الإسناد إلى السبب الداعي . و - لكم ، خبر ، لا ، أو صفة وغالب . والخبر محذوف . أي : لا غالب كائننا لكم موجود . و - اليوم ، معمول الخير . و - من الناس ، حال من ضمير الخير . . . (١) .

وقوله : فلما تراءت الفشتان نكص على عقبيه وقال إنني بريء منكم إنني أرى ما لا ترون ، إنني أخاف الله ، واقه شديد العقاب ، بيان لما فعله الشيطان وقاله بعد أن رأى ما رأى من قوة لاطافة له بها
وقوله : تراءت الفشتان . أي : تقاربتا بحيث صارت كل فئة ترى الأخرى بقوة واضحة ومنهم من جعل : تراءت ، بمعنى التقت وقوله : نكص على عقبيه ، أي : ولي هاربا ورجعا القم قرى . وأبطل كبده وذهب ما مناهم به من النصرة والعون يقال : نكص عن الأمر : نكوصا ونكصا أي : تراجع عنه وأحجم . والعقب : مؤخر القدم .

والمعنى : لقد حرص الشيطان جنوده من الكافرين على حربكم - أيها المؤمنون - ، ومناهم بالنصر عليكم ... ولكنه حينئذ اتراة الفتنان : قتلكم وفتنة ، ورأى ما أمركم الله به الملائكة ، ولما مدبرا وقال الكافرين : « إني برى منكم ، أي : من هديكم وجواركم ونصركم » ، « إني أرى » من الملائكة النازلة لأعيد المؤمنين ما لا ترونه أنتم ، إني أخاف الله ، أن يعذبني قبل يوم القيامة ، أو إني أخاف الله أن يصيبني بمكره من قبل ملائكته . وقوله « والله شديد العقاب » ، يحتمل أنه من كلام إبليس الذي حكام الله - تعالى - عنه ، ويحتمل أنه جملة مستأنفة من كلامه . عز وجل .

أي : والله شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره .

هذا ، وهناك قولان في كيفية تزوين الشيطان للمشركين :

أحدهما : أن هذا التزوين لم يكن حسيا ، وإنما كان مهنويا عن طريق الوسوسة دون أن يتحول الشيطان إلى صورة لإنسان . وعليه يكون قوله « لا غالب لكم اليوم . . . » مجازا عن الوسوسة . قوله « نكس على عقبه » ، استمارة لبطان كيده ، شبه يطلان كيده بعد وسوسته بمن رجع القهقري عما يخافه .

وثانيهما : أن هذا التزوين كان حسيا بمعنى أن الشيطان تمثل لهم في صورة إنسان ، وقال لهم ما قال لما حكام الله - تعالى - عنه .

وقد ذكر صاحب الكشف هذين الوجهين في تفسير الآية فقال : واذكر « إذ زين لهم الشيطان أعمالهم » ، التي عملوها في معاداة رسول الله ﷺ - ، ووسوس إليهم أنهم لا يفلحون ولا يطاقون ، وأوهمهم أن اتباع خطوات الشيطان وطاعته مما يجيرهم ، فلما تلاقى الفريقان نكس الشيطان وتبرأ منهم ، أي : بطل كيده حين نزلت جنود الله .

وكذا عن الحسن - رحمه الله - قال : كان ذلك على سبيل الوسوسة

ولم يتمثل لهم .

وقيل : لما اجتمعت قريش على السير - لحرب المسلمين في بدر - ذكرت الذي بينها وبين كنانة من الحرب ، فكاد ذلك يثنيهم عن حرب المسلمين ، فتمثل لهم إبليس في صورة سراقه بن مالك بن جعشم الشاعر الكناني - وكان من أشرفهم - في جند من الشياطين معه رايه وقال : لا غالب لكم اليوم وإنى مجيركم من بنى كنانة . فلما رأى الملائكة تنزل ، نكص .

وقيل : كانت يده في يد الحارث بن هشام ، فلما نكص قال له الحارث : إلى أين ؟ أتخذلنا في هذه الحال ؟ فقال : إني أرى ما لاترون ، ودفع صدر الحارث وانطلق وانهموا .

فلما بلغوا مكة قالوا : هزم الناس سراقه ، فبلغ ذلك سراقه فقال : واه ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم . فلما أسلموا هادوا أنه للشيطان . وفي الحديث - الذي أخرجه مالك في الموطأ - : وما رى إبليس يوماً أصفر ولا أدهر ولا أغيط منه في يوم هرة ، لما برى من نزول الرحمة ، إلا ما رى يوم بدر ، (١) .

وقد ذكر ابن جرير وابن كثير روايات أخرى تتفق في جعلتها مع ما ذكره صاحب الكشف ، وإن كانت تختلف عنها في التفصيل ، ومن ذلك قول ابن جرير :

« وكان تزيينه ذلك لهم كما حدثني المثنى قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، قال : حدثني معاوية بن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رايته في صورة رجل من بنى مدلج ، في صورة

(١) تفسير الكشف ج ٢ ص ٢٢٧ وقوله : « ولا أدهر » ، الدحور : الطرد والإبعاد . قال ابن حجر : والحديث أخرجه مالك في الموطأ من رواية طلحة ابن عبيد الله ابن كريب مرسلًا ، ومن طريق مالك أخرجه عبد الرزاق والطبري والبيهقي في الشعب ، وانفراد أبو النضر بن إسماعيل بن إبراهيم العجلي عن مالك فقال : عن طلحة عن أبيه : قال ابن عبد البر : للصواب مرسل ، حاشية الكشف ج ٢ ص ٢٢٨ .

حسرة بن مالك بن جعشم ، فقال الشيطان للمشركين : لا غالب لكم اليوم مع الناس وإنى جار لكم ، فلما اصطاف الناس ، أخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبضة من الثراب ، فرمى بها في وجوه المشركين ، فولوا الأدبار . وأقبل جبريل إلى إبليس ، فلما رآه - وكانت يده في يد رجل من المشركين - انتزع إبليس يده فرأى مدبراً هو وشيعته .

فقال الرجل : يا سراقه تزعم أنك لنا جار ؟ قال : داني أرى ما لا ترون . إنى أخاف الله ، والله شديد العقاب . وذلك حين رأى الملائكة .

ثم قال : وحدثنا أحمد بن الفرج ، قال : حدثنا عبد الملك بن العريز الماجشون ، قال : حدثنا مالك ، عن إبراهيم بن أبي عبلة ، عن طلحة بن عبد ابن هبيرة بن كريب : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « ما رى إبليس يوماً هو فيه أصفر ولا أحقر ولا أغبط ولا أدر من يوم عرفة وذلك ما يرى من تنزيل الرحمة والغفر عن الذنوب ، إلا رأى يوم بدر . قالوا : يا رسول الله ، وما رأى يوم بدر ؟ قال : أما إنه رأى جبريل يزع الملائكة أى : يرتبهم ويسويهم ويصفهم للحرب ، (١) .

وقد سار - ابن جرير وابن كثير - في تفسيرهما للآية على أن التزيين من الشيطان كان حسباً .

فابن جرير يقول . بعد أن ذكر بضع روايات في تفسير الآية : فتأويل وإن الله اسمع عليم في هذه الأحوال ، وحين زين لهم الشيطان خروجهم إليكم . أيها المؤمنون لحربكم وقتالكم ، وحسن ذلك لهم ، وحشهم عليكم اليوم ، من بنى آدم ، فاطمئنوا وابشروا وإنى جار لكم من كثافة إن تأنيكم من ورائكم . . . واجعلوا جدكم وبأسكم على محمد وأصحابه . فلما تراءى

(١) تفسير ابن جرير ١٠ - ١٨ ، وتفسير ابن كثير ٢٠ - ٣١٧

الفتنان ، يقول : فلما تراخفت جنود الله من المؤمنين ، وجنود الشيطان من الكافرين ، وانظر بعضهم إلى بعض ونكص على عقبيه أى : رجع القمصر على قتله هارباً . . . وقال للمشركين : إني أرى مالا أقرون ، يعنى أنه يرى الملائكة الذين بعثهم الله مدداً للمؤمنين ، والمشركون لا يرونهم . . . (١) . وابن كثير يقول : وقوله - تعالى - : وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم . . . الآية .

أى : حسن لهم - لعنه الله - ما جاءه ، وما هو به . . . وذلك أنه تبدى لهم في صورة سراقه بن مالك بن جشم سين بنى مدلاج . . . ثم قال : فلما رأى إبليس الملائكة ونكص على عقبيه ، وقال إني أرى منكم إني أرى مالا أقرون . وهو في صورة سراقه ، وأقبل أبو جهمل يحض أصحابه ويقول لهم : لا يهولنكم خذلان سراقه إياكم ، فإنه كان على موعد من محمد وأصحابه . . . (٢) . ومن هذا يتضح أن هذين الإمامين الجليلين يسيران في تفسيرهما للآية الكريمة ، على أن التزيين كان حسياً ، ويحملان القول بغير ذلك ومن تابعهما في هذا الإمام القرطبي ، فقد ذكر بعض الروايات التي وردت في معنى الآية ، والتي صرحنا بأن الشيطان قد تمثل للمشركين في صورة إنسان ، وبني تفسيره الآية على ذلك . . . (٣) .

وقد خالف صاحب المنار هؤلاء الأئمة ، فرجع القول الأول وهو أن التزيين لم يكن حسياً ، أى أن ما قاله الشيطان لهم من قبيل الوسوسة ، وأنه لم يتمثل لهم في صورة إنسان .

فقد قال - رحمه الله - : قوله : : وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقاله

(١) تفسير ابن جرير ١٠ ص ٢٠

(٢) . . . كثير ٢ ص ٢١٧ ، ص ٢١٨

(٣) راجع تفسير القرطبي ٨ ص ٢٦

لا غالب لكم اليوم من الناس . . . أى : واذكر أيها الرسول المؤمنين
 - إذ زين الشيطان طؤلاه المشركين أعمالهم بسوسته ، وقال لهم بما ألقاه
 في هواجسهم لا غالب لكم اليوم من الناس .

فلما تراءت الفئتان فكس على هقيبه ، أى : فلما أقرب كل من الفريقين
 عن الآخر . . فكس ، أى : رجح القهقري . . والمراد أنه كف عن تزينه
 لهم ، وتغريه لإياهم ، فخرج الكلام مخرج التمثيل بتشبيهه وسوسته بما ذكر
 بحال المستقبل على الشيء ، وتركها بحال من ينكس عنه ويؤليه دبره . ثم زاد
 على هذا ما يدل براءته منهم ، وتركه لإياهم وشأنهم ، وهو : وقال لى يرى
 عنكم لى أرى مالا ترون لى أخاف الله ، أى : تبرأ منهم وخاف عليهم ،
 وأيس من حالهم لما رأى إمداد الله المسلمين بالملائكة .

ثم قال - بعد أن ضعف الروايات التى أوردها ابن جرير وابن كثير -
 والمختار عندنا فى تفسير الآية أن الشيطان ألقى فى قلوب المشركين أن أحدا
 لن يظلمهم . . (١) .

والخلاصة : أننا بمراجعة أقوال المفسرين فى كيفية تزيين الشيطان
 للمشركين ، فراهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

(أ) قسم منهم ذكر القولين السابقين كيفية التزيين دون أن يرجح
 أحدهما على الآخر ، ومن فعل ذلك . الزمخشري ، والفخر الرازي والآلوسى .

(ب) وقسم منهم سار فى تفسيره على أن التزيين كان حسياً ، بمعنى أن
 الشيطان تمثل للمفكرين فى صورة إنسان وقال لهم ما قال وأهمل القول بأن
 التزيين لم يكن حسياً ، ومن فعل ذلك ابن جرير ، وابن كثير ، والقرطبي
 (ج) وقسم منهم رجح أن التزيين لم يكن حسياً ، بل كان عن طريق

الوسوسة ، وأن الشيطان ما تمثل للمشركين في صورة إنسان ، وقد سار فيه هذا الاتجاه صاحب المنار مشككاً في صحة ما سواه .

والذى نراه بعد هذا العرض لأقوال المفسرين : أن الآية الكريمة صريحة في أن الشيطان قد زين للمشركين أعمالهم ، وأنه قد قال لهم - ما حكاه القرآن عنه - : لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم ، وأنه حين تراءى الجمعان كذب فعله قوله ، فقد تكص على عقيه ، وقال للمشركين الذين وعدهم ومناهم بالنصرة : إنى يرى منكم إنى أرى ما لا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب .

ومن المسير علينا بعد ذلك أن نحدد تحديداً قاطعاً كيفية هذا التزيين والقول والتكرار : أهو حسى أم غير حسى ؛ لأن التعديد القاطع لابد أن يستند إلى نص صريح في دلالاته على المعنى المراد ، وصحيح في نسبه إلى رسول الله - ﷺ - .

وهذا النص غير موجود ، لأن الحديث الذى أخرجه الإمام مالك في موطنه - والذى سبق أن ذكرناه - قال عنه ابن كثير وابن حجر إنه حديث مرسل ، وزيادة على ذلك ففي بعض رجاله من هو ضعيف الحديث كابن الماجشون ، ولأن الروايات التى رويت في تمثيل الشيطان بصورة سراقته قد جاء معظمها عن ابن عباس ، وابن عباس - كما يقول صاحب المنار - كان سنة يوم بدر خمس سنين . فروايته لأخبارها منقطعة .

إذا فنحن نؤمن بما أثبتته القرآن من أن الشيطان قد زين للمشركين أعمالهم ، وأنه قد قال لهم ما قاله - ما حكاه القرآن عنه - ، وأنه قد تكص على عقيه .. إلا أننا نستطيع أن نحدد كيفية ذلك .

ويعجنى في هذا المقام قول بعض الكتّابين عند تفسيره لهذه الآية : : وفي هذا الحادث نص قرآنى بثبوت منه أن الشيطان زين للمشركين أعمالهم ، وشجعهم

على الخروج . . . وأنه بعد ذلك ، فكيف على عقبيه . . . ، فخذاهم وتركهم بلا فون مصيرهم وحدهم .

والكننا لا نعلم الكيفية التي زين لهم بها أعمالهم والتي قال لهم بها : لا غالب لكم اليوم من الناس . . . والتي فكيف بها كذلك .

الكيفية فقط هي التي لا نجزم بها . ذلك أن أمر الشيطان كله غيب ، ولا سبيل لنا إلى الجزم بشيء من أمره إلا بنص قرآني أو حديث نبوي صحيح ، والنص هنا لا يذكر الكيفية إنما يشهد الحوادث .

فإلى هنا ينتهي اجتماعنا ، ولا نميل إلى المنهج الذي فتخذه مدرسة الشيخ محمد عبده في التغير من محاولة تأويل كل أمر غيبي من هذا القبيل تأويلاً معيناً ينفي الحركة الحسية من هذه العوالم ، وذلك كقول الشيخ رشيد رضا في تفسير الآية .

« وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم . . . أي واذكر أيها الرسول للمؤمنين إذ زين الشيطان لهم أولاء المشركين أعمالهم بوسوسته ، وقال لهم بما ألقاه في هواجسهم : لا غالب لكم اليوم من الناس . . . الخ ما ذكره الشيخ رشيد في تفسير الآية (١) .

هذا ، وقوله - تعالى - بعد ذلك : « إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غير هؤلاء دينهم . . » بيان لصنفين آخرين من أعداء المسلمين بعد بيان العدو الرئيسي وهم المشركون الذين خرجوا بطرا ورتاء الناس لمحاربة الإسلام وقد شجعهم الشيطان على ذلك .

قال الفخر الرازي : أما المنافقون فهم قوم من الأوس والنخزرج كانوا يظهرون الإسلام ويخفون الكفر ولم يخرج منهم أحد إلى بدو سوى

(١) راجع تفسيره في ظلال القرآن ، ١٠٠ ص ٣٠ - للاستاذ سيد قطب . وقد قلنا قبل ذلك جانباً من كلام صاحب المنار .

عبد الله بن أبي - وأما الذين في قلوبهم مرض فهم قوم من قريش أسلموا ولم يهاجروا .

ثم إن قريش لما خرجوا للحرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال أولئك : نخرج مع قومنا فإن كان محمد في كثرة خرجنا إليه ، وإن كان في قلة أقننا في قومنا . .

وعامل الأعراب في ذلك ، فيه وجهان : الأول : التقدير ، والله شديد العقاب إذ يقول المنافقون . . .

والثاني : اذكروا إذ يقول المنافقون . . (١) .

وقوله : دغر ، أى : خدع ، من الغرور وهو كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان .

أى : اذكروا - أيها المؤمنون - وقت أن قال المنافقون والذين في قلوبهم مرض : غر هؤلاء المؤمنون دينهم أى : خدعهم ، لأنكم أقدمتم على قتال قوم يفرقونكم عدة وعددا ، وهذا القتال - في زعمهم - لون من إلقاء النفس إلى التهلكة ، لأنهم قوم لا يدركون حقيقة أسباب النصر وأسباب الهزيمة ، فهم لخراب بواطنهم من العقيدة السليمة ، لا يعرفون أثرها في الإقدام من أجل نصرة الحق ولا يقدرُونَ ما عليه أصحابها من صلة طيبة بالله - عز وجل - الذى بيده النصر والهزيمة . . .

وما داموا قد فقدوا تلك المعرفة ، وهذا التقدير ، فلا تستبعدوا منهم - أيها المؤمنون - أن يقولوا هذا القول عنكم ، فذلك مبلغهم من العلم ، وتلك حوازينهم في قياس الأمور . . .

والحق ، إن الإنسان إذا تدبر ما قاله المنافقون والذين في قلوبهم مرض

في حق المؤمنين عندما أقدموا على حرب أعدائهم في بدر . . .
أقول : عندما يتدبر ذلك ليرى أن هذا القول دأب كل المنافقين والذين
حق قلوبهم مرض في كل زمان ومكان .

إننا في عصرنا الحاضر رأينا كثيرين من أصحاب العقيدة السليمة ،
والنفوس النقية ، والقلوب المضجة بكل شيء في سبيل نصرة الحق . . رأينا
هؤلاء يلبسون رسالات الله دون أن يخشوا أحدا سواه وبهاجون الطغاة
والميطلين والفجار ، ليمكنوا لدين الله في الأرض ، حتى ولو أدت بهم هذه
المهاجمة إلى بذل أرواحهم . .

ورأينا في مقابل هؤلاء الصادقين أقواما - ممن آثروا شهوات الدنيا على
كل شيء - لا يكتفون بالصمت وهم يشاهدون أصحاب العقيدة السليمة
يصارعون الطغاة .

بل هم - بسبب خلو نفوسهم من المثل العليا - يلقون بالوم على هؤلاء
المؤمنين ، ويقولون ما حكاه القرآن من أقوال في أشباههم السابقين من
المنافقين والذين في قلوبهم مرض : « عر هؤلاء دينهم » .

إنهم لا يدركون الأمور ببصيرة المؤمن ، ولا يزنونها بميزان الإيمان .
إن المؤمن يرى التضحية في سبيل الحق مؤدية إلى إحدى الحسنيين
النصر أو الشهادة .

أما هؤلاء المنافقون والذين في قلوبهم مرض ، فلا يرون الحياة لإلانة
عشوة وغشوة ، فإن أعطوا امنها رضوا وإن لم يعطوا امنها إذا هم يستخطون ، (١)
وقوله - تعالى - « ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ، حض
المؤمنين على التمسك بما يدعوهم إليه إيمانهم من استقامة وقوة . .

أى : ومن بكل أمره إلى الله ، ويشق به - ينصره - سبحانه - على أهدائه -
فأياه - عز وجل - عزيز لا يغلبه شيء ، حكيم فيما يدبر من أمر خلقه .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد صوّرت تصويراً بديعاً ما عليه
الكافرون وأشباههم من بطر ومفاخرة وحد عن سبيل الله . ومن طاعة
للشيطان أوردتهم المهالك . .

وحكت ما قالوه من أقوال تدل على جهنم وجهلهم وانطباع بصيرتهم .
ونعت المؤمنين عن التفتيح بهم ، لأن البطر والمفاخرة والبغى ، والباع
للشيطان : . . كل ذلك يؤدى إلى خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

ولقد كان أبو جهل قه فى البغى والبطر والمرااة عندما قال - بعد أن
فصح الناصحون بالرجوع عن الحرب فقد نجت العير : - لا إن نرجع حتى
نرد بدرأ ، فنقيم ثلاثاً ، ننحر الجزر ، ونشرب الخمر ، ونعزف القيان علينا ،
فلن تزال العرب تهابنا أبداً . .

وعندما بلغت مقالة أبى جهل أبى سفيان قال : «واقوماء ! هذا عمل عمرو
ابن هشام » يعنى أبى جهل ، كره أن يرجع ؛ لأنه ترأس على الناس فبغوه
والبغى منقصة وشؤم . إن أصاب محمد التنفير ذلكنا . .

وصدقت فراسه أبى سفيان ، فقد أصاب محمد - عليه السلام - - التنفير
وتسبيل المشركون بالذل والهوان فى بدر بسبب بطرهم وريائهم وصدم
عن سبيل الله ، واتباءهم لخطوات الشيطان .

قال لهم نسالك أن توافقنا إلى ما يرضيك ، وأن تجنبنا البطر والرياء
وسوء الأخلاق .

وبعد هذا البيان لأحوال الكافرين فى حياتهم ؛ انتقل القرآن لبيان
أحوالهم عند مماتهم .

فقال - تعالى - : وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٥﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥٦﴾

والخطاب في قوله - تعالى - : «ولو ترى...» للنبي - ﷺ - أو لكل من يصلح للخطاب و «لو» ، شرطية ، وجوابها محذوف لتفطيع الأمر وتمويله والمراد بالذين كفروا : كل كافر وقبل المراد بهم قتلى غزوة بدر من المشركين . قال ابن كثير : وهذا السياق وإن كان سببه غزوة بدر ، ولكنه عام في حق كل كافر . ولهذا لم يخصه الله بأهل بدر بل قال - سبحانه - «ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم...» (١) . والفعل المضارع هنا وهو «تري» ، بمعنى الماضي ، لأن لو الامتناعية ترد المضارع ماضياً .

والفعل «يتوفى» ، فاعلة محذوف للعلم به وهو الله - عز وجل - وقوله : «الذين كفروا» ، هو المفعول وعليه يكون : «الملائكة» ، «مبتدأ» ، وجملة «يضربون وجوههم...» خبر .

والعنى «ولو طأنت وشاهدت أيها العاقل حال الذين كفروا حين يتوفى الله أرواحهم» ، لما كنت وشاهدت من ظراً تخيفاً ، وأمرأ فظيماً تقشع من هواله الأبدان ثم فصل الله - سبحانه - هذا المنظر الخيف بجملة مستأنفة فقال ، «الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم» ، والمراد بوجوههم : ما أقبل منهم وبأدبارهم : ما أدبر وهو كل الظهر .

أى : الملائكة عند ما يتوفى الله - تعالى - هؤلاء الكفرة يضربون ما أقبل منهم وما أدبر ، لإعراضهم عن الحق ، وإيثارهم الفى على الرشد .

ومنهم من يرى أن الفعل : يتوفى ، فاعله الملائكة ، وأن قوله : الذين كفروا ، هو المفعول وقدم على الفاعل للاهتمام به .

وعليه تكون جملة : يضربون وجوههم .. ، حال من الفاعل وهو الملائكة . فيكون المعنى : ولو رأيت - أيها العاقل - حال الكافرين عندما تتوفى الملائكة أرواحهم فتضرب منهم الوجوه والأدبار ، لرأيت عندئذ ما يؤلم النفس ، ويخيف الفؤاد .

ويبدو لنا أن التفسير الأول أبلغ ، لأن توضيح وتفصيل الرقبة بالجملة الاسمية المستأنفة خير منه بجملة الحال ، ولأن إسناد التوفى إلى الله أكثر مناسبة هنا ، إذ أن الله - تعالى - قد بين وظيفة الملائكة هنا فقال : يضربون وجوههم وأدبارهم . .

- وخمس - سبحانه - الضرب للوجوه والأدبار بالذكر ، لأن الوجوه أكرم الأجزاء ، ولأن الأدبار هى الأماكن التى يكره الناس التحدث عنها فضلا عن الضرب عليها . أو لأن الخزي والذكال فى ضربهما أشد وأعظم .

وقوله : وذوقوا عذاب الحريق ، معطوف على قوله : يضربون ، بتقدير القول . أى يضربون وجوههم وأدبارهم ويقولون لهم : ذوقوا عذاب تلك النار المحرقة التى كنتم تكذبون بها فى الدنيا .

والذوق حقيقة إدراك المعلومات . والأصل فيه أن يكون فى أمر مرغوب فى ذوقه وطلبه .

والتعبير به هنا عن ذوق العذاب هو لون من التهكم عليهم ، والاستهزاء بهم . كما فى قوله - تعالى - : قبشرم بعذاب أليم ، وهو أيضا يشعر بأن ما وقع

عليهم من عذاب إنما هو بمنزلة المقدمة لما هو أشد منه ، كما أن الذوق عادة يكون كالمقدمة للمعلوم أو الشيء المذاق .

وقوله : « ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد » بيان للأسباب التي أدت بهم إلى هذا المصير السيئ . وأنهم هم الذين جنوا على أنفسهم بمؤمن صنيعهم ، وانقيادهم للهوى والشيطان .

أي : ذلك الذي نزل بكم - أي الكافرون - من الضرب وعذاب النار ، سببه ما قدمته أيديكم من عمل سيئ ، وفعل قبيح ، وقول منكر ، وجحود للحق ، وأن الله - تعالى - ليس ذى ظلم لكم ولا اغتركم ، لأن حكمته سبحانه - قد اقتضت ألا يعذاب أحدا إلا بسبب ذنب ارتكبه ، وجرم اقترفه .

فاسم الإشارة ، ذلك ، يعود إلى الضرب وعذاب الحريق ، وهو مبتدأ ، وخبره قوله : « بما قدمت أيديكم » .

والمراد بالأيدي : الأنفس والذرات . والتعبير بالأيدي عن ذلك من قبيل التعبير بالجزء عن الكل .

وعصت الأيدي بالذكر ، للدلالة على التمكن من الفعل وإرادته . ولأن أكثر الأفعال يكون عن طريق البطش بالأيدي ، ولأن نسبة الفعل إلى اليد تفيد الاتصال بذاته .

وقوله : « وأن الله ليس بظلام للعبيد » خير لمبتدأ محذوف ، والجملة اعتراض تذييلي مقرر المضمون ما قبله .

أي : ذلك الذي نزل بكم سببه ما قدمته أيديكم ، والأمر أن الله - تعالى - ليس بمظلم لعبيده من غير ذنب جنوه .

ومحذوف أن يكون معطوفا على « ما » المجرورة بالباء . أي : ذلك بسبب ما قدمه أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد .

قال بعض العلماء : فإن قيل ما سر التعبير بقوله « وظلام » بالمبالغة ، مع أن

فنى نفس الظلم أبلغ من نفى كثرته ، ونفى الكثرة لا ينفى أصله ، بل ربما يشعر بوجوده ، وبرجوع النفي للقييد ؟

وأجيب بأجوبة :

منها : أنه نفى لأصل الظلم وكثرته ، باعتبار آحاد من ظلم ، كأنه قيل : ظالم لفلان ولفلان وهلم جرا . فلما جمع هؤلاء عدل إلى « ظلام » ، لذلك ، أى : لكثرة الكمبة فيه .

ومنها : أنه إذا انتفى الظلم والكثير ، انتفى الظلم القليل ، لأن من يظلم يظلم الانتفاع بالظلم ، فإذا ترك كثيره ، مع زيادة نفعه في حق من يهود عليه النفع والضرر ، كان لقليله مع قلة نفعه أكثر تركا .

ومنها : أن ظلما ، للنسب كعطار ، أى : لا ينسب إليه الظلم أصلا .

ومنها : أن كل صفة له - تعالى - في أكمل المراتب ، فلو كان

- سبحانه - ظلما ، كان ظلما ، فنفي اللازم نفي للملزم .

ومنها : أنه نفي للظلام ، لنفي الظلم ضرورة أنه إذا انتفى الظلم انتفى

كأله ، فجعل نفي المباينة كناية عن نفي أصله ، انتقالا من اللازم إلى الملزم .

ومنها : أن العذاب من العظم بحيث لولا الاستحقاق لكان المعذب بمنزلة

ظلما بلخ الظلم متفاهة ، فالمراد تنزيهه - تعالى - وهو جدير بالمباينة .

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر عن رسول الله - ﷺ - أن الله

- تعالى - يقول : « يا عبأدى إني حرمت للظلم على نفسي ، وجعلته بينك

وحكما ، فلا تظالموا » ، (١) .

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد بينتا حالة المشركين عند قبض أرواحهم

بيانا يحمل النفوس على الإيمان والطاعة لله - تعالى - فقد رسم القرآن صورة

مفرقة لهم ، صورة الملائكة وهي تضرب وجوههم وأديارهم بأمر من الله

- تعالى - الذي مآلهم ، ولكنهم هم الذين أحلوا بأنفسهم هذا المصير المؤ

المؤلم ، حيث كفروا بالحق ، وحاربوا أنبياءه ، واستحبوا العمى على الهدى

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء الكافرين في كفرهم وطفيتهم كمادة من سبقهم من الأمم الظالمة وإن من سنة الله - تعالى - في خلقه ألا يعاقب إلا بذنب،

والأبغى النعمة إلا لسبب . فقال - تعالى - :

كَذَّبَ آلُ
فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ

إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً

أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾

كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ

فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾

والكاف في قوله : كذاب ... ، للتشبيه ، والجار والمجرور في موضع

رفع خبر لمبتدأ محذوف .

والدأب : أصله الدوام والاستمرار . يقال : دأب فلان على كذا يدأب

دأباً - بفتح الهمزة - ودأباً - بسكونها - ودءوباً ، إذا دوام عليه وجد فيه .

ثم غلب استعماله في الحال والشأن والعادة ، لأن الذي يستمر في عمل أمدا طويلا

يصير هذا العمل عادة من عاداته ، وسألا من أحواله ، فهو من باب إطلاق

المألوم وإرادة اللزوم .

والآل - كاقول الراغب - مقلوب عن الأهل ، ويصغر على أهبل ، إلا

أنه خص بالإضافة إلى أعلام الناطقين دون النكرات ودون الأئمة والأمكنة

يقال : آل فلان ، ولا يقال : آل رجل .. ولا يقال : آل الحجامة .. بل يضاف

إلى الأشرف والأفضل فيقال : آل الله ، وآل السلطان . والآهل يضاف إلى

الكل ، فيقال : أهل الله ، وأهل الحجامة ، وأهل زمان كذا ... ، (١)

والمقصود بآل فرعون: هو وأهوانه وبطائنه ، لأن الآل يطلق على
أهد الناس النصاف واختصاصا بالمضاف إليه .

والعنى : شأن مؤلاء الكافرين الذين حاربوك يا محمد ، والذين ملك منهم
من ملك في بدر ، شأنهم وحالهم وعادتهم فيما أقروا من الكفر والعصيان وقبيح
فعل بهم من عذاب وخذلان ، كشأن آل فرعون الذين استحبوا العمى على
الهدى ، والذين زينوا له الكفر والطغيان حتى صار عادة له ولهم ،
وقد أخذهم - سبحانه - أخذ عزيز مقتدر . بسبب كفرهم وفجورهم .
وقد خص - سبحانه - فرعون وآله وبالدكر من بين الأمم الكافرة ،
لأن فرعون كان أهد الطغاة طغيانا ، وأكثرهم غرورا وبطرا ، وأكثرهم
في الاستمانة بقومه وفي الاحتقار لعقولهم وكيانهم .

ألم يقل لهم - كما حكى القرآن عنه - : أنا ربكم الأعلى ، (١) ،

والم يبلغ به غروره أن يقول لهم : : ليس لي ملك معكم وهذه الأنهار

تجري من تحتي أفلا تبصرون ، (٢) ؟

أما آله وبطائنه وأهوانه ، فهم الذين زينوا له سوء ، وحرصوه على
البطش بموسى لأنه جاءهم بالحق ، ولقد حصى الله عنهم نفاقهم وضلالهم
وانغماسهم في الآثام في آيات كثيرة ، ومن ذلك قوله - تعالى - : وقال الملأمن
قوم فرعون أتقدر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآل هتاك ؟
قال : سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون ، (٣) .

ولقد وصف الله - تعالى - قوم فرعون بهوان الشخصية ، وتفاهة العقل ،
والخروج عن كل مكرمة فقال : : فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما
فاسقين ، (٤) وذلك لأن الأمة التي تترك الظالم وبطائنه يديشون في الأرض

(١) سورة النازعات الآية ١٤

(٢) : الزخرف ٥١ ،

(٣) : الأعراف ١٢٧ (٤) سورة الزخرف الآية ٥٢

فسادا ، لاستحقاق الحياة ، ولا يكون مصيرها إلا إلى التعاسة والخسران .
وقوله : **كفروا بآيات الله** ، تفسيرهم لصنيعهم الباطل ، ودأبهم على
الفساد والضلال .

والمراد بآيات الله : ما يعظم المتلوة في كتب الله — تعالى — ، والبراهين
والمعجزات الدالة على صدق الأنبياء فيما يبلغونه عن ربهم .
وفي إضافتها إلى الله : تعظيم لها وتشريف ، وتنبية إلى قوة دلالتها على
الحق والخير .

وقوله : **فأخذهم الله بذنوبهم** ، معطوف على قوله : **كفروا بآيات الله** .
ليبان ما قربت على كفرهم من عقوبات الله .

وفي التعبير بالأخذ إشارة إلى شدة العذاب ، فهو — سبحانه — قد
أخذهم كما يؤخذ الأسير الذي لا يستطيع الفكاك من أسرهِ .

والباء في قوله : **بذنوبهم** ، للسببية أي كفروا بآيات الله فمقابهم
— سبحانه — بسبب كفرهم وفسوقهم عن أمرهِ .

ويجوز أن تكون للملاسة ، أي : أخذهم وهم ملتصقون بذنوبهم
فون أن يتوبوا منها ، أو يخلصوا منها .

وعلى الوجهين فالجزة الكريمة تدل على كمال عدل الله — تعالى — لأنه
ما عاقبهم إلا أنهم استحقوا العقاب .

والمراد بذنوبهم : كفرهم وما ترتب عليه من فسوق وهسيان ، وأصل
الذنب : الأخذ بذنب الشيء أي بمؤخرته ، ثم أطلق على الجريمة ، لأن
مركبها يعاقب بعدها .

وقوله : **إن الله قوئ شديد العقاب** ، تذييل مقرر لمضمون ما قبله من
الأخذ الشديد ، بسبب الكفر والمعاصي .

أي : إن الله — تعالى — قوئ لا يغلبه غالب ، ولا يدفع قضاءه دافع
شديد عقابه لمن كفر بآياته ، وفسق عن أمرهِ .

وقوله : « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا حالاً بأنفسهم . . . » بيان أسنة من سفته - تعالى - في خلقه ، ولعليل التعذيب أولئك الكفار ، ولسلب نعمه عنهم وعن أشباههم من العصاة والجاحدين وإسم الإشارة : « ذلك » يعود إلى تعذيب الكفرة المبرر عنه بقوله - تعالى - « فآخذهم الله بذنوبهم » .

وهو ، أي : اسم الإشارة مبتدأ ، وخبره قوله - سبحانه - « بأن الله لم يك مغيراً . . . » إلخ .

والمعنى : ذلك الذي نزل بهؤلاء الكفرة من التعذيب والخذلان عدل إلهي ، فقد جرت سنته - سبحانه - في خلقه ، وانقضت حكمته في حكمه ألا يبدل نعمة بنقل إلا بسبب ارتكاب الذنوب ، واجترأ السيثان ، فإذا لم يتلق الناس نعمه - عروج - بالشكر والطاعة ، وقابلوها بالكفر والعصيان ، بدل نعمتهم بنقم جزاءاً وفاقا .

وشبهه بهذا قوله - تعالى - في آية أخرى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (١) .

قال الفخر الرازي : قال القاضي : معنى الآية أنه - تعالى - أنعم عليهم بالعقل والقدرة وإزالة الموانع وتسهيل السبل ، والمقصود أن يشغلوا بالعبادة والشكر ، ويبدلوا عن الكفر ، فإذا صرفوا هذه الأحوال إلى الفسق والكفر ، فقد غيروا نعمة الله - تعالى - على أنفسهم ، فلا جرم استحقوا تبديل النعم بالنعق ، والمنح بالحقن .

قال : وهذا من أو كدما يدل على أنه - تعالى - لا يتبدى أحداً بالعذاب والمضرة . . (٢) .

(١) سورة الرعد الآية ١١ .

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ١ ص ١٨١ .

وقال صاحب الكشف : « فإن قلت : فما كان من تغيير آل فرعون ومشركي مكة حتى غير الله نعمته عليهم ، ولم تكن لهم حال مرضية فيغيرها إلى حال مسخوطة ؟ »

قلت : كما تغير الحال المرضية إلى المسخوطة ، تغير الحال المسخوطة أسخط منها وأولئك كانوا قبل بعثة الرسول - ﷺ - إليهم كفرية عبدة أصنام ، فلما بعث إليهم بالآيات البينات فكذبوه وعادوه وتحربوا عليه ساعين في إراقة دمه ، غيروا حالهم إلى أسوأ مما كانت ، فغير الله ما أنعم به عليهم من الإمهال وعاجلهم بالعذاب ، (١) .

وقوله : « وأن الله سميع عليم ، معطوف على قوله : « بأن الله لم يك حفيرا نعمة ... إلخ .

أى : ذلك العذاب بسبب جحودهم للنعم ، وبسبب أنه - سبحانه - سمع لما نطقوا به من سوء ، وعلم بما ارتكبوه من قبائح ومنكرات ، وقد عاقبهم على ذلك بما يستحقون من عذاب : « وما ظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

ثم ذكر - سبحانه - ما عليه المشركون من جحود وغرور وعناد على سبيل التأكيد والتوبيخ فقال : « كذب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بنوبهم ، وأغرقتنا آل فرعون ، وكل كانوا ظالمين » .

أى شان هؤلاء المشركين الذين حاربوك يا محمد ، كشان آل فرعون ومن تقدمهم من الأقوام السابقة ، كقوم نوح وقوم هود ... كذب أولئك جميعا بآيات ربهم التى أوجدها - سبحانه - لهم إيتهم وسعادتهم . فكانت نتيجة ذلك أن أهلكهم - سبحانه - بسبب ما ارتكبوه من ذنوب ، وبسبب استعمالهم للنعم فى غير ما خلقت له .

« وأغرقنا آل فرعون ، الذين زينوا له الكفر والبطار والعفیان ، .
 « وكل كانوا ظالمين ، أى : وكل من الأقوام المذكورين ومن على
 شاكلتهم فى الكفر والضلال ، كانوا ظالمين لأنفسهم بكفرهم ، ولأنبيائهم
 بسبب معاديتهم لهم ، وإعراضهم عنهم مع أن الأنبياء ما جاءوا إلا لهدايتهم .
 وجع الضمير فى « كانوا ، وظالمين ، مراعاة لمعنى « كل ، لأنها متصلة
 قطعت عن الإضافة جاز مراعاة لفظها قارة ، ومراعاة معناها أخرى ،
 واختير هنا مراعاة المعنى لأجل الفواصل .

قال الجبل : « فإن قلت ، ما الفائدة من تكرير هذه الآية مرة ثانية ؟
 قلت : فيها فوائد منها : أن الكلام الثانى يجرى بجرى التخصيل للكلام
 الاول ، لأن الآية الاولى فيها ذكر أخذهم ، والثانية ذكر إغراقهم فذلك
 تفسير للاول .

ومنها : أنه ذكر فى الآية الاولى أنهم كفروا بآيات الله وفى الآية الثانية
 أنهم كذبوا بآيات ربه ، ففى الآية إشارة إلى أنهم كفروا بآيات الله
 وجحدوها ، وفى الثانية إشارة إلى أنهم كذبوا بها مع جحدوها ، وكفرهم بها .
 ومنها : « أن تكرير هذه القصة للتأكيد ، (١) .

وبعد ، فإن المتدبر فى هذه الآيات الكريمة ، يراها تصور تصويراً
 واضحاً سنة من سنن الله فى خلقه ، وهى أنه - سبحانه - لا يسلب نعمة عن
 قوم إلا بسبب ذنوب اقترفوها ، وأنه - تعالى - لا يزل عقوباته بهم إلا بعد
 لجأهم فى طغيانهم ، وإدبارهم عن نصيح الناصحين .

ورحم الله الأستاذ الإمام محمد عبده فقد كتب مقالا جيداً صدره
 بقوله تعالى : « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيرها
 ما بأنفسهم »

وعلماء في هذا المقال قوله : « تلك آيات الكتاب الحكيم ، تهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم . . . »

أرشدنا - سبحانه - إلى أن الأمم ما سقطت من عرش عزها ، ولا بادت وعى اسمها من لوح الوجود إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التي منها - سبحانه - على أساس الحكمة البالغة . إن الله لا يغير ما بقوم من عز وسلطان ، ورفاعة وحفض عيش ، وأمن وراحة حتى يغير أولئك ما بأنفسهم من نور العقل ، وصحة الفكر ، وإشراق البصيرة ، والاعتبار بأفعال الله في الأمم السابقة ، والتدبر في أحوال الذين حادوا عن صراط الله فهلكوا وحل بهم الدمار . ثم لعدو لهم عن سنة العدل ، وخروجهم عن طريق البصيرة والحكمة ، حادوا عن الاستقامة في الرأي ، والصدق في القول ، والسلامة في الصدر ، والعفة عن الشهوات ، والحمية على الحق ، والقيام بنصرتهم والتعاون على حمايته . . خدوا العدل ولم يجمعوا مهمهم على إعلاء كلمته ، واتبعوا الأهواء الباطلة ، وانكبوا على الشهوات الفانية . . فأخذهم الله بذنوبهم وجعلهم عبرة للمتبرين .

هكذا جعل الله بقاء الأمم ونمائها في النجلى بالفضائل وجعل هلاكها ودمارها في النجلى عنها .

سنة ثابتة لا تختلف باختلاف الأمم ، ولا تتبدل بتبدل الأجيال ، كسفته - سبحانه - في الخلق والإيجاد ، وتقدير الأرزاق وتحديد الآجال . . (١) .

وبعد أن شرح - سبحانه - أحوال المهلكين من شرار الكفرة ، شرع في بيان أحوال الباقين منهم ، وتفصيل أحكامها ، فقال - تعالى - :

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ
عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مِرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾
فَإِمَّا تَثْقَفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مِّنْ خَلْفُهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾
وَإِمَّا يَنْتَحِفْنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا
يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۚ إِنَّهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾

قال الفخر الرازي : اهلم أنه - تعالى - لما وصف كل الكفار بقوله :

« وكل كانوا ظالمين ، أفرد بعضهم بمزية في الشر والعناد فقال : « إن شر
الدواب عند الله ، أي : في حكمه وعمله من حصلت له صفتان :

الأولى : الكفار الذي يكون مستمرا على كفره مصرا عليه ...

الثانية : أن يكون ناقضا للعهد على الدوام ...

قال ابن عباس : هم بنو قريظة ، فإنهم نقضوا عهد رسول الله ﷺ
وأعانوا عليه المحركين بالسلاح في يوم بدر . ثم قالوا : أخطأنا ، فعاهدهم
مرة أخرى فنقضوه أيضا يوم الخندق ... (١) .

والدواب : جمع دابة . وهي كل ما يدب على الأرض . قال - تعالى -

« والله خالق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشي على بطنه ، ومنهم من يمشي
على رجليه ، ومنهم من يمشي على أربع ... » (٢) .

قال الجبل : « وإطلاق الدابة على الإنسان إطلاق حقيقي ، لما ذكره
في كتب اللغة من أنها تطلق على كل حيوان ولو آدميا . وفي المصباح :
الدابة كل حيوان في الأرض ميمزاً وغير ميمز ، (٣) .

والمعنى : « إن شر ، ما يدب على الأرض » عند الله ، أي : في حكمه
وقضائه « الذين كفروا ، أي : الذين أصروا على الكفر ولجوا فيه .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١٥ ص ١٨٢ (٢) سورة النور ، الآية ٥٥

(٣) حاشية الجبل على الجلالين ج ٢ ص ٢٢٦

وقد وصفهم - سبحانه - بأنهم شر الدواب لا شر الناس ، الإشعار بأنهم
معمول هما يتحلى به الناس من تعقل وتدبر الأمور ، لأن لفظ الدواب وإن
كان يطلق على الناس ، إلا أنه عند إطلاقه عليهم يلقى ظلالا خاصا يجعل العقول
تتجه إلى أن هؤلاء الذين أطلق عليهم اللفظ هم إلى الدواب التي لا تعقل
أقرب منهم إلى الادميين العقلاء ، وفي وصفه - سبحانه - لهم بأنهم شر الدواب
زيادة قوبخ لهم ، لأنهم ليسوا دوابا لحسب بل هم شرها وأخسها .

وقوله : « فهم لا يؤمنون » تذييل جيء به على وجه الاهتراض بالبيان
أى : أنهم - بسبب إصرارهم على الكفر - صار الإيمان بعيدا عنهم ،
وأنهم سواء أئذروا أم لم يتذكروا مستمرون في الضلال والعناد .

وقوله : « الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة .. » بدل
من الموصول الأول وهو قوله : « الذين كفروا .. » أو عطف بيان له .
أى : إن شر الدواب عند الله الذين أصروا على الكفر ورسخوا فيه ،
الذين عاهدت منهم ، أى : أخذت منهم عهدهم ، ثم ينقضون عهدهم في كل
مرة ، دون أن يفوا بعهودهم ولو مرة واحدة من المرات المتعددة .
فقوله : « عاهدت » مضمن معنى الأخذ ، ولذا عدى بمن .

قال الألوسى : قوله : « الذين عاهدت منهم .. » بدل من الموصول
الأول ، أو عطف بيان ، أو نعت ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو نصب على
الفهم ، وعائد الموصول قيل : ضمير الجمع المجرور ، والمراد : عاهدتهم ،
و « من » الإيذان بأن المعاهدة - التى هى عبارة عن إعطاء العهد وأخذه
من الجانبين - معتبرة هنا من حيث أخذه - وكانت - ، إذ هو المناط لما
نعى عليهم من النقص ، لا إعطاؤه - عليه الصلاة والسلام - لإبائهم عهده
كأنه قيل : الذين أخذت منهم عهدهم ، وقال أبو حيان : إنما تبعية ،
لأن المباشر بعضهم لا كلهم .. (١) .

وقوله : « ثم ينقضون عهدهم في كل مرة ، معطوف على الصلة .
وكان المعطف « ثم » ، المفيدة للتراخي ، الإيذان بالتفاوت الشديد بين
ما أخذ عليهم من عهود ، وبين ما تردوا فيه من نقض لها ، واستهانة بها .
وجىء بصيغة المضارع « ينقضون » ، المفيدة للحال والاستقبال ، للدلالة
على تعدد النقض وتجدده ، وأنهم على نيته في كل مرة يعاهدون فيها غيرهم
وقوله : « وهم لا يتقون » ، في موضع الحال من فاعل « ينقضون » .

أى : أن هؤلاء القوم دأبهم نقض العهود والمواثيق في كل وقت ، ومع
ذلك لحالهم وشأنهم أنهم لا يشعرون خلال نقضهم للعهود بأى تخرج
أو خجل ، بل يرتكبون ما يرتكبون من المنكرات دون أن يتقوا عارها ،
أو يخشوا سوء عاقبتها .

ثم بين - سبحانه - ما يجب على المؤمنين نحو هؤلاء الناقضين لعهودهم
في كل مرة بدون حياء أو تدبر للمواقف فقال : « فإما تنقضهم في الحرب فتحد
بهم من خلفهم لعاهم يذكرون » ، فالفاء في قوله « فإما » ، اقتراب ما بعدها
على ما قبلها .

وقوله : « تنقضهم » ، من النقض بمعنى الخلق في إدراك الشيء وفعله .
قال الراغب : يقال نقضت كذا إذا أدركته بصرك الخلق في النظر .
ثم يتجاوز فيه فيستعمل في الإدراك وإن لم تكن معه ثقافته . قال - تعالى -
« فإما تنقضهم في الحرب » (١) .

وقوله : « فتحد بهم » ، من التشديد وهو عبارة عن التفريق مع الاضطراب .
يقال شردت بنى فلان ، أى : قلعتهم عن مواطنهم وطردتهم منها حتى فارقوها
قال الشاعر :

أطوف في الأباطح كل يوم عفاة أن يهرد بنى حكيمة

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ٧٩ .

أي : متخافة أن يسمع بي ويطردني حكيم ، وحكيم رجل من بنى سليم كانت قريش قد ولته الأخذ على أبدى السفهاء .

والمعنى : إنك يا محمد إذا ما أدركت في الحرب هؤلاء الكافرين النافضين لعهودهم وظفرت بهم - وهم بنو قريظة ومن لف لفهم - . فافعل بهم فملا من القتل والتنكيل يتفرق معه جمع كل نافض للعهد ، ويضرم منه كل من كان على شاكلتهم في الكفر ونقض العهود ، ويعتبر به كل من سمعه من أهل مكة وغيرهم .

فالباء في قوله ونفرد بهم ، للسببية ، وقوله ومن خلفهم ، مفعول شرد . والمراد بمن خلفهم : كفار مكة وغيرهم من الضالين ، أي : افعل ببني قريظة ما يشردهم خوفاً وفزعاً .

وقوله واعلمهم يذكرون ، أي : لعل أولئك المشركين يتعظون بهذا القتل والتنكيل الذي نزل بهؤلاء النافضين لعهودهم في كل مرة ، فيمنعهم ذلك عن نقض العهود .

هذا ، وإن تلك الآية الكريمة لمن أحكم الآيات التي ترشد المؤمنين إلى وجوب أخذ المستعمرين على كفرهم وعنادهم ونقضهم العهود أخذاً شديداً رادعاً .. حتى يبقى للمجتمع الإسلامي أمانه واستقراره وهيئته أمام أعدائه . إن الآية الكريمة ترسم صورة بديعة للأخذ المفزع ، والحوار المرعب ، الذي يكفى السماع به للهرب والفرود ، فما بال من يحمل هذا الأخذ الشديد ؟ إنها الضربة المروعة ، بأمر الله - تعالى - رسوله أن ينزلها على وأس كل مستحق لها بسبب كفره وتلاعبه بالعهود . . . وبذلك تبقى لدين الله هيئته وسطوته .

هذا هو حكم المصيرين على كفرهم النافضين لعهودهم . . أما الذين تحشى

منهم الحيانة فقد بين - سبحانه - حكمهم بقوله : **«إِذَا مَا تَخَافُنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِتَيْنِ»** .

وقوله : **«تخافن»** ، من الخوف ، والمراد به هذا العلم .

وقوله : **«فانذ»** ، من النذ ، بمعنى للعارج ، وهو مجاز عن إعلامهم بأنهم لا عهد لهم بعد اليوم . فشبّه - سبحانه - العهد بالشئ الذي يرمى آدمم الرغبة فيه ، وثبت النذ له على سبيل التخيل ، ومفعول **«فانذ»** محذوف أى : **«فانذ إليهم عهدهم»** .

قال الجمل : وقوله **«على سواء»** ، حال من الفاعل والمفعول معا ، أى : **«فانذ للفعل وهو ضمير النبي - ﷺ - ومفعوله وهو المجرور يلي»** .

أى : حال كونكم مستوين في العلم بطرح العود . فعدك أنت به لأنه فعل نفسك ، وعلمهم به بإعلامك إياهم ، فكأنه قيل في الآية : **«فانذ عهدهم وأعلمهم بنذهم»** ، ولا تقاثلهم بغتة لئلا يتهمونك بالغرر وليس هذا شأنك ولا من صفاتك ، (١) .

والمعنى : **«وإذا تعلمن - يا محمد - من قوم بينك وبينهم عهد ومفاقرتهم نقضه خيانة منهم ، بأمارات تلوح لك تدل على غدوهم ، فاطرح إليهم عهدهم على طريق مستو ظاهر : بأن تعلمهم بنذك عهدهم قبل أن يحاربهم ، حتى تكون أنت وهم في العلم بنذ العهد سواء ، لأن الله - تعالى - لا يحب الخائتين وإن من مظاهر الحيانة التي يبغضها الله - تعالى - أن يحارب أحد المتعاضدين الآخر دون أن يعلمه بإنها - عهد»** .

قال ابن كثير : قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر ، قال : حدثنا شعبة عن أبي القبيص عن سليم بن عامر قال : كان بين معاوية وبين الروم عهد .

وكان يسير نحو بلادهم يقرب منها ، حتى إذا انقضى العهد فزاهم فإذا شيخ على دابة يقول : الله أكبر الله أكبر ، وقاء لاغذرا : إن رسول الله ﷺ قال : « من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقدة ولا يفدها حتى ينقض أمدها أو يبلد إليهم على سواء . »

قال : فبلغ ذلك معاوية فرجع . فإذا بالشيخ عمرو بن عبسة ، ثم قال ابن كثير : وهذا الحديث رواه أبو داود للطائفة عن شعبة . وأخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه من طرق عن شعبة به ، وقال الترمذي حسن صحيح .

وروى الإمام أحمد عن سلمان الفارسي أنه انتهى إلى حصن أو مدينة فقال لأصحابه :

دعوا أدهوم كما رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدعهم . فقال : إنما كنت رجلا منكم فمداني الله إلى الإسلام ، فإن أسلتم فلكم مالنا وعليكم ما علينا . وإن أتم أيتهم ، فأدوا الجزية وأنتم صاغرون فإن أيتهم نأبذناكم على سواء ، إن الله لا يحب الخائفين . يفعل ذلك بهم ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها بعون الله ، (١) .

وقال الفخر الرازي : قال أهل العلم : آثار نقض العهد إذا ظهرت ، فإذا أتى تظاهر ظهوراً محتملاً ، أو ظهوراً مقطوعاً به .

فإن كان الأول : وجب الإحلام على ما هو مذكور في هذه الآية ، وذلك لأن بني قريظة عاهدوا النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين إلى مظاهرتهم على رسول الله ، فحصل لرسول الله ﷺ - خوف الغدر منهم به وأصحابه ، فهنا يجب على الإمام أن يبلد إليهم عهدهم على سواء ويؤذنهم بالحرب .

أما إذا ظهر نقض العمد ظهوراً مقطوعاً به ، فهنا لا حاجة إلى نفي العمد ، وذلك كما فعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأهل مكة ، فإنهم لما نفصوا العمد بقتل خزاعة وهم في ذمة النبي - صلى الله عليه وسلم - وصل إليهم جيش رسول الله يمر للطهران ، وذلك على أربعة فراسخ من مكة ، (١) .

أى : أنهم لم يعلموا بجيش رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذى جاء لمحاربتهم إلا بعد وصوله إلى هذا المكان . وبذلك نرى تعاليم الإسلام ترتفع بالبشرية إلى أعلى آفاق الوفاء والشرف والأمان . . . وتحقر من شأن الحياة والخائنين ، وتتوعدهم بالطرده من رحمة الله ، وبالبعد عن رضوانه ومحبته .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن الكافرين لن ينجو من عقابه ، وبشر المؤمنين بالنصر عليهم فقال : « ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا أنهم لا يعجزون » وقوله « يحسبن » من الحسبان بمعنى الظن . وقد قرأ ابن هاجر وحفص وحزرة « يحسبن » بالياء . وقرأ الباقون بالتاء .

وقوله : « يعجزون » من العجز . وأصله - كما يقول الراغب - : التأخر عن الشيء . . . ثم صار في التعارف اسماً للفصوح عن فعل الشيء ، وهو ضد القدرة . . . والمعجوز سميت بذلك لمعجزها في كثير من الأمور . . . (٢) . والمعنى - على القراءة بالياء - : « ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم أنهم قد سبقوا الله فنجوا من عقابه ، وخلصوا من عذابه .. كلا إن حسابهم هذا باطل ، لأنهم لا يعجزون الله ، بل هو - سبحانه - قادر على إهلاكهم وتعذيبهم في كل وقت . . . »

(١) تفسير للفخر الرازى ج ١ ص ٢٢٠

(٢) المفردات في غريب القرآن ج ٢ ص ٢٢٢

وأن نجائهم من القتل أو الأسر في الدنيا ان تنفعهم شيئاً من العذاب المهيمن في الآخرة .

وجلي هذه القراءة يكون فاعل « يحسن » قوله « الذين كفروا » ويكون المفعول الأول « يحسن » محذوف أى : ولا يحسن الذين كفروا أنفسهم . . والمفعول الثانى جملة « سبقوا » ، وأما على القراءة الثانية ، ولا تحسن ، فيكون قوله « الذين كفروا » هو المفعول الأول . وجملة « سبقوا » هي المفعول الثانى . أى : ولا تحسن - أيها الرسول الكريم - أن هؤلاء الكافرين قد سبقونا بخيائهم لك ، أو أفلتوا عن عقابنا وصاروا في مأمن منا ... كلا ، لأنهم لا يجوزوننا عن إدراكهم وإنزال العقوبة بهم في أى وقت نريده ونشأها فحق لا يعجزنا شيء . . .

وعلى كتابنا القراءة فالمقصود من الآية الكريمة . قطع أصبا الكافرين في النجاة ، وإفناطهم من الخلاص ، فكأنه - سبحانه - يقول لهم : إن من لم يصبه عذاب الدنيا ، فسوف يصيبه عذاب الآخرة ، ولا مفر له من ذلك ما دام قد استحب الكفر على الإيمان . أما المؤمنون فلمن الله - تعالى - التأييد والنصر وحسن للعافية .

ثم أمر - سبحانه - المؤمنين بإعداد وسائل القوة التي بها يصلون إلى النصر ، وإلى بحث للرعب في قلوب أعدائهم . . . فقال - عز وجل - :

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ
تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ
يَعْلَهُمْ وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا
تُظْلَمُونَ ﴿١٨١﴾

وقوله : « وأعدوا » ، معطوف على ما قبله ، وهو من الإعداد بمعنى تهية الشيء للمستقبل . والخطاب لكافة المؤمنين .

والرباط في الأصل مصدر ربط ، أي شد . ويطلق بمعنى المربوط مطلقاً .
وكثر استعماله في الخيل التي تربط في سبيل الله . فالإضافة إما باعتبار عموم
المفهوم الأصلي ، أو بملاحظة كون الرباط مفرقاً بين معان أخر كإلزامة النفوس ،
والمواظبة على الأمر ، وإضافته لأحد معانيه للبيان .

قال صاحب الكشف : والرباط : اسم للخيل التي تربط في سبيل الله .
ويجوز أن يسمى بالرباط الذي هو بمعنى الماربة . ويجوز أن يكون جمع
ويط كفصيل وفصال - يقال نعم الربيط هذا ، لما يربط من الخيل (١) .
والعنى : عليكم - أيها المؤمنون - أن تعدوا أعدائكم ما تستطيعون
إعدادهم من وسائل القوة على اختلاف صنوفها وألوانها وأسبابها .
وجاء - سبحانه - بلفظ قوة ، منكرأ ، يشمل كل ما يتقوى به في
الحرب كأنها ما كان .

قال الجمل : وقوله : من قوة ، في محل نصب على الحال . وفي صاحبها
وجهان : أحدهما أنه الموصول . والثاني : أنه العائد عليه ، إذ التقدير
ما استطعتموه حال كونه بعض القوة . ويجوز أن تكون : من ، لبيان
الجنس ، (٢) .

وقوله : : ومن رباط الخيل ، معطوف على ما قبله من مطلق الخاص
على العام .

أي : أعدوا أعدائكم ، ما أمكنكم من كل ما يتقوى به عليهم
في الحرب ، من نحو : حصون وقلاع وسلاح . . ومن رباط الخيل للغزو
والجهاد في سبيل الله .

وخمس ربط الخيل بالذكر من بين ما يتقوى به ، لمزيد فضلهما ورفاهتهما في
الحرب ، ولأن الخيل كانت الأداة الرئيسية في القتال في العهد النبوي . وقوله :

(١) تفسير الكشف ج ٢ ص ٢٣٢ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٢٥٣ .

ترهبون به عدو الله وعدوكم، بيان للمستصود من الأمر بإعداد ما يمكنهم الإعداء من قوة .

وقوله : ترهبون ، من الرهبة وهي مخافة مع تحرز واضطراب .
والضمير المجرور - وهو قوله : به - يعود إلى الإعداد المأخوذة
من قواه وأعدوا .

أي : أعدوا ما استطعتم من قوة ، حالة كارتكم مرهبين بهذا الإعداد
عدو الله وعدوكم ، من كل كافر ومشرک ومنحرف عن طريق الحق ، وعلى
رأس هؤلاء جميعا . كفار مكة الذين أخرجوكم من دياركم بغير حق ،
ويهود المدينة الذين لم يتركوا وسيلة للإضرار بكم إلا فعلوه .

وقوله : وآخرين من درنهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، معطوف على ما قبله
أي : ترهبون بهذا الإعداد عدو الله وعدوكم كشرى مكة ويهود المدينة
وترهبون به أيضاً أعداء آخرين غير هؤلاء الأعداء المعروفين لكم .

أي : ترهبون بهذا الإعداد أعداء معروفين لكم - كشرى مكة ويهود
المدينة ، وترهبون به أيضاً أعداء آخرين غيرهم أنتم لا تعرفونهم لأنهم
يخفون هداوتهم لكم ، ولكن الله - تعالى - الذى لا يخفى عليه شيء يعلمهم ،
وسيجبط أعمالهم .

وقد اختلف المفسرون فى المراد هؤلاء الأعداء الذين عبر الله عنهم بقوله
لا تعلمونهم الله يعلمهم ، فمنهم من قال : المراد بهم بنو قريظة ومنهم من
قال : المراد بهم أهل فارس والروم .

ورجح ابن جرير أن المراد بهم : كفار الجن . . . لأن المؤمنين كانوا
عالمين بعداوة بنى قريظة وفارس والروم لهم . . . والمعنى ترهبون بذلك
بالإعداد عدو الله وعدوكم من بنى آدم الذين علمتم هداوتهم ، وترهبون به جنسا

آخر من غير بنى آدم لا تعلمون أما كنتم وأحرارهم ، الله يعلمهم وكنكم ،
لأن بنى آدم لا يرونهم . . . (١) .

ورجع الفخر الرازى أن المراد بهم المنافقون . قال : « لأن المنافق من
عادته أن يترهب من ظهور الآفات ، ويحتال في إلقاء الإفساد والتفريق بين
المسلمين - بطرق قد لا تعرف - ، فإذا شاهد كون المسلمين في غاية القوة
خافهم وترك الأفعال المذمومة » (٢) .

ولعل ما رجعه الفخر الرازى هو الأقرب إلى الصواب ، لأن عداوة
المنافقين للمؤمنين كثير ما تكون خافية ، ويشهد لهذا قوله - تعالى - في
آية أخرى : « ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا
على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم . . . » (٣) .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالدعوة إلى الإتفاق في سبيله ،
وبشر المنفقين بحسن الجزاء فقال : « ما تنفقوا من شئ في سبيل الله يوف
إليكُم وأنتم لا تظلمون . . . »

أى : « ما تنفقوا - أيها المؤمنون - من شئ ، قل أو أكثر هذا المنفق
في سبيل الله ، أى في وجوه الخير التي من أجلها الجهاد لإعلاء كلمة
الدين - يوف إليكُم ، أى : يصل إليكُم عوضه في الدنيا وأجره في الآخرة
وأنتم لا تظلمون ، أى : لا تنقصون شيئاً من العوض أو الأجر .

قالوا : والتعبير بالظلم - مع أن الأعمال غير موجبة للثواب حتى يكون
رك تربيه عليها ظلماً - لبيان كمال نراسته - سبحانه - عن ذلك بتصويره .

(١) راجع تفسير ابن جرير ج ١٠ ص ٣٢ طبعة مصطفى الحلبي -

الطبعة الثانية سنة ١٣٧٣ هـ ، سنة ١٩٥٤ م

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ١٥ ص ١٨٦ .

(٣) سورة التوبة الآية ١٠١

بصورة ما يستحيل صدوره منه — تعالى — من القبائح ، وإبرار الإثابة
في معرض الأمور الواجبة عليه — تعالى — ، (١) .

هذا ، ومن الأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآية ما يأتي :

١ — وجوب إعداد القوة الحربية للدفاع عن الدين وعن الوطن وعن
كل ما يجب الدفاع عنه ، لأن أعداء الإسلام إذا ما علموا أن أتباعه أقوياء
هابيهم ، وخافوا بأسهم ، ولم يجرؤوا على مهاجمتهم .

قال القرطبي : وقوله تعالى : « وأعدوا لهم » أمر الله المؤمنين بإعداد
القوة للأعداء ، بعد أن أكد تقدمه التقوى ، فإن الله تعالى - لو شاء - لهنهم
بالكلام والنفل في وجوهم ، وبحفنة من تراب ، كما فعل رسول الله
ﷺ — ، ولكن أراد أن يتلى بعض الناس ببعض بعله السابق
وقضائه النافذ . . . (٢) .

وقال بعض العلماء : دلت هذه الآية على وجوب إعداد القوة الحربية ،
إنهاء بأس العدو وهجومه ، ولما عمل الأمراء بمقتضى هذه الآية أيام حضارة
الإسلام ، كان الإسلام عزيزاً ، عظيماً ، أبي الضيم ، قوي القنا ، جليل
الجاه ، وفير السنا ، إذ نشر لواء سلطته على منبسط الأرض ، فقبض على
قاصية الأفطار والأمصار .

أما اليوم فقد ترك المسلمون العمل بهذه الآية الكريمة ، وما لروا إلى النعيم
والعرف ، فأعملوا فرضاً من فروض الكفاية ، فأصبحت جميع الأمة آئمة
بترك هذا الفرض ، ولذا تعاني اليوم من غصته ما تعاني .

وكيف لا يطمع العدو في بلاد الإسلام ، وهي لا يرى فيها معاملاً
للساحة ، وذخائر الحرب ، بل كلها بما يشغري من بلاد العدو ؟

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٢٥٤

(٢) تفسير القرطبي ج ٨ ص ٢٥

أما أن لها أن تنقبه من غفلتها ، فتعد العدة التي أمر الله بها لإعدادها ،
 حوثلاف ما فرطت قبل أن يدام العدو ما بقى منها بغيره ورجله . . . (١) .
 إن القصة التي طالب الله من المؤمنين لإعدادها لإرهاب الأعداء ، تتناول
 كل ما من شأنه أن يجعل المؤمنين أقوى . كإعداد الجيوش المدربة ،
 والأسلحة المتنوعة التي تختلف بحسب الأزمنة والامكنة .

وما روى من تفسير القصة - التي وردت في الآية - بالرمل ، فإنما هو
 على سبيل المثال ، ولأن الرمي كان في ذلك الوقت أقوى ما يتقوى به .
 قال الفخر الرازي عند تفسيره للآية ، والمراد بالقوة هنا ما يكون سبباً
 لحصول القوة ، وذكرها فيه وجوها :

الأول : المراد من القوة أنواع الأسلحة .

الثاني : روى أنه - عليه السلام - قرأ هذه الآية على المنبر وقال : « ألا
 إن القوة الرمي ، قالها ثلاثاً .

الثالث : قال بعضهم : القوة هي الحصون .

الرابع : قال أصحاب المعاني : الأولى أن يقال : هذا عام في كل ما يتقوى به
 على حرب العدو ، وكل ما هو آلة للفرز والجهاد فهو من جملة القوة ، وقوله
 - عليه السلام - : « القوة هي الرمي » لا ينافي كون غير الرمي معتبراً ،
 كما أن قوله - عليه السلام - « الحج عرفه والندم قوته » لا ينافي اعتبار غيره .
 بل يدل على أن هذا المذكور جزء شريف من المقصود فكذلك هنا .

وهذه الآية تدل على أن الاستعداد للجهاد بالنبل ، والسلاح ، وتعليم
 الفروسية ، والرمي فريضته إلا أنه من فروض الكفايات .

٣ - أن رباط الخيل للجهاد في سبيل الله فضله عظيم ، وثرابه كبير ،

(١) تفسير القاسمي ج ٨ ص ٣٠٢٥

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ١٥ ص ١٨٥

فقد كانت الخيل هي خير ما عرف العرب من وسائل الانتقال في الحرب
وأسرها ، وما زالت الخيل لها قيمتها في بعض أنواع الحروب .

قال القرطبي ، فإن قيل : إن قوله : وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ،
كان يكفي ، فلما خص الخيل بالذكر ؟ .

قيل له : إن الخيل لما كانت أصل الحرب وأوزارها (١) التي عقد الخير
في نواصيها ، وهي أقوى القوة ، وأشد العدة ، وحصون الفرسان ، وبها
يجال في الميدان ، لما كانت كذلك خصها بالذكر تشريفاً ، وأقسم بغيرها
تكريماً ، فقال : « والمعاديات ضيحا » (٢) .

وقال الإمام ابن العربي : وأما رباط الخيل فهو فضل عظيم ومنزلة شريفة .
روى الأئمة عن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « الخيل
ثلاثة ، لرجل ستر ، ولرجل أجر ، وعلى رجل وزر . فأما الذي هي عليه
وزر فرجل رباطها رياء وفخرا ونوا . لأهل الإسلام - أي : مناواة
ومعاداة - فهي عليه وزر .

وأما الذي هي عليه ستر فرجل رباطها تغنيا وتعفا ، ولم ينس حق الله
في ظهورها فهي عليه ستر .

وأما الذي هي له أجر فرجل رباطها في سبيل الله ، فأطال لها في مرج
أو روضة ، فما أكلت من ذلك المرج أو الروضة من شيء . إلا كتب الله له
عدد ما أكلت حسنات

وروى البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله قال : رأيت رسول الله
ﷺ - يلوي فاصية فرس أباصبعيه وهو يقول : « الخير معقود في نواصي
الخيال إلى يوم القيامة » (٣) .

(١) أوزار الحرب : أثقالها من آلة حرب وسلاح وغيره .

(٢) تفسير القرطبي ج ٨ ص ٢٧

(٣) أحكام القرآن - القسم الثاني ص ٨٦٢ لابن العربي . طبعة عيسى

الحلبي . الطبعة الأولى سنة ١٩٥٧ .

٤ - أن المقصود من إعداد العدة في الإسلام إنما هو إرهاب الأعداء حتى لا يفكروا في الاهتداء على المسلمين ، وحتى يعيش أتباع هذا الدين آمنين مطمئنين في ديارهم ، وحتى يستطيعوا أن يبلغوا رسالة الله إلى خلقه من الناس دون أن يخشوا أحدا سواه - عز وجل .

وليس المقصود بإعداد العدة إرهاب المسالمين ، أو العدوان على الأمنين ، أو القهر والإذلال للناس واستغلالهم فيما يغضب الله - تعالى - . . .
ولذلك وجدنا الآية صريحة في بيان المقصود من هذا الإعداد ، وهو - كما عبرت عنه - ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم

وهناك آيات أخرى صريحة في بيان سبب مشروعية القتال في الإسلام ومن ذلك قوله - تعالى - : : وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تفتنوا إن الله لا يحب الممتدين ، (١) .

وقوله - تعالى - : : وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ، (٢) .

والخلاصة : إن من أئمة آيات القرآن الواردة في القتال يجمعها جميعها تقرر أن سبب القتال في الإسلام ينحصر في رد العدوان ، وحماية الدعوة الإسلامية من التطاول عليها ونشيت حرية العقيدة ، وتطهير الأرض من الظلم والطغيان .

٥ - وجوب الإنفاق في سبيل الله ، ومن أشرف وجوه الإنفاق في سبيل الله أن يذل المسلم ما يستطيع بذله في الجهاد الذي هو ذروة ستام الإسلام ، والذي ما تركه قوم إلا ذلوا . . . وألقوا بأنفسهم في التهلكة .

واقعد بشرت الآية للكرامة المشفقين في سبيل الله ، بأنه - سبحانه - سيجازيهم على إنفاقهم جزاء وافيا لا نقص معه ولا ظلم .

(١) سورة البقر الآية ١٩٠ (٢) سورة البقرة : الآية ١٩٣ .

قَالَ تَعَالَى - وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلِبُونَ ،
 وَفِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي يَحْيَى قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ
 - ﷺ - : « مَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَتَبَ لَهُ سَبْعُمِائَةِ ضِعْفٍ (١) » .
 ثُمَّ أَمَرَ - تَعَالَى - رَسُولَهُ - ﷺ - بِقَبُولِ السَّلَامِ وَالْمَصَالِحَةِ ،
 إِذَا مَا رَغِبَ أَعْدَاؤُهُ فِي ذَلِكَ ، وَكَانَتْ ظَوَاهِرُهُمْ وَأَفْعَالُهُمْ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِ
 نَوَايَاهُمْ فَقَالَ - تَعَالَى - :

وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ
 هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ
 هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَالْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ
 أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ
 أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾

وَقَوْلُهُ جَنَحُوا ، مِنَ الْجَنُوحِ بِمَعْنَى الْمِيلِ ، بِقَالَ : جَنَحَ فُلَانٌ لِلشَّيْءِ - وَإِلَيْهِ
 - يَجْنَحُ - مِثْلُ النُّونِ - جَنُوحًا . أَيْ : مَالَ إِلَيْهِ وَلَهُ .
 - قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَالْجَنُوحُ : الْمِيلُ . وَجَنَحَ الرَّجُلُ إِلَى الْآخِرِ : مَالَ إِلَيْهِ .
 وَمِنْهُ قِيلَ لِلْإِضْلَاعِ جَوَانِحٌ ، لِأَنَّهَا مَالَتْ عَلَى الْحَشْوَةِ - بِضَمِّ الْحَاءِ وَكُسْرِهَا -
 أَيْ : الْأَعْمَاءِ .

وَجَنَحَتِ الْإِبِلُ : إِذَا مَالَتْ أَعْنَاقُهَا فِي السَّيْرِ قَالَ ذُو الرِّمَّةِ :

إِذَا مَالَتْ فَوْقَ الرِّجْلِ أَحْبَبْتُ رُوحَهُ - بِذِكْرِ الْكَوْنِ وَالْعَبَسِ الْمُرَاسِيلِ جَنَحَ (٢)
 وَقَرَأَ الْأَعْمَشُ وَأَبُو بَكْرٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَالسَّيِّدُ - بِكُسْرِ السِّينِ - وَقَرَأَ الْبَاقُونَ

(١) رِيَاضُ الصَّالِحِينَ لِلْإِمَامِ الذَّهَوِيِّ ص ٤٨٩ طَبْعَةُ مَكْتَبَةِ الْعِلْمِ .

(٢) الْعَيْسُ : الْإِبِلُ الْبَيْضُ . وَالْمُرَاسِيلُ : مَهْمَلَةُ السَّيْرِ وَجَنَحَ : مَانَتْ صَدُورُهَا إِلَى الْأَرْضِ

بافتتح . وإنما قال ذلك ، لأن السلم مؤنثة - تأنيث نقيضها وهي الحرب - . ويجوز أن يكون التأنيث ، للفعلة (١) .

والمعنى : عليك - أيها الرسول الكريم - أن تتكل في الحرب بأوائلكم الكافرين النافذين لعهودهم في كل مرة ، وأن تهيب ما استطاعت من قوة لإرهابهم فإن مالوا بعد ذلك إلى السلم ، أي : المسالمة والمصالحة فوافقهم ومل إليهم ما دامت المصالحة في هذه المسالمة .

وقوله : وتوكل على الله لأنه هو السميع العليم ، معطوف على فاجتنب لها . لقصد التثبيت وبعث الطمأنينة في قلبه .

أي : أقبل المسالمة ما دام فيها مصلحتك ، وفوض أمرك إلى الله - تعالى - . ولا تخش مكرهم وكيدهم وغدرهم ، لأنه - سبحانه - هو السميع ، لا فوالهم . والعليم ، بأحوالهم ، فيجازيهم بما يستحقون ، ويرد كيدهم في نفوسهم . وعبر - سبحانه - عن جنوحهم إلى السلم بحرف « إن » ، الذي يعبر به عن الشيء المشكوك في وقوعه ، الإشارة إلى أنهم ليسوا أهلاً لإختيار المسالمة أو المصالحة لذاتها ، وإنما هم جنحوا إليها لاجتباب نفوسهم ، فعلى المؤمنين أن يكونوا دائماً على حذر منهم ، وألا يأمنوا مكرهم .

هذا وقد اختلف العلماء فيمن عني بهذه الآية . فمنهم من يرى أن المعنى بها أهل الكتاب ، ومنهم من يرى أن الآية عامة . أي تشمل أهل الكتاب والمشركين . ثم اختلفوا بعد ذلك في كونها منسوخة أولاً ؟

وقد حكى ابن جرير معظم هذه الخلافات ورجح أن المقصود بهذه الآية جماعه من أهل الكتاب ، وأن الآية أبست منسوخة فقال ما ملخصه :
« عن قتادة أن قوله : وإن جنحوا للسلم فاجتنب لها . . . منسوخة بقوله في سورة براءة : فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » (٢) . وبقوله : « وقالوا المشركين كافة » (٣) .

(١) تفسير القرطبي يتصرف بصير ج ٨ ص ٣٩ .

(٢) سورة براءة ، التوبة ، الآية ٥ (٣) سورة براءة ، التوبة ، الآية ٣٩ .

فقد كانت هذه - أى الآية التى معنا وهى قوله - تعالى - « وإن جنحوا
للسلم ... » - قبل براءة - كان النبى - ﷺ - يوادع القوم إلى
أجل ، فإما أن يسلموا ، وإما أن يقاتلهم ، ثم نسخ ذلك بعد فى براءة فقال :
« فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » .

وعن عكرمة والحسن البصرى قالا : « وإن جنحوا للسلم ... » ، نسختها
الآية التى فى براءة وهى قوله - تعالى - « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله
ولا باليوم الآخر ... » (١) الآية .

ثم قال ابن جرير : فأما ما قاله قتادة ومن قال مثل قوله من أن هذه الآية
منسوخة ، فقول لا دلالة عليه من كتاب ولا سنة ولا فطرة عقل .

لأن قوله « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ... » إنما عنى به بنو قريظة
- كما قال مجاهد - وكانوا يهودا أهل كتاب وقد أذن الله - جل ثناؤه - للمؤمنين
بصلح أهل الكتاب ، وماتاركتهم الحرب ، على أخذ الجزية منهم ، وأما قوله :
« فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ... » ، فإما عنى به مشركو العرب من عبدة
الأوثان ، الذين لا يجوز قبول الجزية منهم ، فليس فى إحدى الآيتين نفى
حكم الأخرى ، بل كل واحدة منهما محكمة فيما أنزلت فيه ... (٢) .

هذا ما يراه ابن جرير . أما ابن كثير فقد وافقه على أن الآية ليست
منسوخة ، وخالفه فى أن المقصود بها بنو قريظة ، فهو يرى أن الآية عامة
فقد قال - رحمه الله - :

قوله : « وإن جنحوا ، أى : مالوا للسلم ، أى المسالمة والمصالحة والمهادنة
« فاجنح لها ، أى : قبل لإبائها وأقبل منهم ذلك » . ولهذا لما طلب المشركون عام
الحديبية للصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
تسع سنين أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر ...

(١) سورة براءة ، النوبة ، الآية ٢٩

(٢) تفسير ابن جرير ج ١٠ ص ٣٤ .

وقال مجاهد : نزلت في بنى قريظة ، وهذا فيه نظر ، لأن السباق كله في وقعة بدر ، وذكرها مكتشف لها كله .

وقال ابن عباس ومجاهد وزيد بن أسلم وعطاء الخراساني وعكرمة والحسن وقتادة : إن الآية منسوخة بآية السيف في براءة ، وهي قوله - تعالى - « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » ،

وفيه نظر أيضا ، لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك ، فأما إذا كان العدو كثيفا فإنه يجوز مهادنتهم كما دلت عليه هذه الآية لا كريمة . « وإن جنحوا . . . » ، وكما فعل النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم الحديبية . فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص . . . (١) .

ويبدو لنا أن ما ذهب إليه ابن كثير أرجح ، لأن الآية الكريمة تقرر مبدأ عاما في معاملة الأعداء ، وهو أنه من الجائز مهادنتهم ومسالمتهم ما دام ذلك في مصلحة المسلمين .

ولعل هذا هو ما قصد به صاحب الكشف بقوله - عند تفسير الآية - : « والصحيح أن الأمر موقوف على ما يرى فيه الإمام صلاح الإسلام وأهله من حرب أو سلم . وليس يحتم أن يقاتلوا أبدا . أو يجابوا إلى الهدنة أبدا » (٢) . ثم أمّن الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - من خداع أعدائه ، لأنهم أرادوا خيانتة ، ويتوالاه الغدر من وراء الجنوح إلى السلم فقال - تعالى - : « وإن يريدوا أن يخدعوك ، فإن حسبك الله هو الذي أهدى بني نضير » . أي : وإن يرد هؤلاء الأعداء الذين جنحوا إلى السلم في الظاهر أن يخدعوك

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٢٢ .

(٢) تفسير الكشف ج ٢ ص ٢٣٣ .

- يا محمد - لتكف عنهم حتى يستعدوا لمقاتلتك فلا تبال بخداهم ، بل صالحهم مع ذلك إذا كان في الصلح مصلحة للإسلام وأهله ، ولا تخف منهم ، فإن الله كافيك بنصره ومعوته ، فهو - سبحانه - الذي أمرك بما أمرك به من وسائل النصر الظاهرة والخافية ، وهو - سبحانه - الذي أيدك بالمؤمنين الذين هانت عليهم أنفسهم وأموالهم في سبيل إعزاز هذا الدين ، وإعلاء كلمته . . .

قآاية الكريمة تشجيع للنبي - صلى الله عليه وسلم - على السير في طريق الصلح ما دام فيه مصلحة للإسلام وأهله ، وتبشير له بأن النصر سيكون له حتى ولو أراد الأعداء بإظهار الميل إلى السلم المخادعة والمراوغة . وقوله : - حسب ، صفة مشبهة بمعنى اسم الفاعل . أى . بحسبك وكافيك .

قال الفخر الرازى : فإن قيل : أليس قد قال - تعالى - : وإما تخافن من قوم خيانة فأنبذ إليهم . . . ، أى : أظهر نقض ذلك العهد ، وهذا يناقض ما ذكره في هذه الآية ؟

قلنا : قوله : : وإما تخافن من قوم خيانة ، محمول على ما إذا ما كذلك الخوف بأمارات قوية دالة عليها وتحمل هذه المخادعة على ما إذا حصل في قلوبهم نوع نفاق وتزوير ، إلا أنهم لم تظهر أمارات تدل على كونهم قاصدين للشر وإثارة الفتنة ، بل كان الظاهر من أحوالهم الثبات على المسالمة وترك المنازعة . . . فإن قيل : كما قال : : هو الذى أيدك بنصره ، فأى حاجة مع نصره إلى المؤمنين حتى قال : وبا المؤمنين ، ؟

قلنا : التأييد ليس إلا من الله لكنه على قسمين : أحدهما ما يحصل من غير واسطة أسباب معلومة ومتادة . والثانى ما يحصل بواسطة أسباب معلومة . فالأول هو المراد من قوله : أيدك بنصره ، والثانى هو المراد من قوله : وبا المؤمنين ، (١) .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١٥ ص ١٨٨ .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله في كيفية تأييده لرسوله بالمؤمنين فقال - تعالى - : « وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » .

أى : أن من مظاهر فضل الله عليك يا محمد أن أيدك - سبحانه - بنصره وأن أيدك بالمؤمنين ، بأن حجب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم ، وجعل منهم قوة موحدة ، فصاروا بفضل - تعالى - كالنفس الواحدة ، بعد أن كانوا متنازعين متفرقين وأمت يا محمد لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ، من الذهب والفضة وغيرهما ، استطعت أن تؤلف بين قلوبهم المتنازعة المتنازعة ولكن الله ، بفضل وقدرته هو وحده الذي ألف بينهم ، فصاروا إخواناً متحابين متصافين ، إنه - سبحانه - عزيز ، أى : غالب في ملكه وسلطانه على كل ظاهر وباطن ، حكيم ، في كل أفعاله وأحكامه ..

وهذه الآية الكريمة يؤيدها التاريخ ، ويشهد بصدقها أحداثه ، فنحن نعلم أن العرب - وخصوصاً الأوس والخزرج - كانوا قبل الإسلام في حالة شديدة من التفرق والتخاصم والتنازع والتعارب ... فلما دخلوا في الإسلام تحول بعضهم إلى حب ، وتغاضهم إلى مودة ، وتفرقهم إلى اتحاد ... وصاروا في توادهم وتراحهم وتعاطفهم ، إلى مستوى لم يعرفه التاريخ من قبل ... ولقد أجاد صاحب الكشف - رحمه الله - في تصويره لهذه المعاني حيث قال :

« النأليف بين قلوب من بعث إليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الآيات الباهرة ، لأن العرب - لما فيهم من الحمية والعصبية ، والانطواء على الضيق ... لا يكاد يأنف منهم قلبان ، ثم ألتفت قلوبهم على اتباع رسول الله - ﷺ - واتحدوا ، وأنشأ يرمون من قوس واحدة ، وذلك لما نظم الله من الفتهم ، وجمع من كلمتهم ، وأحدث بينهم من التعاطف والتواد ، وأماط عنهم من التباغض والتماثل ، وكلفهم من الحب ، في الله والبعث في الله . ولا يقدر على ذلك إلا من يملك القلوب ، فهو يقبلها كيف يشاء ، ويصنع فيها يريد » .

قيل : هم الأوس والخزرج ، كان بينهم من الحروب والوقائع ما أهلك
سادتهم ورؤسائهم ، ودق جراحهم . ولم يكن لبعضائهم أمد ومنتهى . وبينهم ما
التجاور الذي يهيج الضغائن ، وينهم التحاسد والتنافس . وعادة كل طائفتين
كانتا بهذه المثابة أن تتجنب هذه ما آثرته أختها ، ونكرهه وتنفر منه .

فأنساهم الله - تعالى - ذلك كله ، حتى اتفقوا على الطاعة ، وتصافوا وصاروا
أنصاراً ، وعادوا أحراراً ، وما ذاك إلا باطيف صنعه ، وبلغ قدرته ، (١) .
هذا ، وفي الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما خطب الأنصار
في شأن غنائم حنين ، قال لهم : يا معشر الأنصار ! ألم أجِدْكم ضلّالاً فهداكم
الله بي ، وعالة فآغناكم الله بي ؟ وكنتم متفرقين فآلفكم الله بي ؟ فكانوا
يقولون كلما قال شيئاً : الله ورسوله آمن ، (٢) .

وروى الحاكم أن ابن عباس كان يقول : إن الرحم لتقطع ، وإن النعمة
لتكفر ، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يرحر حهاشي . ثم يقرأ قوله - تعالى - :
ولم أنفق مافي الأرض جميعاً ، ما ألفت بين قلوبهم وأدكن الله ألف
بينهم . (٣) .

ثم مضت السورة الكريمة في تثبيت العامرية في قلب النبي - ﷺ -
وفي قلوب أصحابه ، فبينت لهم أن الله كافهم وناصرهم ، وأن الفلة منهم
تغلب البكرة من أعداء الله وأعدائهم فقال - تعالى - :

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٣٣ .

(٢) صحيح البخاري ج ٥ ص ٢٠٠ من كتاب المغازي ، طبعة مصطفى
الحلبي سنة ١٩٤٥ وصحيح مسلم ج ٢ ص ١٠٨ من كتاب الزكاة .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٢٢ .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ
 اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ
 إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ
 مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٧﴾ أَلَسَنَ
 خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ
 يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ
 وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٨﴾

قال الفخر الرازي : اعلم أنه - تعالى - لما وعده بالنصر عند مخاضه
 الأعداء ، وعده بالنصر والظفر في هذه الآية مطلقاً على جميع التقديرات ،
 وعلى هذا الوجه لا يلزم حصول التكرار ؛ لأن المعنى في الآية الأولى :
 إن أرادوا خداعك كماك الله أمرهم .

والمعنى في هذه الآية عام في كل ما يحتاج إليه في الدين والدنيا .

وهذه الآية نزلت بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال . . . (١) .

وقوله : « حسب » صفة مشبهة بمعنى اسم الفاعل . والكافر في محل جر
 والوارد في قوله « ومن اتبعك » بمعنى مع ، و « من » في محل نصب
 مطلقاً على الموضع ، فإن قوله « حسبك » بمعنى كافيك في جميع أمورك .
 والمعنى : يا أيها النبي كافيك الله وكافي متبعيك من المؤمنين فهو - سبحانه -
 فاعلهم ومؤيدهم على أعدائهم وإن كثرت عددهم وقل عددكم ، وما دام الأمر
 كذلك ، فاعتمدوا عليه وحده ، وأطيعوه في السر والعلان ؛ لكي يديم عليكم
 عزه وتأييده ونصره .

قال بعض العلماء : قال ابن القيم عند تفسيره لهذه الآية : أي : الله وحده
 (١) تفسير الفخر الرازي ج ١٥ ص ١٩١ . طبعه عبد الرحمن محمد .

كافيك وكافى أتباعك فلا يحتاجون معه إلى أحد . ثم قال : وهما تقريران :
أحدهما : أن تكون الواو عاطفة للفظ « من » ، على السكاف المجرورة ...
والثانى : أن تكون الواو بمعنى « مع » ، وتكون « من » ، فى محل نصب
عطفا على الموضع ، فإن « حسبك » ، فى معنى كافيك أى : الله يكفىك ويكفى
من أتبعك ، كما يقول العرب : حسبك وزيدا درهم ، قال الشاعر :

ولإذا كانت الهجاء وانشقت الفصا فحسبك والضحاك سيف مهند

وهذا أصح التقريرين . وفيها تقدير ثالث : أن تكون « من » فى موضع
رفع بالابتداء : أى ومن أتبعك من المؤمنين فحسبهم الله

وفيها تقدير رابع وهو خطأ من جهة المعنى ، وهو أن يكون « من » فى
موضع رفع عطفا على اسم الله . ويكون المعنى : حسبك الله وأتباعك .

هذا وإن قال به بعض الناس فهو خطأ محض ، لا يجوز حمل الآية عليه ،
فإن الحسب والكتابة لله وحده ، كالتوكل والتقوى والعبادة . . . (١) .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - بتحريض المؤمنين على
القتال من أجل إعلاء كلمة الحق ، فقال - تعالى - : يا أيها النبى حرض

المؤمنين على القتال

وقوله : « حرض » من التحريض بمعنى الحث على الشىء - بكثرة التزبين له -
وتسهيل الأمر فيه حتى تقدم عليه النفس برغبة وحماس .

قال الراغب : الحرض ما لا يعتد به ولا خير فيه ، ولذلك يقال لمن أشرف على
الهلكاء حرض . قال - تعالى - : حتى تكون حرضا أو من الهالكين . . .

والتحريض : الحث على الشىء . . . فكأنه فى الأصل إزالة الحرض نحو
حرضته وقضته أى : أزلت عنه الحرض والقضى . . . (٢) .

ولمعنى : يا أيها النبى بالغ فى حث المؤمنين واحمهم على القتال بصبر
وجلد ، من أجل إحقاق الحق وإبطال الباطل .

ولهذا كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحرض أصحابه على القتال

(١) تفسير القاسمى ج ٨ ص ٣٠٣

(٢) المفردات فى غريب القرآن ص ١١٢

هند منهم ومواجهة الأعداء كما قال لأصحابه يوم بدر حين أقبل المشركون في عدد وعددم : « قوموا إلى حنة عرضها السموات والأرض » ، فقال عمر بن الخطاب : عرضها السموات والأرض ؟ فقال رسول الله : نعم ، فقال عمر : بخ ، بخ ، فقال - ﷺ - : « ما يملك على قولك بخ بخ » ، قال : رجاء أن أكون من أهلها ، قال - ﷺ - : « فإنك من أهلها » ، فنقدم الرجل فكسر سيفه وأخرج تمرات فجعل يأكل فنهز ، ثم ألقي بقيته من يده وقال : « إني أنا حديد حتى آكلهن ، إنها الحياة طويلة » ، ثم تقدم فقاتل حتى قتل - رضى الله عنه - (١) .

وقوله : « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين » ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون ، بهارة من الله - تعالى - للمؤمنين ، ووعد لهم بالظفر على أهدانهم .
أى : قابلوها - أيها المؤمنون أعداءكم بقوة وإقدام ، فانكم إن يوجد منكم عشرون رجلاً صابرون يغلبوا - بسبب إيمانهم وصبرهم - مائتين من الكافرين ، وإن يوجد منكم مائة يغلبوا ألفاً منهم ، وذلك بسبب أن هؤلاء الكافرين قوم حيلة بحقوق الله - تعالى - وبما يجب عليهم نحوه .
فهم - كما يقول صاحب الكشف - : « يقاتلون على غير احتساب وطلب ثواب كالبهائم » فيقل ثباتهم . ويعلمون أجملهم بالله نصرته ، ويستحقون الخذلان . بخلاف من يقاتل على بصيرة ومعه ما يستوجب به النصر والإظهار من الله - تعالى - ، (٢) .

وقال صاحب المنار : والآية تدل على أن من شأن المؤمنين أن يكونوا أعلم من الكافرين وأفقه منهم بكل علم وفن يتعلق بحياة البشر وإزقاء الأمم ، وأن حرمان الكفار من هذا العلم هو السبب في كونهم المائة منهم دون البشرية من المؤمنين الصابرين . . .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٢٤

(٢) تفسير الكشف ج ٢ ص ٢٣٥

هو هكذا كان المؤمنون في قرونهم الأولى . . . أما الآن فقد أصبح المسلمون غافلين عن هذه المعاني الجليلة ، فزال مجدهم . . (١) .

ثم حكى - سبحانه - بعض مظاهر فضله على المؤمنين ورحمته بهم فقال : « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله . . . » وقوله « ضعفاً » قرأه بعضهم بفتح الضاد ، وقرأ آخرون بضمها ، وهما بمعنى واحد عند الجمهور ، والمراد به الضعف في البدن .

وقيل الضعف - بالفتح - يكون في الرأي والعقل ، وبالضم يكون في البدن والمعنى : لقد فرضنا عليكم - أيها المؤمنون - أول الأمر أن يثبت الواحد منكم أمام عشرة من الكافرين والآن وبعد أن شق عليكم الاستمرار على ذلك ، ولم يبق هناك ضرورة لدوام هذا الحكم لكم لكثرة هذدكم . . . شرعنا لكم التخفيف رحمة بكم ، ورعاية لأحوالكم ، فأوجبنا عليكم أن يثبت الواحد منكم أمام اثنين من أعدائكم بدلاً من عشرة ، وبشرناكم بأنه إن يوجد منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين من أعدائكم ، وإن يوجد منكم ألف يغلبوا ألفين منهم بإذن الله ونيسيره . وتأيده .

وقوله : « والله مع الصابرين » ، تذييل مقرر لمضمون ما قبله .

أى : والله - تعالى - مع الصابرين بتأييده ورعايته ونصره ، محارصوا على أن تكونوا من المؤمنين الصادقين لتتألوا منه - سبحانه - ما يسعدكم في دنياكم وآخرتكم .
هذا ، ومن العلماء من يرى أن هذه الآية قد نسخت الآية السابقة عليها ، ومنهم من يرى غير ذلك .

قال الألوسي : قوله : « إن يكن منكم عشرون » ، شرط في معنى الأمر

بمصاراة الواحد العشرة ، والوعد بأنهم إن صبروا غلبوا - بعون الله -
وتأييده - فاجلثة خبريه لفظاً لإنشائية معنى .

والمعنى : ليصبرن الواحد لعشرة ؛ وليست بغير محض ...

وقوله : الآن خفف الله عنكم . . . ، أخرج البخاري وغيره عن

ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : لما نزلت : إن يكن منكم عشرون ...

شق ذلك على المسلمين إذ فرض عليهم أن لا يفر واحد من عشرة فجاء التخفيف

وهل يعد ذلك نسخاً أولاً ؟ قولان : اختار بعضهم الثانى منهما وقال : إن

الآية مخففة ، ونظير ذلك التخفيف على المسافر بالفطر .

وذهب الجمهور إلى الأول ، وقالوا : إن الآية الثانية ناسخة الأولى (١) -

وقال بعض العلماء : فرض الله على المؤمنين أول الأمر ألا يفر الواحد

من المؤمنين من العشرة من الكفار ، وكان ذلك فى وسعهم ، فأمر الله بهم

الدين على قلتهم ، وخذل بأيديهم المشركين على كثرتهم ، وكانت السرايا

تهزم من المشركين أكثر من عشر أمثالها تأييداً من الله لدينه .

ولما شق على المؤمنين الاستمرار على ذلك ، وضعفوا عن تحمله ، ولم

تبق ضرورة لدوام هذا الحكم لكثرة عدد المسلمين عن دخلوا فى دين الله

أفواجا نزل التخفيف ، ففرض على الواحد الثبات للثنين من الكفار ،

ورخص له فى الفرار إذا كان العدو أكثر من اثنين .

وهو - كما اختاره مكى - رخصة كالنظر للمسافر ، وذهب الجمهور إلى

أنه نسخ (٢) .

وقال الشيخ القاسمى : إن قيل : إن كفاية عشرين لماثنين تغنى عن كفاية

مائة لآلف ، وكفاية مائة لماثنين تغنى عن كفاية ألف لآلفين ، لما نقر من

وجوب ثبات الواحد للعشرة فى الأولى ، وثبات الواحد للثنين فى الثانية

فأمر هذا التكرير ؟

(١) تفسير الألوسى ج ١٠ ص ٣١ بتصرف وتلخيص .

(٢) صفوة البيان لمعانى القرآن ص ٣٠٧ فضيلة الأسماء الشيخ حسين محمد مخلوف .

أجيب : بأن سره كون كل مدة بتأييد القليل على الكثير لإزادة التفسير المفيد لإزادة الاطمئنان ، والدلالة على أن الحال مع القلة والكثرة واحدة لا تتفاوت ، فإن العشرين قد لا تغلب المائتين ، وتغلب المائة الآلاف ، وأما الترتيب في المكرر فعلى ذكر الأقل ثم الأكثر على الترتيب الطبيعي .
وقيل في سر ذلك : إنه بشارة للمسلمين بأن جنود الإسلام سي اوز هدهما العشرات والمئات إلى الألوف .

ثم قال : وقال في البحر : انظر إلى فصاحة هذا الكلام ، حيث أثبت في الشرطية الأولى قيد الصبر ، وحذف نظيره من الثانية ، وأثبت في الثانية قيد كفرهم من الكفرة ، وحذفه من الأولى ، ولما كان الصبر شديد المطلوبة أثبت في جملة الترخيف وحذف من الثانية الدلالة السابقة عليه ، ثم ختمت بقوله : والله مع الصابرين ، مبالغة في شدة المطلوبة ، وإشارة إلى تأييدهم وأنهم منصورون حتما ، لأن من كان الله معه لا يغلب .. ، (١) .

وبعد هذا الحديث المستفيض عن القتال في سبيل الله .. عقب سبحانه ذلك بالحديث عن بعض الأحكام التي تتعلق بالأسرى بمناسبة ما فعل الرسول ﷺ - مع أسرى غزوة بدر من الكافرين ، فقال - تعالى -

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُفْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾
لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾
فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾

ذكر المفكرون في سبب نزول هذه الآيات روايات منها ، ما أخرجه مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال : حدثني عمر بن الخطاب : أنه لما كان يوم بدر نظر رسول الله - ﷺ - إلى المشركين وهم ألف ، وأصبح ثلثمائة وتسعة عشر رجلاً ، فاستقبل القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف برأيه اللهم أنجز لي ما وعدتني .

فقتل المسلمون من المشركين يومئذ سبعين وأسرُوا سبعين .

قال ابن عباس : فلما أسروا الأسارى قال رسول الله - ﷺ - لآبي بكر وعمر : ماترون في هؤلاء الأسارى ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار ، فمضى أن يهديهم إلى الإسلام .

فقال رسول الله - ﷺ - ما ترى يا ابن الخطاب ؟ قال : قلت لا والله يا رسول الله ، ما أرى الذي رأى أبو بكر ، ولكن أرى أن تمكثهم فتنضرب أعناقهم ، فتمكث علياً من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكث حمزة من العباس فيضرب عنقه ، وتمكثني من فلان - نسيب لعمر - فأضرب عنقه ، - حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة للمشركين ، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده . فهوى رسول الله - ﷺ - ما قال أبو بكر ، ولم يهو ما قلت .

فلما كان من الغد جنت ، فإذا رسول الله وأبو بكر يبيكان ، فقلت : يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك ، فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاءً لم أكبت لبكاءكما .

فقال رسول الله - ﷺ - : أبكي على أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة - لشجرة قريبة منه - ﷺ .

حو أنزل الله - هو وجل - : ما كان لنبي أن يكون له أمرى حتى يتنخس
عن الأرض . . . إلخ الآيات (١) .

وروى الإمام أحمد والترمذى عن عبد الله بن مسعود قال : لما كان يوم
بدر قال رسول الله - ﷺ - : ما تقولون في هؤلاء الأسارى ؟ فقال أبو
بكر : يا رسول الله ! قومك وأهلك استبقهم واستبقهم ! هل الله أن يتوب عليهم .
وقال عمر : يا رسول الله ! كذبوك وأخرجوك فقد همم فاضرب أعناقهم .
وقال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله ، أنت في واد كثير الحطب
فأضرم الوادى عليهم ناراً تم ألقهم فيه .

قال : فسكت رسول الله - ﷺ - فلم يرد شيئاً . ثم قام فدخل فقال ناس :
ياخذ بقول أبي بكر . وقال ناس : ياخذ بقول عمر . وقال ناس : ياخذ بقول
ابن رواحة .

ثم خرج عليهم رسول الله فقال : إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى
تكون ألين من اللين ، ويشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة
وإن مثلك يا أبى بكر كمثل إبراهيم إذ قال : فن تبعنى فانه منى ومن عصانى
فانك غفور رحيم ، (٢) . وكمثل عيسى إذ قال : إن تعذبهم فانهم عبادك
وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم ، (٣) .

وإن مثلك يا عمر كمثل نوح إذ قال : رب لا تذر على الأرض من
الكافرين دياراً ، (٤) ، وكمثل موسى إذ قال : ربنا اطمس على أموالهم
واشددهم على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، (٥) .
ثم قال - ﷺ - : : أنتم هالة فلا يغفلن أحد إلا بفداء أو ضربة عنق .

(١) صحيح مسلم ج ٥ ص ١٥٦ من كتاب الجهاد والسير ط مطبعتى الحلبي سنة ١٩٦٠

(٢) سورة إبراهيم الآية ٣٦ (٣) سورة المائدة ١٢١

(٤) سورة نوح ٢٦ (٥) سورة يونس ٨٨

قال ابن مسعود : فقلت يا رسول الله ، إلا سهيل بن بيضاء ، فإنه يذكر الإسلام ، فسكت رسول الله ثم قال : إلا سهيل بن بيضاء ، وأنزل الله - عز وجل - : ما كان لنبي أن يكون له أمرى حتى يشن في الأرض . . . إلى آخر الآية (١) .

وقال ابن إسحاق - وهو يحكى أخبار غزوة بدر - : فلما وضع القوم أيديهم بأسرون ورسول الله - ص - في العريش ، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش الذى فيه رسول الله - ص - متوحشاً بالسيف في نفر من الأنصار يحرسون رسول الله ، يخافون عليه الذكوة ، ورأى رسول الله - فيما ذكر لى - في وجه سعد الذكوة لما يصنع الناس ، فقال رسول الله - ص - ، والله لكانه يا سعد تذكره ما يصنع القوم ، فقال : أجل والله يا رسول الله ، كانت هذه أول وقعة أوقفها الله بأهل الشرك ، فكان الإنخان في القتل أحب إلى من استيفاء الرجال (٢) .

قوله : أسرى ، : جمع أسير كقنتلى جمع قتيل . وهو مأخوذ من الأسر بمعنى القيد بالإسار أى : القيد الذى يقيد به حتى لا يهرب ، ثم صار لفظ الأسير يطلق على كل من يؤخذ من فتنه في الحرب ولو لم يشد بالإسار .

وقوله : يشن ، من الشخانة وهى فى الأصل الغلظ والصلابة . يقال : شن الشيء . يشن شخونة وشخانة وشخناً ، أى : غاظ وحلب فهو شخن ، ثم استعمل فى النكاية والمباغاة فى قتل العدو فقليل : أشخن فلان فى عدوه . أى : بالغ فى قتله وإنزال الجراحة الشديدة به ، لأنه بذلك يمنع من الحركة فيصير كالشخن الذى لا يسيل ولا يتحرك .

والمراد بالنبي فى قوله ما كان لنبي : نبيينا محمد - صلى الله عليه وسلم - وإنما جىء باللفظ منكراً تلطفاً به - صلى الله عليه وسلم - حتى لا يواجه بالعتاب .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٢٥

(٢) الروض الأنف فى شرح السيرة النبوية لابن هشام ج ٥ ص ١٠٦

والمعنى : ماصح وما استقام لنبي من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -
 « أن يكون له أسرى ، من أعدائه الذين يريدون به وبدعوته شرأ ، حتى
 يثخن في الأرض ، أى : حتى يبالغ في قتلهم ، وإنزاله الضربات الشديدة
 عليهم لإذلال الكافر وإعزاز لدين الله .

وقوله : « تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة » استثنافى مسوق
 للعتاب .

والعرض : ما لإثبات له ولا دوام من الأشياء ، فكأنها تعرض ثم
 تقول ، والمراد بعرض الدنيا هنا : الفداء الذى أخذه من أسرى غزوة
 بدر حتى يطلقوا سراحيهم .

أى : تريدون - أيها المؤمنون - بأخذكم الفداء من أعدائكم الأسرى
 عرض الدنيا ومتاعها الزائل ، وحطامها الذى لا ثبات له ، والله - تعالى -
 يريد لكم ثواب الآخرة .

فالكلام فى قوله : « والله يريد الآخرة » على حذف المضاف وإقامة
 المضاف إليه مقامه والإرادة هنا بمعنى الرضا أى : « والله - تعالى - يرضى
 لحكم العمل الذى يجهلكم تظفرون بشوابه فى الآخرة ، وهو تفضيل إذلال
 الشرك على أخذ الفداء من أهله .

وقوله : « والله عزيز حكيم » ، أى : والله - تعالى - عزيز ، لا يغالب
 بل هو الغالب على أمره « حكيم » ، فى كل ما يأمر به أو ينهى عنه .

فآية الكريمة تعتب على المؤمنين ، لأنهم أثروا الفداء على القتل والإثارة
 فى الأرض ، وذلك لأن غزوة بدر كانت أول معركة حاسمة بين الشرك
 والإيمان ، وكان المسلمون فيها قلة والمشركون كثرة ، فلو أن المسلمين أثروا
 الفداء فى إذلال أعدائهم من طريق القتل لكان ذلك أدعى لكسر شوكة
 الشرك وأهله ، وأظهر فى إذلال قريش وحلفائها ، وأصرح فى بيان أن العمل

على إعلال كلفة الله كان هندا المؤمنين فوق منع الدنيا وأعراضها، وأنهم لا يوادون من حارب الله ورسوله مهما بلغت درجة قرابته ، وهذا ما عبر عنه عمر - رضى الله عنه - بقوله : « وحتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هودة للمشركين » .
والخلاصة أن غزوة بدر - بظروفها وملايساتها التي سبق أن أشرنا إليها - كان الأولى بالمسلمين فيها أن يبالغوا في قتل أعدائهم لا أن يقبلوا منهم فداء حتى يذلّوهم ويعجزوهم عن معاودة الكرة .

ورضى الله - تعالى - عن سعد بن معاذ ، فقد ظهرت الكراهية على وجهه بسبب أخذ الفداء من الأسرى ، وقال - كما سبق أن بينا - :
« . . كانت غزوة بدر - أول وقعة أوقفها الله بأهل الفerk ، فكان الإثنان في القتل أحب إلى من استيقاء الرجال .

قال الفخر الرازى : قال ابن عباس : هذا الحكم إنما كان يوم بدر ، لأن المسلمين كانوا فلباين ، فلما كثروا وقوى سلطانهم أنزل الله بعد ذلك في الأسارى « حتى إذا أنخضتوهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » (١) .

ثم قال الرازى : وأقول : إن هذا الكلام يؤهم أن قوله « فإما منا بعد وإما فداء » يريد على حكم الآية التي نحن في تفسيرها : وليس الأمر كذلك ، لأن الآيتين متوافقتان ، فإن كليهما تدل على أنه لا بد من تقديم الإثنان ثم بعده أخذ الفداء ، (٢) .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بعض مظاهر رحمته بالمؤمنين :
« لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » ،

(١) سورة محمد - عليه السلام - الآية هـ

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ١٣ ص ٢٠٢

والمراد بالكتاب هنا : الحكم ، وإطلاق عليه كتاب لأن هذا الحكم مكتوب في اللوح المحفوظ .

والمفسرين أقوال في تفسير هذا الحكم السابق في علم الله — تعالى — : ففهم من يرى أن المراد به أنه — سبحانه — لا يعذب المخطئ في اجتهاده . وقد صدر صاحب الكشف تفسيره لهذه الآية بهذا الرأي فقال : قوله : ولولا كتاب من الله سبق ، أي : لولا حكم منه سبق إثباته في اللوح المحفوظ ، وهو أنه — سبحانه — لا يعاقب أحداً بخطأ ، وكان هذا خطأ في الاجتهاد ، لأنهم نظروا في أن استيقاهاهم ربما كان سبباً في إسلامهم وتوبتهم وأن فداءهم يتقوى به على الجهاد في سبيل الله ، وخفى عليهم أن قتلهم أعز الإسلام وأهيب لمن وراهم ، وأقل لشوكتهم . . . (١) .

ومنهم من يرى أن المراد به أنه — سبحانه — لا يعذب قوماً إلا بعد تقديم النهي عن الفعل ولم يتقدم نهى عن أخذ الفداء .

ومنهم من يرى أن المراد به أنه — سبحانه — لا يعذبهم مادام رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بينهم .

أو أنه — سبحانه — لا يعذب أحداً ممن شهد بدراً .

وقد ساق الإمام الرازي هذه الأقوال وناقشها ثم اختار أن المراد بالكتاب الذي سبق : هو حكمه — سبحانه — في الأزل بالعفو عن هذه الواقعة ، لأنه كتب على نفسه الرحمة ، وسبقت رحمته غضبه .

أما الإمام ابن جرير فهو يرى أن الآية خبر عام محصور على معنى دون معنى ، وأنه لا وجه لأن يخص من ذلك معنى دون معنى . . . فقال : يقول الله — تعالى — لأهل بدر الذين أخذوا من الأسرى الفداء ، لولا كتاب من الله سبق . . .

أى : لولا قضاء من الله سبق لكم أهل بدر في الألوح المحفوظ بأن الله يحل لكم الغنيمة ، وأن الله قضى أنه لا يصلح قوما بعد إذ هداهم حتى يذنبين لهم ما يفتقون ، وأنه لا يعذب أحداً شهد هذا المشهد الذى شهدتموه ببدر . . . لولا كل ذلك لنا لكم من الله بأخذكم الفداء عذاب عظيم ، (١) .

وبدرونا أن ما ذهب إليه ابن جرير - من أن الآية خبر عام يشمل كل هذه المعاني - أولى بالقبول ، لأنه لم يوجد نص صحيح عن النبى - صلى الله عليه وسلم - يحدد تفسير المراد من هذا الكتاب السابق في علمه - تعالى - . ولعل الحكمة في هذا الإجماع لتذهب الأفهام فيه إلى كل ما يحتمله اللفظ ، ويدل عليه المقام ، واسكى يعرفوا أن أخذهم الفداء كان ذنباً يستحقون العقوبة عليه لولا أن الله - تعالى - قدر في الأزل العفو عنهم بسبب وجود النبى - ﷺ - فيهم ، ولأنهم قد أخطأوا في اجتهادهم ، ولأنهم لم يتقدم لهم نهي عن ذلك ، ولأنهم قد شهدوا هذه الغزوة التى قال الرسول في شأن من حضرها على أسان ربه - عز وجل - : « دأبوا ما شئتم ففقه غفرت لكم . فقد روى الشيخان وغيرهما أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لعمر في قصة حاطب بن أبى بلتعة عند ما أخبر المشركين بأن الرسول سيفوزهم قبل فتح مكة وكان حاطب قد شهد بدرأ - : « وما يدريك لعل الله - تعالى - اطلع على أهل بدر وقال : « دأبوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، (٢) .

والمعنى الإجمالى للآية الكريمة : « لولا كتاب من الله سبق ، أى : لولا حكم من الله - تعالى - سبق منه في الأزل ، ألا يعذب المخطئ . على اجتتهاده أو ألا يعذب قوما قبل تقديم البيان إليهم . . . لولا كل ذلك دلسكم ، أى لأصابتكم وفيما أخذتم ، أى بسبب ما أخذتم من الفداء قبل أن تؤمروا به ، عذاب عظيم ، لا يقادر قدره في شدته وألمه .

قال ابن جرير : قال ابن زيد : لم يكن من المؤمنين أحد ممن نصر إلا أحب الغنائم إلا عمر بن الخطاب ، جعل لا يلقى أسيراً إلا ضرب عنقه وقال : يا رسول الله ما لنا والغنائم ؟ نحن قوم نجاهد في دين الله حتى يبسط الله فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لو هذبنا في هذا الأمر يا عمر ما نجأ فترك . . . وقال ابن اسحاق : لما نزلت لولا كتاب من الله سبق . . . الآية . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لو نزل عذاب من السماء لم ينج منه إلا سعد بن معاذ لقوله : يا نبي الله ، كان الإثخان في القتل أحب إلى من استيفاء الرجال ، (١) .

وقال بعض العلماء : قال القاضي ، وفي الآية دليل على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجتهدون ، وأنه قد يكون خطأ ، ولكن لا يقرون عليه (٢) ثم زاد - سبحانه - المؤمنين فضلاً ومنة فقال : فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً ، والله إن الله غفور رحيم . . .

قال الألوسي . . . أي أنه لما كانت الآية الأولى وما كان لنبي أن يكون له أسرى . . . كلف الصحابة أيديهم مما أخفوا من الغداء فزالت هذه الآية . فالمراد بقوله : مما غنمتم ، إما الفدية وإما مطلق الغنائم ، والمراد بيان حكم ما اندرج فيها من الفدية ، وإلا فحل الغنيمة مما عداها فلم سابقاً من قوله : واعلموا أنما غنمتم . . .

وقال المراد بقوله : والغنائم ، من غير اندراج الفدية فيها ، لأن القوم لما نزلت الآية الأولى امتنعوا عن الأكل والتصرف فيها وهذا منهم ، لا ظناً لحرمتها . والفاء للعطف على سبب مقدر ، أي قد أصبحت لكم الغنائم فكلوا مما غنمتم ، (٣)

(١) تفسير ابن جرير ج ١٠ ص ٤٨

(٢) تفسير القاسمي ج ٨ ص ٣٩٣٩

(٣) تفسير الألوسي ج ١٠ ص ٣٦ (م ١٨ - سورة الأنفال)

والمعنى : لقد غفرت عنكم - أي المؤمنون - فبارقتم فيه من أنفسكم
أخذ الفداء من الأسرى على قتلهم ، وأجبت لكم الانتفاع بالعتاق ، فكأنما
غنمتم من أعدائكم حلالاً طيباً ، أي لذياً هنيئاً لا شبهة في أكله ولا ضرر
، واتقوا الله ، في كل أحوالكم بأن نخشوه ونراقبه ، والله غفور رحيم
، وإذا غفر لكم ما فرط منكم وأباح لكم ما أخذتموه من فداء ، فسبحانه من
الله واسع الرحمة والمغفرة ، لمن اتقاه وتاب إليه قوة صادقته
وقوله ، حلالاً ، حال من دماء الموصولة في قوله : « ما غنمتم » ، أو صفوة
لمصدر غفرت ، أي : أكل حلالاً .

ووصف هذا المأمور بأكله بأنه حلال طيب ، تأكيداً للإباحة حتى
يقبلوا على الأكل منه بدون تخرج أو تردد ، فإن معاتبهم على أخذ الفداء
قبل ذلك جعلتهم يترددون في الانتفاع به وبما غنموه من أعدائهم .
ثم أمرت السورة النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يخبر الأسرى بأنهم
إذا ما فتحوا قلوبهم للحق واستجابوا له ، فإنه - سبحانه - سيموئهم عما
فقدوه خيراً منه ، أما إذا استمروا في كفرهم وعنادهم فإن العاقبة تدور عليهم ،
استمع إلى السورة الكريمة وهي تصور هذا المعنى بأسلوبها البليغ فتقول :

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى
إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ
لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ
مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

قال ابن كثير : عن الزهري عن جماعة من أصحابه قالوا : بعثت قريش إلى رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - في فداء أسراهم ، فقضى كل قوم أسيرهم بما رضوا .
وقال العباس : يا رسول الله ! قد كنت مسلماً فقال رسول الله - صلى الله

عليه وسلم - : « الله أعلم بإعلامك ، فإن لم يكن كانه قول ، فإن الله يحزنك .
وأما ظاهرك فقد كان ملتبنا ، فافتد نفسك وابني أخيك نوفل بن الحارث ، وعقيل
ابن أبي طالب ، وحليفك عتبة بن عمرو أخى بنى الحارث بن فهر . »

قال العباس : ما ذاك هندی يا رسول الله ، فقال له رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - : « فلين المثل الذى دفنته أنت وأم الفضل ، فقلت لها : إن أصبحت
فى سفرى هذا فمذلل المال الذى دفنته لبني : الفضل وعبد الله وقثم ؟ »

قال : والله يا رسول الله إني لأعلم أنك رسول الله ، إن هذا الشئ مما علمه
أحد غيرى وغير أم الفضل ، فأحب لى يا رسول الله ما أصبحت منى : -
عشرين أو قبة من مال كان معى - .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لا ، ذاك شئ - أعطانا
الله منك . »

فقدى نفسه وابنى أخويه وحليفه . فأنزل الله - تعالى - فيه : « يا
أبا النبی قل لمن فى أیدیکم من الأسرى ... الآية . »

قال العباس : فأعطانى الله مكان العشرين الأوقية فى الإسلام ، عشرين عبداً
كلهم فى يده مال يضرب به . مع ما أرجو من مغفرة الله - تعالى - .
وفى صحيح البخارى عن أنس : أن رجلاً من الأنصار قالوا : يا رسول الله
ما اتفق لنا فلتترك لابن أختنا عباس فداءه .

فقال - صلى الله عليه وسلم - : « لا والله ! لا تذرون منه درهما . »
هذا ، والآية الكريمة وإن كانت نزلت فى العباس لإلانتها عامه فى جميع
الإسرى ، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ولأن الخطاب فيها
موجه إلى سائر الأسرى لا إلى فرد منهم دون آخر .

والمعنى : « يا أيها النبی قل لمن فى أیدیکم ، أى : قل للذين تحت تصرف
أیدیکم من الأسرى - أى : من أسرى المشركين فى بدر الذين أخذتم منهم
الفدية ، تطلقوا سراحهم . »

قل لهم — أيها النبي الكريم — : إن يعلم الله في قلوبكم خيراً ، أي :
إيماناً وتصديقاً وهزماً على اتباع الحق ونبذ الكفر والعناد . . . إن يعلم الله —
— تعالى — منكم ذلك . يؤتاكم خيراً مما أخذ منكم . من فداء ، بأن
يخلفه عليكم في الدنيا ، ويمنحكم الثواب الجزيل في الآخرة .

ولقد صدق الله — تعالى — وعده مع من آمن وعمل صالحاً من هؤلاء
الأمري ، فأعطاهم الكثير من نعمه كما قال العباس — رضى الله عنه —
وقوله : د ويغفر لكم ، زيادة في حفضهم على الدخول في الإيمان .

وقوله : د واقه غفور رحيم ، لتبيل قصد به تأكيد ما قبله من الوعد
بالخير والمغفرة .

أي : واقه — تعالى — واسع المغفرة ، والرحمة لمن استجاب للحق .
وقدم العمل الصالح .

والنبيه ، بقوله : د لمن في أيديكم ، الإشعار بأن هؤلاء الأمري
المشركين قد صاروا في قبضة المؤمنين ونهت تصرفهم ، حتى لكان أيديهم
قابضة عليهم .

وأسند وجود الخير في قلوبهم إلى علم الله — تعالى — للإشارة إلى
أن إدهاء الإيمان باللسان فقط لا يكفل لهم الحصول على الخير الذي قدوم
ولا يوصلهم إلى مغفرة الله — تعالى — فعليهم أن يخلصوا الله في إيمانهم حتى
يتألوا فضله وثوابه ، فهو — سبحانه — عالم بذات الصدور .

وقوله : د وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم .
إنذار لهم بسوء المصير إذا ما لجؤا في عنادهم وغدرهم ، وبشارة من الله
— تعالى — لرسوله والمؤمنين بأن العاقبة ستكون لهم .

أي : وإن يرد هؤلاء الأمري ففض هووهم ملك — يا محمد —
والاستمرار في عمارتك ومعادلتك . . فلا تنهم بهم ، ولا تجزع من خيانتهم .

منهم قد خافوا الله - تعالى - من قبل هذه الغزوة بكفرهم وجمودهم لنعمه - فكانت نتيجة ذلك أن أمكنك منهم ، وأظفرك بهم ، وسيد نصرك عليهم بعد ذلك كما نصرك عليهم في بدر ، والله - تعالى - عليم بما يسرونه وما يعلنونه ، حكيم في تدبيره وصنعه .

قَالَا لَهُ الْكُفْرُ إِذَا رَأَى الْأَسْرَى إِذَا مَا اسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ، وَتَبَشِيرُ
الرَّسُولِ - ﷺ - بِأَنْ خِيَا تَتَمَّ سَيَكُونُ وَبِالْهَى عَظِيمِ .
قال للفخر الرازي : وقوله ، فأمكن منهم ، قال الأزهري : يقال أمكنني
الأمْر بمكنني فهو ممكن ومفعول الإمكان محذوف .

والمعنى : فأمكن المؤمنين منهم ، أي : أنهم خافوا الله بما أقدموا عليه
من محاربة الرسول يوم بدر . فأمكن الله منهم قتلاً وأسراً ، وذلك نهاية
الإمكان والظفر . فنبه الله بذلك على أنهم قد ذاقوا وبال ما فعلوه ثم ، فإن
هادراً كان التمكن منهم ثباتاً حاصلًا ، وفيه بشارة للرسول - ﷺ -
أنه يتمكن من كل من يخونه وينقض عهده ، (١) .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التي تحدثت عن أسرى غزوة بدر ما يأتي :
١ - أن على المؤمنين في كل زمان ومكان أن يجعلوا جهادهم خالصاً
لوجه الله ومن أجل إعلاء كلمته ونصرة دينه ، وذلك بأن يبذلوا في قتاله
أعدائه وأعدائهم إذلالاً للكفر وإعزازاً للحق ، وأن يؤثروا كل ذلك على
أهراض الدنيا ومنعها .

٢ - أن أخذ الفداء من الأسرى لأشئ فيه في ذاته ، وإنما عاتب الله
المؤمنين على أخذه من أسرى بدر ، لأن هذه الغزوة كانت المعركة الأولى
بين المؤمنين والمشركين ، وكان إذلال المشركين فيها عن طريق المبالغة في
قتلهم أهم من أخذ الفداء منهم ، وأظهر في كسر شوكتهم ، وعجزهم عن
معاودة الكرة على المسلمين .

قال ابن كثير . وقد استمر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء ، أن الإمام غير فيهم ، إن شاء الله قتل ؛ كما فعل يبنى قريظة ، وإن شاء قادي بمال كما فعل بأمرى بدر ومن أمر من المسلمين ، كما فعل رسول الله - ﷺ - في تلك الجارية وإبنتها اللذين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع ، حيث ردهما وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين ، وإن شاء استرق من أمر .

هذا مذهب الإمام الشافعي وطائفته ، وفي المسألة خلاف آخر بين الأئمة مقرر في موضعه ، (١) .

٣ - أن الذين شهدوا بدرأ من المسلمين كانت لهم مكاتبتهم السامية ، وميزاتهم العالية ، عند الله - تعالى -

ومما يدل على ذلك أنه - سبحانه - عفا عن خطيئهم في أخذ الفداء من الأسرى ثم زادهم فضلاً ومنة فجعل غنائم الحرب حلالاً لهم ، بعد أن كانوا محرمة على إتياع الرسل السابقين .

ففي البخارى عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله - ﷺ - : أعطيت خمسا لم يعطون أحد من الأنبياء قبلى . نصرت بالزهب مسيرة شهر وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً فأبما رجل من أمتى أدر كته الصلاة فليصل . وأحللت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يعبت لى قومه خاصة وبعثت لى الناس عامة ، (٢) .

٤ - أن الإسلام لا يستبقى الأسرى لديه الإذلال والفقر والاستغلال ، وإنما يستبقمهم ليؤلف في فطرتهم نور الحق الذى بأتباعه يعوضهم الله عما أخذ منهم فى الدنيا ، ويمنحهم ثوابه ومغفرته فى الآخرة .

أما إذا استمروا فى عداوتهم للحق ، فإن الدائرة ستدور عليهم .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٢٧

(٢) صحيح البخارى ، باب التيمم ، ج ١ ص ٩١

• - أن الإيمان لا يكون صحيحاً إلا إذا صاحبه التصديق والإذعان .

قال ابن العربي : لما أسر من أسرى المشركين في بدر ، تسلم قوم منهم بالإسلام ، ولم يعضوا فيه هزيمة ، ولا اعترفوا به اعترافاً جازماً ، وبقيهم أنهم أرادوا أن يتقربوا من المسلمين ولا يبعدوا عن المشركين فنزلت الآية :
« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى ... » الآية .

قال هلمأنا : إن تكلم الكافر بالإيمان في قلبه وبلسانه ولم يعض فيه عزيمة لم يكن مؤمناً . وإذا وجد مثل ذلك من المؤمن كان كافراً إلا ما كان من الوسوسة التي لا يقدر المرء . على دفعها ، فإن الله قد عفا عنها وأسقطها .

وقد بين الله أرسوله - صلى الله عليه وسلم - الحقيقة فقال : « وإن يريدوا خيانتك ، أي إن كان هذا القول منهم خيانة ومكرراً ، فقد خانوا الله من قبل ، يكفروهم ومكرهم بك وقتلهم لك فامكنك منهم » وإن كان هذا القول منهم خيراً ويعلمه الله فيقبل ذلك منهم ، ويعوضهم خيراً عما خرج عنهم ، ويغفر لهم ما تقدم من كفرهم وخيانتهم ومكرهم ، (١) .

ثم ختم الله - تعالى - سورة الأنفال بالحديث عن علاقة المسلمين بهم
بعض ، وعن علاقتهم بغيرهم من الكفار وعن الأحكام المنظمة لهذه العلاقات

انفال - تعالى - :

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا

أَجْرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا
 نُرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَهِجِرُوا
 لَكُمْ مِنْ وَلَدِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يَهِجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي
 بِنِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا
 تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا
 لِمَنْ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا
 جَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ
 الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ
 وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ
 مِنْهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

هذه الآيات الكريمة التي نحمد الله - تعالى - بها سورة الأنفال ، وضحت
 المؤمنين في العهد النبوي أقسام ، وذكرت حكم كل قسم منهم .
 أما القسم الأول : فهم المهاجرون الأولون أصحاب الهجرة الأولى .
 وأما القسم الثاني : فهم الأنصار من أهل المدينة .
 والقسم الثالث : المؤمنون الذين لم يهاجروا .
 والقسم الرابع : المؤمنون الذين هاجروا بعد صلح الحديبية .

وقد عبّر - سبحانه - عن القسمين : الأول والثاني بقوله : « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا » .

أى : « إن الذين آمنوا ، بالله - تعالى - حق الإيمان ، وهاجروا ، بأن تركوا ديارهم وأوطانهم وكل نفيس من زينة الحياة الدنيا . من أجل الفرار بدينهم من فتنة المشركين ، ومن أجل نشر دين الله في الأرض وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أى : أنهم مع إيمانهم الصادق ، وسبقهم بالهجرة لإرضاء الله - تعالى - ، قد بالغوا في إعطاء أنفسهم من أجل نصرة الحق . فقدموا ما يملكون من أموال ، وقدموا نفوسهم رخيصة لاف سبيل عرض من أعراض الدنيا ، وإنما في سبيل مرضاة الله ونصرة دينه .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هذا القسم الأول من المؤمنين وهم الذين سبقوا إلى الهجرة . . بأعظم الصفات وأكرمها .

فقد وصفهم بالإيمان الصادق ، وبالمهاجرة فراراً بدينهم من الفتن ، وبالمجاهدة بالمال والنفوس في سبيل إبداء كلمة الله .

وقد جاءت هذه الأوصاف الجميلة مرتبة حسب الوقوع ، فإن أول ما حصل منهم هو الإيمان . ثم جاءت من بعده الهجرة ، ثم الجهاد .

ولعل تقديم المجاهدة بالأموال هنا على المجاهدة بالأنفس ، لأن المجاهدة بالأموال أكثر وقوعاً ، وأهم دفعاً للحاجة ، حيث لا تتصور المجاهدة بالنفس بلا مجاهدة بالأموال .

وقوله في سبيل الله ، متعلق بقوله وجاهدوا ، لإبراز أن جهادهم لم يكن لأى غرض دنيوى ، وإنما كان من أجل نصرة الحق وإعلاء كلمته - سبحانه -

وقوله : « والذين آووا ونصروا » بيان للقسم الثاني من أقسام المؤمنين ، العهد النبوي ، وهم الأنصار من أهل المدينة الذين فتحوا للمهاجرين ، ورجعهم ، واستقبلوهم أحسن إستقبال ، حيث أسكنوهم منازلهم ، وبذلوا لهم أموالهم ، وآثروا هم على أنفسهم ، ونصروهم على أعدائهم .

فآية المكرمة قد وصفت الأنصار بوصفين كريمين .

أولهما : الإيواء الذي يتضمن معنى التامين من الخوف ، إذا ماوى و الملاجأ والمأمن مما يخشى منه ، ومن ذلك قوله — تعالى — « إذاوى نية إلى الكهف . . . (١) » ، وقوله — تعالى — « ولما دخلوا على يوسف دى إليه أخاه . . . (١) » .

ولقد كانت المدينة مأوى وملاجأ للمهاجرين ، وكان أهلها مثالا للكرم الإيثار . . .

ثانيهما : النصرة ، لأن أهل المدينة قد نصروا الرسول — ﷺ — المهاجرين بكل ما يمكن من وسائل التأييد والمؤازرة ، فقد قاتلوا من أنفهم ، وعادوا من عاداتهم ، ولذا جعل الله — تعالى — حكمهم وحكم المهاجرين واحداً فقال : « أولئك بعضهم أولياء بعض . . » .

فاسم الإشارة يعود إلى المهاجرين السابقين ، وإله الأنصار .

وقوله : « أولياء » جمع ولي ويطلق على الناصر والمعين والصديق القريب . . .

والمراد بالولاية هنا : الولاية العامة التي تتناول للتناصر والتعاون
حوال التوارث . . .

أى : أولئك المذكورون الموصوفون بهذه الصفات الفاضلة يتولى
بعضهم بعضاً فى النصرة والمعاونة والتوارث . . . وغير ذلك ، لأن حقوقهم
ومصالحهم مشتركة .

قال الألوسى ماملخصه : « روى عن ابن عباس أن النبى — ﷺ —
أخى بين المهاجرين والأنصار ، فكان المهاجر يرثه أخوه الأنصارى ،
إذا لم يكن له بالمدينة ولى مهاجرى وبالعكس ، واستمر أمرهم على ذلك
إلى فتح مكة ثم توارثوا بالنسب بعد إذ لم تكن هجرة . . . وعليه فالآية
مفسوخة بقوله — تعالى — بعد ذلك « وأولوا الأرحام بعضهم أولى
ببعض فى كتاب الله . . . » .

وقال الأصم : الآية محكمة ، والمراد بالولاية بالنصرة والمظاهرة ، (١)
والذى نراه أن الولاية هنا عامة فهم تشمل كل ما يحتاج إليه المسلمون فيما
بينهم من تعاون وتناصر وتكافل وتوارث وغير ذلك .

وقوله — تعالى — : « والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم
من شيء حتى يهاجروا . . . » بيان لحكم القسم الثالث من أقسام المؤمنين
فى العهد النبوى .

أى : هذا الذى ذكرته لكم قبل ذلك فى الآية هو حكم المهاجرين السابقين .
والانصار الذى آوهم ونصروهم أما حكم الذين آمنوا ولم يهاجروا ، وهم المقيمون
فى أرض الشرك تحت سلطان المشركين وحكمهم . . فإنهم ليس بينهم وبين
المهاجرين والانصار ولاية إرث . حتى يهاجروا ، إلى المدينة ، كما أنكم
- أيها المؤمنون - لا تنتظروا منهم تعاونا أو مناصرة ، لأنهم - بسبب إقامتهم
فى أرض الشرك وتحت - إبطانه - أصبحوا لا يملكون وسائل المناصرة لكم .
ثم قال - تعالى - : : وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على
قوم بينكم وبينهم ميثاق . .

أى : وإن طلب منكم هؤلاء المؤمنون الذين لم يهاجروا النصرة على -
أعدائكم فى الدين ، فيجب عليكم أن تنصروهم ، لأنهم إخوانكم فى العقيدة .
بشرط ألا يكون بينكم وبين هؤلاء الأعداء هدوء ومهادنة ، فإذا كنتم فى
هذه الحالة يحظر عليكم نصرة هؤلاء المؤمنين الذين لم يهاجروا ، لأن نصرتهم
على من بينكم وبينهم هدوء نقض لهذا العهد .

أى : أن نصرتكم لهم إنما تكون على الكفار الحربيين لا على الكفار
المعاهدين وهذا يدل على رعاية الإسلام للمهود ، واحترامه للشروط والعقود .
قال الجمل : أثبت الله - تعالى - القسمين الأولين النصرة والإرث ،
ونفى من هذا القسم الإرث وأثبت له النصرة ، (١) .
وقوله : : والله بما تعملون بصير ، تدليل قصد به الترغيب فى طاعة الله .
والتحذير من معصيته .

والله - تعالى - مطلع على كل أعمالكم فأطيعوه ، ولا تغالغوا أمره ،
وقبل أن تذكر السورة القسم الرابع من أقسام المؤمنين ، تتحدث عن ولاية
الكفار بعضهم لبعض فتقول : : والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ، إلا
تفعلوه تكن فى الأرض فساد كبير . .

أى : والذين كفروا بعضهم أولياء بعض في النصرة والتعاون على قتالكم وإفلاككم - أيها المؤمنون - ، فهم وإن اختلفوا فيما بينهم إلا أنهم يتفقون على هداوتكم وإنزال الأضرار بكم .

وقوله : « إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ، تحذير شديد للمؤمنين عن مخالفة أمره - سبحانه - .

أى : إلا تفعلوا - أيها المؤمنون - ما أمرتكم به من العناصر والتواصل وتولى بعضكم بعضا ، ومن قطع العلائق بينكم وبين الكفار ، تحصل فتنة كبيرة في الأرض ، ومفسدة شديدة فيها ، لأنكم إذا لم تصيروا بداً واحدة على الشرك ، يضعف شأنكم ، وتذهب ريحكم ، وتسفك دماؤكم ويتطاول أعداؤكم عليكم ، وتصهرون عاجزين عن الدفاع عن دينكم وهرضكم . . وبذلك نعم الفتنة ، وينتشر الفساد .

وقوله - تعالى - « والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا وفسروا ، أولئك هم المؤمنون حقا . » كلام مسوق للثناء على القسمين الأولين من الأقسام الثلاثة للمؤمنين وهم المهاجرون والأنصار

إذ أن الآية الأولى من هذه الآيات الكريمة قد ساقها الله - تعالى - لإيجاب التواصل بينهم ، أما هذه الآية فقد ساقها سبحانه - للثناء عليهم والشهادة لهم بأنهم هم المؤمنون حق الإيمان وأكمله ، بخلاف من أقام من المؤمنين بدار الشرك ، مع الحاجة إلى هجرته وجهاده .

قال الفخر الرازي : « أنى الله - تعالى - على المهاجرين والأنصار من ثلاثة أوجه :

أولها - وقوله : « أولئك هم المؤمنون حقا ، فإن هذه الجملة تفيد المباينة في مدحهم ، حيث وصفهم بكونهم محققين محققين في طريق الدين .
وقد كانوا كذلك ، لأن من لم يكن محققاً في دينه لم يتحمل ترك الأديان السالفة ، ولم يفارق الأهل والوطن ، ولم يبذل النفس والمال .

وثانيها - قوله : « لهم مغفرة » والتذكير يدل على الكمال ، أى : مغفرة
شاملة كاملة .

وثالثها - قوله : « ورزق كريم » والمراد منه الثواب الرفيع .
والحاصل : أنه - سبحانه - شرح أحوالهم في الدنيا والآخرة .
أما في الدنيا فقد وصفهم بقوله : « أولئك هم المؤمنون حقا » .
وأما في الآخرة فالقصد إما دفع العقاب ، وإما جلب الثواب .
أما دفع العقاب فهو المراد بقوله « لهم مغفرة » . وأما جلب الثواب
فهو المراد بقوله « ورزق كريم » ، (١) .

ثم ختم - سبحانه - للسورة الكريمة ببيان القسم الرابع من أقسام
المؤمنين في العهد النبوي فقال : « والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا
معكم فأولئك منكم » .

أى : « والذين آمنوا من بعد المؤمنين السابقين إلى الإيمان والهجرة ،
وهاجروا إلى المدينة ، وجاهدوا مع المهاجرين السابقين والانصار من أجل
إعلاء كلمة الله ، فأولئك الذين هذا شأنهم » منكم ، أى : من جعلتكم - أيها
المهاجرون والانصار في إستحقاق الموالاة والنصرة ، وإستحقاق الأجر
من الله ، إلا أن هذا الأجر ينقص عن أجرهم ، لأنه لا يتساوى السابق في
الإيمان والهجرة والجهاد مع المتأخر في ذلك .

قالوا : والمراد بهذا القسم الرابع من أقسام المؤمنين ، أهل الهجرة
الثانية التى وقعت بعد الهجرة الأولى ، وقيل المراد بهذا القسم المهاجرون
بعد صلح الحديبية ، أو بعد غزوة بدر ، أو بعد نزول هذه الآية ، فيكون
الفعل الماضى « آمنوا » ، وما بعده بمعنى المستقبل .

وقوله : « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » . بيان
لحقوق الأقارب بالنسب .

والأرحام جمع رحم ، وأصله رحم المرأة الذى موضع تكوين الولد حتى بطنها ، وسمى به الأقارب ، لأنهم فى الغالب من رحم واحد وأولوا الأرحام فى اصطلاح علماء الفرائض : هم الذين لا يرثون بفرض ولا تمصيب أى : وفدوا القرابة بعضهم أولى فى النوارث وفى غير ذلك مما تقتضيه خطاب الحياة من التكافل والأرحام .

وقوله : وفى كتاب الله ، أى : فى حكمه الذى كتبه على عباده المؤمنين ، وأوجب به عليهم صلة الأرحام فى هذه الآية وغيرها .

قال الألوسى : وأخرج الطيالسى والطبرانى وغيرهما عن ابن عباس قال : آخى رسول الله - ﷺ - بين أصحابه ، وورث بعضهم من بعض حتى تحولت هذه الآية فتركوها ذلك وتوارثوا بالنسب ، (١) .

أى أن هذه الآية الكريمة نسخت ما كان بين المهاجرين والأنصار من التوارث بسبب الهجرة والمؤاخاة .

وقوله : إن الله بكل شئ عليم ، تذييل ختمت به السورة الكريمة لحض المؤمنين على التمسك بما أشتملت عليه من آداب وتشرعات وأحكام لينالوا رضاه وثوابه .

أى : إن الله - تعالى - مطلع على كل شئ مما يدور ويجرى فى هذا الكون ، ولا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء ، وسيجازى الذين أسأوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد مدحت المهاجرين والأنصار مدحاً عظيماً ، كما مدحت المؤمنين من بعدهم ، وحضت الجميع على التناصر والتعاون ولتألف ورفقت من شأن رابطة الرحم وحضت على الجهاد فى سبيل الله ، وأمرت بالوفاء بالعهود ، وبالوقوف صفاً واحداً فى وجه الكفار حتى تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى .

وبعد : فهذا ما وفق الله إليه في تفسير سورة الأنفال ، أو سورة بدر
 — كما سماها ابن عباس — لأنها تحدثت باستفاضة عن أحداث هذه الفزوة
 وعن أحوال المعتركين فيها ، وعن بشارات النصر التي تقدمتها وصاحبته
 وعن غنائمها وأسراها .

كما تحدثت عن صفات المؤمنين الصادقين ، وعن الأقوال والأعمال التي
 يجب عليهم أن يتمسكوا بها لينالوا رضا الله ونصره ، وعن رذائل المشركين
 ومساكنهم القبيحة لمحاربة الدعوة الإسلامية ، وعن المبادئ التي يجب أن
 يسيروا عليها المسلمون في حربهم وسلمهم ، وعن سنن الله في خلقه التي
 لا تتغير ولا تتبدل ، والتي من أهمها :

أنه — سبحانه — لا يسلب نعمة عن قوم إلا بسبب معاصيهم وتفكيجهم
 للطريق القويم ، قال — تعالى — : ذلك بأن الله لم يك منفراً نعمة أنعمه
 على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

وأنه — سبحانه — قد جعل العاقبة الحسنة للمؤمنين ، والعاقبة السيئة
 للفاستقين ، وأخبر المنحرفين عن صراطه بأنه [سيفقر لهم ما سلف من
 خطاياهم متى أقبلوا عنها ، وأخلصوا له العبادة .

قال — تعالى — : قل للذين كفروا إن يذنبوا يغفر لهم ما قد سلف .
 وإن يمددوا فقد مضت سنة الأولين ، وقائلوهم حتى لا تكون فتنة ويكونوا
 للدين كله ، فإن انتهبوا فإن الله بما يعملون بصير ، وإن تولوا فاعلموا
 أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير .

وختاماً : نسأل الله - تعالى - أن يوفقنا للمداومة على خدمة كتابه ،
 وأن يهيئ لنا من أمرنا رشداً ، وأن يتمم لنا نوراً ويغفر لنا لأنه على كل
 شيء قدير .
 وصلى الله على سيد محمد وعلى آله وصحبه وسلم

محمد سيد طنطاوي

مفتي الديار المصرية

فهرس اجمالى لتفسير سورة الانفال

رقم الصفحة	رقها	الآية المفسرة
٢٧	١	جاءواك عن الانفال
	٢	انما المؤمنون الذين
	٣	الذين يقيمون الصلاة
	٤	تأؤئك هم المؤمنون حقا
٤٤	٥	كما أخرجك ربك
	٦	بما دلوك في الحق
	٧	برأء يمدكم الله
	٨	ليحقق الحق ويبطل
٥٢	٩	إذا يستفيثون ربكم
	١٠	وما جعله الله إلا
	١١	إذا ينشيك النعاس
	١٢	إذا يوحى ربك
	١٣	ذلك بأنهم شاقوا الله
	١٤	فذلكم فذوقوه
٧٥	١٥	يا أيها الذين آمنوا إذا
	١٦	ومن يولهم يومئذ
	١٧	ظلم يقتلهم ولكن
٧٥	١٨	ذلكم وإن الله
	١٩	إن تستفتحوا فقد
٨٧	٢٠	يا أيها الذين آمنوا أطيعوا
	٢١	ولا تكونوا كالذين
	٢٢	إن فر العواب
	٢٣	ولو علم الله فيهم
١٩	٢٤	يا أيها الذين آمنوا استجبوا

رقم الصفحة	رقبها	الآية المفسرة
٩١	٢٥	واقرأوا فتنه
	٢٦	واذكروا إذ أنتم
١٠١	٢٧	بأيها الذين آمنوا لا تخوفوا
	٢٨	واعملوا إنما أموالكم
	٢٩	بأيها الذين آمنوا إن تتقوا
١٠٨	٣٠	وإذ يكرهك الذين كفروا
	٣١	وإذا تلى عليهم آياتنا
	٣٢	وإذا قالوا لهم
	٣٣	وما كان الله ليعذبهم
	٣٤	وما لهم ألا يعذبهم الله
	٣٥	وما كان صلاتهم عند البيت
	٣٦	إن الذين كفروا ينفقون
	٣٧	لهم من الله الخبيث من الطيب
	٣٨	قل للذين كفروا إن
	٣٩	وقفات لهم حتى لا تكفوا
	٤٠	وإن تولوا فاعلوا
١٢٨	٤١	واعملوا إنما غنمتم
١٣٧	٤٢	إذ أنتم بالعدوة الدنيا
	٤٣	إذ يريكم الله في
	٤٤	وإذ يريكم وهم إذ التقيتم
١٤٥	٤٥	بأيها الذين آمنوا إذا لقيتم
	٤٦	وأطيعوا الله ورسوله
١٤٩	٤٧	ولا تكونوا كالذين خرجوا
	٤٨	وإذ زين لهم الشيطان
	٤٩	إذ يقول المنافقون

رقم الصفحة	رقبها	الآية المفسرة
١٦٣	٥٠	ولو زرى إذ يتوفى الذين كفروا
١٦٣	٥١	ذلك بما قدمت أيديكم
١٦٧	٥٢	كذاب آل فرعون
	٥٣	ذلك بأن الله لم يك مغيرا
	٥٤	كذاب آل فرعون
١٧٤	٥٥	إن شر الدواب عند الله
	٥٦	الذين عاهدت منهم
١٧٤	٥٧	فإما تثقفنهم في الحرب
	٥٨	ولما يخافن من قوم
	٥٩	ولا يحسبن الذين كفروا
١٨١	٦٠	وأعد لهم ما استطعتم
١٨٩	٦١	وإن جنحوا للسلم
	٦٢	وإن يريدوا أن يخدعوك
	٦٣	وألف بين قلوبهم
١٩٦	٦٤	يأيها النبي حسبك الله
	٦٥	يأيها النبي حررض المؤمنين
١٩٦	٦٦	الآن خفف الله عنكم
٢٠١	٦٧	ما كان لنبي أن يكون
	٦٨	لولا كتاب من الله سبق
	٦٩	فسكلوا ما غنمتم
٢١٠	٧٠	يأيها النبي قل لمن
	٧١	وإن يريدوا خيانتك
٢١٦	٧٢	إن الذين آمنوا وهاجروا
٢١٦	٧٣	والذين كفروا بهضمهم
	٧٤	والذين آمنوا وهاجروا
	٧٥	والذين آمنوا من بعد

رقم الإيداع ٢٠٦٨ / ١٩٧٩



القاهرة

٩٣٦٠٠٨٥

٧ ش باب الأخضر المشهد الحسيني